رواية
جبروتيا
أسماء الصيّاد
دار البشير

چِبروتْیا

الطبعة الأولى
1439 هـ
2018 م

اسم الكتاب: چـبروتْيا
التأليف: أسماء الصياد
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 392 صفحة
عدد الملازم: 24.5 ملزمة
مقاس الكتاب: 14x20
عدد الطبعات: الطبعة الأولى
رقم الإيداع: 2017 / 27386
الترقيم الدولي: 4 - 653 - 278 - 977 - 978

دار البشير للثقافة والعلوم
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714
جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

چِبروتْيا

رواية

أسماء الصَّيّاد

دار البشير للثقافة والعلوم

ويُرتّلُ وحيٌ من السماء، ويشهدُ التاريخ التليد،

ويرسخُ بين دفتي كتاب الدَّهرِ، ويطوف بأجواء كلِّ مجدٍ عريق؛ أنْ

﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾!.

تنويهٌ هام

تحتوي هذه الرواية على «شخصيات حقيقية، و أخرى وليدة خيال الكاتبة»..

وبالتالي؛ فالشخصيات «غير الحقيقية»؛ ما ذُكرتْ بالرواية إلّا لخدمة السياق الأدبي، والتاريخي للأحداث..

الكاتبة..

إهــداء

إلى منْ يقتفون أثرَ الحقيقة، ولا غيرها...

أهدي هذا العمل، سائلة المولى - جلَّ وعلا - أن يتقبّله بقَبولٍ حسنٍ، وليكتب له البقاء، وليجعلهُ حُجةً لنا لا علينا يوم نلقاه..

أسماء إبراهيم الصَّيّاد

الفصل الأول
وشَهِدَ شاهدٌ من أهلها
نبوءتا چبروتيا..

شِبه جزيرة إيبريا.. مملكة «قشتالة».. عام ١٤٥٠م

طرقاتٌ قوية تُفزع عرَّافة مملكة «قشتالة»، فيما تجلسُ بصومعتها تتمتِمُ بكلماتٍ غير مسموعةٍ، وهي تطارد جُرذًا قد تسلّل إلى داخل الصومعة، وظلّ طيلة ليلةٍ مضت يقرض سلّةً من الخوص كانت تحوى بعضَ فُتات خبزٍ جافّ كانت العرافةُ العجوز تقتاتُ عليه إذا ما باغتَها الجوع.

بينما اخترقت بعضُ الخيوط الذهبية التي جادتْ بها شمسُ الصباح النافذةَ الوحيدة المتهالكة، همهمَتْ غاضبة:

- «يالكَ من وغدٍ ! سأنالُ منكَ بلا شكّ، فإن لم يكن اليوم ففي الغد، لكن لنْ أكُفّ عن تعقّبك أيها اللعين».

ظلّت تجترّ أقدامها ببطءٍ بالغ، وتحوم بجَنَبات المكان باحثةً عن ذلك الكائن المزعجِ الذي نغَّصَ عليها هدْأةَ الليل، ومازالت تتجاهلُ تلك القبضة الفولاذيّة التي كادت تهشمُ بابَ الصومعة..

جُلّ شغلها الشاغل الآن هو ؛ أنْ تظفر بقتلِ المشاكس الصغير .

أعْياها البحثُ عنه، فقد تجاوزت الستّين بعدّةِ أعوام، عادت حيث فراشها البائس المحشوّ بالقشّ، وجلست فوقه تنتظرُ رحيل ذلك الطارق المُزعج، الذي لم يتحلّ بالأدب والذّوق، وجاء ليزعجها بساعة مبكرة.

همستْ، والدماءُ تغلي في عروقها النّحيلة:

- سُحقًا لهؤلاءِ النّسوة الثرْثارات.. لعلّ بالباب إحداهن تريدني أنْ أخبرها ما إذا كان زوجُها يريد الزواج بغيرها، أم لا؟!

أوْ لعلّه أحدُ هؤلاء البؤساء الذين يحلمون باكتشافِ كنزٍ ثمينٍ يُغْنيه عن العمل مدى حياته!!

فتبًّا لهؤلاء.. لا يكفّون عن طرْق بابي كلّما حزَبَهم أمرٌ. ألا تنتهي طلباتُهم، وتتوقّف أمنياتهم لبعض الوقت.. فأمكثُ خالية البالِ لبعض الوقت؟!

تتوجّه نحْو نافذة الصّومعة الوحيدة التي سقطت بعضُ قِطعها الخشبية، كما تساقطت بعضُ أسنانها التي كانت تتلألأ كالبلّورِ بريْعان شبابها..

تحاولُ جاهدةً أن تُميّز ملامحَ الطارق، ولكنْ هيهات لها أن تُرجع إلى عينيها حدّةَ البصر!

حينَ إذْ عجزت عن رؤية ذلك الوافد، أردفتْ بصوتٍ ضعيف:

- مَنْ بالباب؟!

أتاها صوتُه مجيبًا:

أحدُ حُرّاس قصر جلالةِ الملك «خوان الثاني».

ــ وماذا تريدُ أيها الحارس؟!

– إنّ جلالة الملك.. يريدُكِ الحينَ بقصره؛ فأسْرعي أيّتها العرَّافة، وإلّا قطع المَلِكُ رأسي، ورأسَكِ.

تمتمتْ مُسْتنكرة:

– وماذا سيعودُ على مليكك من قطْع رأسٍ، قدِ اشْتعل شيبًا، وانتحل بعضُ شَعره؟!

استحثّها الحارسُ على الإسراع بالقدوم معه بقوله:

ــ إذا لم تخرجي الآن؛ سأكسِر الباب، وأقتادُكِ بالقوّة!!

تُسرِع العجوز الخُطا ــ قدْرَ اسْتطاعتها ــ كما لوْ كانت سُلحْفاة بسباقِ عَدْوٍ بين قطيعٍ مِن الغزلان الفارّة من ليثٍ يتضوّر جوعًا.

أخيرًا بلغتِ الباب، وخرجتْ لترى وجهَ الحارس أمامَها مباشرةً، يتطايرُ الشرّ من عينيهِ كشراراتِ لهبٍ تناثَرت مِن خلال فوّهة بركانٍ نشِط.

فسألته:

– أي بُنيّ.. ما الأمر؟!

ــ لا علم لي.

هكذا كان ردُّه فظًّا على سؤالها.

سارتْ خلفَه ببطء غيرِ مُتعمّد، وبينما كانت تنظرُ خلفها نحْو صومعتها، وتقول في صوتٍ خافتٍ:

- يبدو أنّ الحياة قد وُهِبَت لك لليلةٍ أخرى.. أيّها الجُزذ الشّره!»

_ أسرعي يا امرأة.. هَلُمّي.. هيّا.. مازال الطريق طويلًا، وإذا لم نُسرع؛ فنحْنُ قتلى لا محالة!!

لم تكنْ هناك فائدةَ تُرجَى مِن كلامه، فخطواتُها مازالت على حالها، يجترُّها الحارسُ عُنوَةً، فقد نفدَ صبره، حتى كاد وشاحُها الثقيل يسقط عن رأسِها!

توعَّدته العرَّافة في غضب:

_ تبًّا لك؛ آلا تخشَ غَضْبتي؟!

ينظرُ لها، فتلتقي أعينُهما؛ حيث مقلتاها الثابتَتان، ولا يطْرف لعينيها هدْب.. تُصوّبُ سهامَيهما صوْبَ مقلتيه تمامًا؛ فتسري في الحال القشعريرةُ بجسده، كَمَنْ صعقَه البرق، حتى كاد يُغشَى عليه، ولكنها تُشفقُ عليه، وتقول:

- لا تخفْ يا ولَدي، لن أؤذيك..

فقط؛ أريدُكَ أن تُقدِّر أني امرأةٌ مُسِنّة، ناهيكَ عن كوْني «چبروتيا»، عرّافة جزيرة «إيبريا» بأسْرِها..

أنا عرّافة شبْه الجزيرة التي يقصدُها القاصي والدّاني من أجل أمورٍ شتّى، حتى مليكُك «خوان»، هذا الذي أرسلكَ لاسْتدعائي اليوم، لطالما طلبَ مَشورتي بأمورٍ هامّة، يبدو أنَّك لم تسمعْ بي من قبل!

قبل أن تتحرّك شفتاه بالإجابة، بادرتْه بقولها:

– لا عليكَ، يبدو أنّك حديثُ العهدِ بحراسةِ قصرِ الملك.

هزّ رأسَه مُجيبًا، ثمّ أشار لها بيدٍ مُرتجفة، وانحَنى قليلًا أمامَها، بما يعني.. «أنْ تفضّلي، وتقدَّمِيني»..

سارتْ أمامه، بينما كان يتْبعُها، والخوفُ داخله يتضاعف، وإذْ بها تُردِف:

– أعلمُ كمْ تخشى بطْشَ الملك، وممّا زاد من خوفك أنْ أصبحتَ تَرْهبني أنا أيضًا، فبالنّسبة للملك.. فلا تَخَفْ؛ فهو قد وُلِدَ على يديَّ هاتين، ولا أظنّه يجرؤ على أنْ يؤذيني.. وإنْ تأخّرتُ عليه؛ فهوَ يُدرك مدى ضعفِ امرأةٍ بمثل عُمري. وبالتالي، فلن يؤاخذَك الملكُ بسببي..

وأما أنا، فلتأمَن جانبي؛ فقد وعدتُك ألّا أؤذيك مادُمتَ توقرُني.

هُنا قال الحارسُ بصوتٍ مُرْتعش:

– إذن، عاهديني على ألّا يفتكَ بي الملك؟!

اسْتدارت لتُجمّدَ أوصاله بنظرةٍ حادّةٍ من عينيها الواسعتين، وتقول بصوتٍ تعْتَريه الخشونة المفاجئة:

- لا أحدَ يُملي الأوامرَ على عرَّافة «إيبريا» يا «باترسون»!!

كادَ الحارس يصابُ بالجنون حين سمعَ اسْمَه ينسابُ من بيْن شفتي العجوز، تلك التي لم يلتقِ بها قبلَ هذا اليوم!!

فما كان منْه إلّا أن جثا على رُكْبتيْه متوسّلًا لها، عسى أنْ تغفرَ له زَلَّته، ولكنّها لم تُعقِّب بكلمةٍ واحدة، بل مضتْ بطريقِها نحو القصر؛ حيث تعرفُ الطريق إليه جيدًا، حتى لو صارت كفيفة؛ فكَمْ شَهِدَ ذلك الطريقُ سنواتٍ تلْوَ سنوات خَلتْ من عُمرها!

على مقرُبةٍ من بوّابة القصر الشاهقة، توقّفت العرّافة فجأة عن المسير، ثمّ انْفرجتْ ثنايا وجْهها عنِ ابتسامةٍ غامضةٍ، ثمّ قالتْ بصوتٍ خفيض:

- هنيئًا لك وَلِيُّ العهدِ أيّها الملِك!

سمعَها الحارسُ تقول ذلك؛ فازْدادَتْ وجنتاه احْمرارًا، وتملَّكته الرّهبةُ أكثرَ من ذي قبل؛ لأنّ الملك قد تزوّجَ حديثًا منذُ شهرٍ وبضعة أيّام، في حين أنّ تلك العرّافة لم تأتِ إلى القصرِ مُنذ الْتحاقِه بطاقم الحراسة ببوّابة القصر بعْدَ زواج الملك بعدّةِ أيام قليلة!

إذن.. فكيفَ لتلك المرأةِ أنْ تعلم بأمْر حَملِ الملِكة منْ عَدَمه؟!

ظلّ «باترسون» سابحًا في شرودٍ طويلٍ منذُ دخول تلك العرّافة القصر، ولم ينتَبِه إلّا لصوتِ رئيسه المباشِرِ قائلًا له:

– ماذا بِكَ أيّها الجندي؟ ما لي أراك شاردًا هكذا؟!

قال «باترسون» بكمدٍ، وارْتِعاب:

– لا شيء سيدي، ولكنْ؟!

– ولكنْ ماذا؟! إنّ الحراسة هنا تتطلّبُ اليقظةَ التامّة، أتدري قدرَ تلك المهمّة التي تؤدّيها؟!

ثمّ تابع قائدُ الحرس توْبيخَ «باترسون» بقوله:

– لقد نلتَ شرفًا عظيمًا؛ أنْ عملتَ بالحراسة هُنا، بينما منْ هُم مثْلَك ينزحونَ عنِ الدّيار مع الجيش في حروبِه المتعدّدة ببلادٍ عِدّة، فهل تريدُ إقصاءك مِن هذا المكان المميز، ومرافقةَ الجيش حيثما توجَّه؟!

– لا سيدي، ولكنْ؟!

قالها «باترسون» في رجاء..

– تكلّمْ أيّها الجندي، هيّا...

– أنا لا أريد، إذا سمحت لي سيِّدي، أنْ أرافق تلك العجوز تارةً أخرى عند خروجِها مِن القصر عائدةً إلى حيث أتَت!!

– مَنْ تظُنّ نفسَك أيّها المعْتوه؟! إنَّكَ مجرّد جندي مغْمور.. وما عليْك إلّا تنفيذُ الأوامر دونَ مناقشة، أو اعْتراضٍ، والويْلُ لك لوْ كرّرت هذا الهُراء!

لذا؛ لاذَ «باترسون» البائسُ بالصمتِ المطْبق، بينما تأرْجَحتْ بخاطره مخاوفُ وأوهامٌ لا تُعدّ ولا تُحصى، وهو يتخيّل مصيرَه المجهول!

هكذا مكثَ الحارسُ المسكين بمقرّ حراسته خارجَ بوّابة القصر المهيب، بينما دلفتْ «العرّافة» إلى القصر مارّةً بالحديقة الشاسعَة المؤدّية إلى البهْو الطويل، انتهاءً ببلاطِ عرْش الملِك، وما أنْ وصلت للبلاط؛إلّا وأعْلن كبيرُ حرّاس البلاط الملكي عنْ وصولها قائلًا:

- موْلاي جلالةَ الملِك المُعظَّم «خوان الثاني»، إنَّ العرّافة «ڤبروتيا» قد أتَتْ، وتنتظرُ أنْ تأذنَ لها بالدّخول.. موْلاي..

أشارَ الملِك بيده إشارةَ الإذْن، بينما كان يقفُ شاردًا، يحتَسي الخمرَ كعادته..

أدركتِ المرأةُ وقتَها، كمْ هو مهْمومٌ، يغالبُ قلقًا يعْتَريه.. وإلّا فكيفَ له أنْ يشربَ النبيذ بساعةٍ مبكّرة من النهار كهذه السّاعة!!

انْحنتِ العرّافة قليلًا لتحَيّيه، وقالتْ بصوتٍ هادئٍ:

- موْلاي الملك، ماذا بكَ؟! أتخشىَ أنْ تضعَ جلالة الملكة «مارثا» أُنثى؟!

اسْتدارَ الملِك إليها، ورمَقَها بنظرةٍ حائرةٍ، فاستطردتْ:

- أشعرُ بما يجولُ بذهنكَ، ولكنْ..

– ولكنْ ماذا يا «چبروتيا»؟!، هاتِ ماعندك.

– أعْني.. ولكنْ أتستطيعُ دفعَ القدَرِ يا صاحبَ الجلالة؟!

– أفْصِحي مباشرةً!

– لا شيء البتة يا بُنيّ، أتأذنَ لي بِأنْ أرى الملكة؟!

– أجلْ، في التوّ «چبروتيا»..

ثمّ صاحَ في قائدِ حرس البلاطِ الملكيّ:

– أيّها الحارس.. خُذ بيدِ العرّافة إلى جناح الملكة.

قاطعتْهُ العرَّافة:

– بل أعرفُ الطريق إلى الجناح جيدًا، وأحفظُ ملامحَ هذا القصر، وأدقّ تفاصيله أكثرَ منك أنتَ نفسَك.. أنَسيت؟!

– لا.. لمْ أنْسَ..

قالها «خوان»، وابتسامةٌ منقوصةٌ قد غَشَتْ وجهَه الأشْهَب.

ما مِن أحدٍ يستطيعُ أن يُقاطعَ الملك، أوْ يناقشه في أمرٍ قدْ أصدَرَه بعد والديه الرّاحليْن، سوى تلك العجوز الغامضة «چبروتيا»!

بالتأكيد لا أحد، حتى أنّ زوجتَه الملكة البرتغالية «إيزابيل أفيس» نفسَها لا تستطيعُ ذلك إطلاقًا..

إذن.. فوَراءَ العرّافة منَ الأسْرار ما يُغري بالسّعي إلى معرفته!

طرقتِ العجوزُ بابَ جناح الملكة المُسْجاة بفراشِها الوثير ، يحيطُ الحرير جسدَها المْشوق من كلّ جانب، تبتسمُ الملكة رغمَ شُحوب وجْهها، ورغمَ قواها الخائرة؛ حينَ رأت «چبروتيا» التي تعرفُها جيدًا؛ فقدْ رأتْها الملكةُ بحفل زفافها إلى الملك «خوان الثاني».. ومنذُ ذلك اليوم، وهي تتذكّرها جيدًا.

– تعالي.. «چبروتيا».

– موْلاتي..

ثمّ انحَنتْ العرّافة قليلًا تارةً أخرى لتحيّة الملكة.

– اجْلسي أيّتها العرّافة.

قالتها الملكةُ بعدَ أنْ أشارتْ لإحدى وصيفاتها لمساعَدَة العجوز على الجلوس بجوار فِراشها.

أومأتِ الوصيفةُ قائلة:

– سمعًا وطاعة.. موْلاتي الملكة.

جلستِ العرَّافة بمساعدَةِ الوصيفة، تراقبُ وجْهَ الملكة عن كَثَبٍ في هدوءٍ تامّ.

صمْتٌ مُطبق يخيّم على الجناحِ الملَكي، فيما تتبادَلُ الملكةُ والعرَّافة النظراتِ الصامتةَ..

إلى أنْ قرأتْ «إيزابيل» بعيني «چبروتيا» الزّرقاوينِ الرّغبةَ في إخراجِ الوصيفات مِن الجناحِ لبعْض الوقت، فثمّة أمْر هامّ لا بدّ مِن قوله بعيدًا عن كلّ أذُنٍ متلصّصة!

وما أنْ أشارتْ «إيزابيل» بيدها لهُنّ؛ إلّا وخرَجْن مُذْعناتٍ للأمْر.

- أتسمحُ لي جلالةُ الملكة بأنْ أضعَ يدي فوقَ بطنها للحَظات؟!

سألتْ «چبروتيا».

أومأت الملكةُ موافِقةً..

ثمّ أزاحَتْ العرّافة الغطاءَ الحريري عن جسدِ الملكة، ووضعَتْ يدَها فوق بطنها، وإذا بملامح وجْهِها تتكدّر، وتزدادُ تعرّجات جبينها، وتشْخَص ببصَرِها نحْو سقف الجناح، كمَنْ تَسْتشرف الغيب.. مُقتضبةَ الحاجبين، تتمتِمُ بكلماتٍ غيرِ واضحة، وكأنّها تُحدّثُ شخصًا أمامَها بِلُغةٍ مُغايرة لتلك اللّغة التي تسودُ البلادَ آنذاك!

قاطعتْها الملكةُ البرتغالية «إيزابيل أفيس»:

- ماذا هناك أيّتها العرّافة؟!

توقّفت العجوزُ عن حديثها الغامض، ورمَقتِ الملكةَ بنظرةٍ يَشوبها بعضُ الأسى والحزن، ثمّ انْحنتْ تحيّيها، ومضَتْ تجُرّ مِرطَها الأسود الرثّ الباهتَ تاركةً الجناح!

– هل هناكَ مَكروه؟!

سألتْها الملكةُ في توتّرٍ مَلحوظٍ.

التَفتتْ إليها العجوز، وقالتْ بتلعْثمٍ:

– لا.. لا.. إنّ عطايا الربّ لا تُردّ.

– لمْ أفهمْ بعد!!

قالتها «إيزابيل» بصوتٍ مُرتجفٍ، وجبينُها يتفصّدُ عرقًا..

اكْفَهرّ وجهُ العرَّافة، وقالتْ بصوتٍ خافت يعتصرُه الألم:

– يا لَحظّكِ العاثر يا ابْنةَ أفيس!!

– هل تقولينَ شيئًا .. چبروتيا؟!

– فيما بعدُ يا جلالةَ الملكة.. فيما بعد، لا بدّ أنْ أذهبَ الآن.

انْحنتِ العجوزُ قليلًا، ثمّ خرجتْ مِن جناح الملكة..

أخذتْ تحثّ الخُطا مُبتعدةً عنِ الجناح، فيما باغتَتْها ذكرياتُها عندما كانت تعيشُ بذلك القصر، وتذكّرتْ طفولةَ «خوان الثاني» الذي لطالما لقَّنهُ أبوه «هنري الثالث»، ملِك قشتالة وقشتالة»، أشياءً غيرَ منْطِقية.. بقوله:

«افْعلْ ما تراه صحيحًا دونَ مراجعةِ أحد..

خُذْ ما تريدُ بالقوّة لا باللّين..

لا تَتهاونْ مع مَنْ يُعارضك، أو يخالفُك الرأي..

عِشْ بعقلك، لا بقلبك..

لا تستمعْ إلى الموسيقى؛ فهي ترقّق المشاعر، وتُرهِفُ الحسّ..

لا تتأمّل لوحة، ولا تهوى فنًّا..

ولا تجعَلْ حولَك سوى المحاربين الصّناديد..

لا تُشعرْ زوجتّك - في المستقبل - بأنّك تحبّها؛ فتبدو أمامَها ضعيفًا، وَهِنًا؛ فلا تحترمَكَ، ولا تهابكَ..

لا تُجالسَ الأطفال.. و لا تداعبهم..

اقتنصْ ما تشاء، وإنْ لم يكنْ لك؛ يَكْفيك أنك تريدُه..

تخيَّر حاشيتَك ممّن لهم أيادٍ باطشة.. وشَكيمَةٌ.. وبأسٌ شديد..

وتخلَّص ممّنْ طغتْ شفَقَتُهُ على حَزْمه..».

كمْ آلَمَ الملكةَ الأمّ «كاثرين لانكاستر» أنْ ترى وتسمعَ زوجَها الملك «هنري الثالث» يلقّن ابنَه «خوان الثاني» تلكَ السّموم النّاقعة في صورةِ نصائحَ غالية، ومأثوراتٍ تليدة..

وكمْ توسّلت إليه أنْ يتركَه وشأنَه ككلّ الأطفال؛ حتّى يعيش بصورةٍ طبيعيّة.. يلْهو، ويلْعب تارةً، ويقودُ الفرس، ويتدرّب على المبارزةِ بالسّيف

تارةً أخرى؛ حتّى يصبح إنسانًا مُتوازنًا مُعتدلًا في غضبِه وسعادته.. لكنْ لا حياةَ لمِنْ كانتْ تُنادي!!

لطالما جادلَ «خوان الثاني» زوجتَه «إيزابيل» مُنذ أوّل ليلة جمعتْ بينهما، وحتى صباح هذا اليوم حيثُ اسْتدعى ڇبروتيا إلى القصر..

طالما عنَّفها كُلّما وجدَ مِن جانبها اللّين والرّفق إزاءَ أمورٍ شتى تتعلّق بميولها، وحالاتها الدّينية، فما كانت «إيزابيل» في نظَرِه سوى إنسانة ضعيفة.. لا تستحِقّ الحياةَ لروحها الحالمة، وكأنّ مابينهما هو ذلك الصراعُ القائم منذُ الأزل بينَ النّظريات الجامدة، تلكَ التي لا تَعترفُ إلّا بالمادة، وتلك التي تجدُ أنّ الروحَ والمبادئ هي الحياة في صورتها الرّاقية.

مرَّتِ العرّافةُ مُسرعةً على غيْر عادتها مُجتازة الرّدْهة الممتدّة بين جناحِ الملكة وبلاطِ العرْش، تتّسع خُطواتها، وتسيرُ بنشاطٍ مُنقطع النّظير، كما لو كانتْ شابّة بالعِشرين، أو الثلاثين مِن عمرها على الأكْثر !!

أليسَتْ «ڇبروتيا» ذاتها هي التي أعيَتْ حارس القصر بالصباح، وهي تمشي الهوينا كما يمشي الوَجيُ في الوَحلِ «أي كما يسيرُ الخائضُ بقدميه بوحْلٍ غليظ القَوام»؟!

لقد دبَّتِ العافيةُ بجسدها النّحيل لِغضبها البالغ؛ ذلك الغضبُ هو الذي دفعَ لهيبَ دمِها الفائر لتحفيز ساقيها على المُضِي قُدُمًا مُبْتعدةً عن جناح الملكة، وبلاطِ العرش..

ما عادتْ عرَّافة إيبريا تريدُ أن ترى وجهَ هذا الملِك الجاحد، وتتمنّى لو لَمْ يلمحْها حتى ترجعَ أدراجَها مِن حيثُ أتتْ دونَ حدوث أدْنى مواجهةٍ بينهما!!

ــ هيـــــــه.. إلى أين چبروتيا؟!

اسْتوقفها سؤالُ «خوان» المفاجئ، بينما كان يُلوّح لها بيده المُمسكة بكأسٍ مِن الخمرِ قد سُبكتْ مِنَ الذّهب الخالص!!

لم ترُدّ.

– ألَمْ تسمَعي ندائي أيّتُها العجوز؟! ألا تعْلمينَ أنّي أنتظركِ على أحرّ مِن الجمْرِ؟! ماذا وجدتِ أيّتها العجوز؟! هيّا قولي...

قالتْ، وهي تشيحُ بوجْهها عنْه في غضَب:

– وماذا تريدُ أن تعرفَ أيّها الملك؟!

– أتَتَصنّعينَ الغباء! وتتهرّبين مِن الإجابة؟!

– «خوان».. ما هذِه اللّهجة التي تُخاطبني بها؟!

قالتْها، وقدْ بلغَ الغضبُ منها مبلغَه.

تلعْثَم قائلًا:

– لا أقصدُ إهانتَكِ بكلّ تأكيد، ولكنْ...!

– ولكنْ ماذا.. خوان؟! أنتَ تعرفُ عني أنّي لا أُبَشّرُ إلّا بالخير، فإذا وجدتُ سواه؛ عزفتُ عن الإفْصاح، والآن.. أرى أنّ صمْتي أكرمُ لكَ أيّها الملك.

– هاتِ ماعندَكِ.. رجاءً يا چبروتيا.

– وهلْ لي ألّا أتكلّم الآن؟!

– لا.. لا؛ فأنا لا أحتملُ الانْتظار!!

قالها الملكُ في لهفة.

فقالتِ العرَّافة مُحذِّرة:

– تذكَّر فقط أنّي ما أردتُ البوحَ الآن، ولكنْ إذن.. لك ما تُريد.

لمْ يقوَ ملكُ قشتالة على الصّبر أكثرَ؛ فقاطعَها:

– ماذا بالملكة؟ هل..؟!

– نعم.. بأحشائها نُطفةٌ.. ولكنْ..!!

– أرجوكِ تكلَّمي أيّتها العرّافة.. وماذا بعْد؟!

قالتْ في تحدّ:

– «خوان».. لقد أردتَ العرْش، وها أنتَ قدِ انْتزعتَه مِن وريثِه الشرعي، وأردتَ أنْ يذيعَ صيتُكَ في كلّ حدبٍ وصوْبٍ.. وقدْ كان، فماذا تريدُ بعْد؟!

- أنا أريـــدُ...

- تريدُ وليَّ العهد الذي يحملُ رايةَ اليَسوعيّين مِن بعدكَ، ويحْذو حذْوكَ، ويقْتفي أثرَك.. أليسَ كذلك؟!

- وماذا في ذلكَ أيّتها العجوز؟! إنَّ تلك هي غايةُ كلّ الملوك بمَشارق الأرض ومَغاربها!!

- ليتَ تلك الأمنية بالتّحديد لا تتحقّق لأمْثالك أيّها الملك.

قالتها العرّافةُ بصوتٍ مُنكسر.

أطاح «خوان» بالقدحِ بعيدًا، ثمّ صرخَ كالمجنونِ في غضبٍ جارف، وبصوتٍ كادتْ أن تتصدّع له جدرانُ القصر:

- ولِمَ؟!!

قالتْ في ثقة، وقوّة:

- إنَّ مَن عادَيْتهم، وطاردْتَهم، وأهْلكتَ منهم الكثيرَ دونَ جريرةٍ تُذكر؛ لَـهُم أهلُ جوارٍ، وقدْ عشتُ بنفسي بينهم قبلَ أنْ تولدَ أنتَ، ولمْ أجدْ منْهم إلّا المودّة، والتعاونَ على الخير، شعارُهم «الدّينُ لله».. هكذا كنتُ أسْمعُهم يردّدونَ، ويطبّقونَ هذا القولَ بالأفعال حقًّا..

- أتَقصدينَ الكافرين؟!

– لا.. بلْ أقصدُ المسلمين.

– تبًّا لكِ أيّتها العرّافة!! هلْ تَدينينَ بِـدينِهم؟!

– لا، ولكنها شهادةُ حقّ أقولُها اليوم أمامَ الرَّبّ ليس إلّا..

أجابتِ العرَّافةُ بثبات.

فقال «خوان» مُستهزئًا:

– دعْكِ مِن هذا الهُراء أيّتها الخبيثة، وقولي في الحال ما تعْرفين، وإلّا....!

قالتْ غيرَ آبهةٍ به وبغضبِه:

– وإلّا ماذا! أسَتقتلني؟! افْعلها لِو اسْتطعت يا مَلكَ قشتالة.

قال في وهنٍ، وبصوتٍ مُتهدّجٍ:

– تعْلمينَ أنّي لا أستطيعُ إلْحاق أدنى أذًى بكِ، فقدْ أوْصتني أمّي بكِ خيرًا قبل أنْ تموت.

قاطعَتْه «چبروتيا» قائلة:

– لا.. بل قُل.. قبْلَ أنْ تقضي عليها بأفْعالكَ!

رمَقَها مُتوجّسًا خِيفة؛ فهي وحْدَها بينَ الأحياء مَن تَستطيع التوغّل بأعماقِ عقلِه، وقراءةَ ما يفكّر فيه دونَ غيرها.

تُدرِكُ نقاطَ ضعفِه..

وتَجولُ بخاطره..

وتَعرفُ إلى أيِّ حدٍّ قدْ يصل غدْرُه بأقربِ البشر إليه!!

هوَ يخْشاها كما يخْشَى الظلامُ النورَ، ويسْتَشعر في نفسِه الضّآلة أمامها، كما تخبو النارُ أمامَ هيْبة الماء.

تيقّنتْ أكثرَ مِن مَهابته لها؛ فقالتْ في ثباتٍ:

- إذن.. اهدَأ، وأنْصِتْ إلى كلماتي تلك، فربّما لنْ نلتقِي بعدَ الآن!!

بدا الملكُ الذي يهابُه الجميعُ مَبْهوتًا، كَمنْ أصيبَ بداءٍ لا دواء له.. كَمنْ سرَى بجسدِه سُمٌّ لا يهزمُه ترياقٌ.

وتَساءل في نفسِه.. «لماذا تقولُ تلك العجوز بأنّنا قدْ لا نلْتقي بعدَ الآن؟!».

ولكنّ هذا لا يعْنيه.. كلّ مايعْنيه الآنَ أنْ تخبرَه بقدوم وليّ العهد الذي سيحملُ اسمَه، ويحملُ رايتَه ضدّ أعدائه!!

أحسّتِ العرّافةُ بما يجتاحُه منَ القلق، والرّعب؛ فأكْملتْ:

- تأتيكَ مَنْ تُحقّقُ حُلمَك التّليد.

قاطعَها مَشدوهًا:

– إذن هي أُنثى؟!

– عطايا الرَّبّ لا تُردّ.

قدْ قُلتُها قبلَ قليلٍ للمَلكة، وها أنا ذا أكرّرُها لكَ يا «خوان».

صمتَ بُرهَةً، اسْوَدَّ خلاهَا وجهُه غمًّا لما بُشِّر به، ولكنْ سرْعانَ ما سألها:

– ولكنْ كيف لها أنْ تحقّق حُلمي، و قدْ خابَ أملي في ولدي «إنريكي»، ذلك الخانعُ عديمُ الطّموح؟!

– سيبْلغُ اسمُها الآفاق.

انفرجتْ أساريرُ الملك، وهمَّ أنْ يبتسِمَ، فتقطعُ العجوزُ فرحتَه القصيرةَ بقولها:

– ولكنْ سيلعَنُها التاريخ، وتهْجوها أجيالٌ وراءَ أجيال.

تصنَّعَ «خوان» اللّامُبالاة بما قالت، وتلعْثَم في مكرٍ:

– لايَهُمّ، المهمّ أنها ستكونُ قويّة.. ذات شَكيمةٍ مثل أبيها.

سألْته العرّافةُ باسْتنكارٍ:

– أوَ هذا هو كلّ مايهمّك؟! وهلْ تسمّي الظلم، والبطش دونَ وجْه حقّ؛ قوّةً، وشَكيمة؟!

ثمّ واصلتْ عِتابها اللّاذعَ له قائلة:

– لقدْ ربِح «ويليام» وخسِرتَ أنتَ يا «خوان».

– ماذا تقولين!؟ كيفَ ربح هذا البائسُ الفقير، في حين أكونُ أنا قدْ خسرتُ وأنا المَلكُ المُتوّج على عرشِ مَمْلكة قشتالة الحَصينة؟!

لمْ تُجِبْه؛ فقدْ أدركتْ أنّه لا جدْوى منَ الحديث إلى واهم مِثْله، قد ماتَ قلبُه، وضميرُه منذ أمدٍ. لذلكَ انْحنتْ قليلًا لتحيّيه، ثمّ مضتْ ذاهبة.

لمْ يكُن في وسْعِه أنْ يستوقفَها؛ فعندما تصمُتُ وتكفّ عن الحديث، فلا سبيلَ لأيّ شخصٍ أيًّا مَنْ كان إلى إجْبارها على المزيدِ مِن الكلام.. فهَكذا خَبرَها مُنذُ نعومةِ أظافره.

مضتِ العرّافة، والغضبُ يحتلّ فرائصها، فيما أشارَ الملك إلى كبير حرّاس بلاطِه إشارةً تعني..

«أنِ اجعلْ أحدَ حرّاس بوّابة القصر يُرافقها»..

فطِنَ الرجلُ لِمُراد المِلك، ونادى في الحرّاس بهذا الأمر .

لقدْ أنجبَ الملكُ الأرْعن «خوان الثاني» خمسةً من الأولاد؛ ثلاثَ إناث، وذكَريْن.

ورغمَ أنه رُزق بالذّكور؛ إلّا أنَّه مازال ينتظرُ قدومَ وليّ العهد الذي يحقّق له مآربه؛ فقدْ كان ولدُه «إنريكي الرّابع» ملكُ قشتالة، الذي أنجبَه مِن «ماريا» مِن أرغوان؛ شابًّا خانعًا، لا طموحَ له بالسيطرةِ على مَمالك إيبريا، و

الاستيلاءِ على ثروات بلادِ القوط.. حتَّى لقَّبَهُ والدُه «خوان»، وقادةُ البلاط؛ بالعاجز!

أمّا الذَّكر الثاني، «ألفونسو»، فهوَ مازال صبيًّا لم يبلغِ الرّابعة عشر آنئذٍ، وقد لُقِّب ذلك الصبيّ الصغير بالبريء؛ حيث لم يدركْ بعدُ شيئًا عن الحُكم، و لا عن طموحات أبيه، والسبيل لتحقيقِها.

ولا يظنّ الملكُ الشّرِه «خوان الثاني» أنّ بألفونسو أملًا يُرجى، كأخيه الأكبر «إنريكي»!

لذلك؛ مازال «خوان الثاني» ملكُ قشتالة وقشتالة يأمُلُ في وليدٍ يأتي ليحملَ رايةَ الحرب الدّامية، التي تجتاحُ الأخضرَ واليابس، وتُمَكّنه مِن إحْكام قبضتِه على جميع ممالك إيبريا دونَ استثناء!

***

حين اقتربتْ «ڤبروتيا» من بوّابة القصر، وأوْشكت على الخروج؛ إذْ بكبير حُرّاس البوّابة يُصدرُ الأمرَ للحارس التّعيس، «باترسون» بأنْ يُرافقها بطريق العودة إلى صوْمَعتها.

أوشكَ ذو الحظّ العَثر «باترسون» على البكاء، بل.. وتمنّى الموت، وقال في نفسه بينما كان يقرضُ شفتَه السّفلى...

- أيّ حظّ لعينٍ هذا الذي ساقَكَ إلى هذا القدر اليومَ يا «باترسون»؟!

ثمّ راحَ يجلد نفسَه بسياط العِتاب، يقول هامسًا..

- لعلّ ما يحدثُ لي الآن؛ لأنّي قد عقَقتُ أمّي حينَ نادتني بجوْف الليلةِ الماضية لأسقيها بعضَ الماء، فلمْ أعْطها الماءَ لترتوي، وتصنّعتُ النّوم، وكأنّ شيئًا لم يكُن، وكذلك لمْ أُعدّ لها طعامَ الفطور ككلّ يوْم، وهي المُصابة بالفالج «الشّلل» منذُ أعوام.. سامِحيني يا أمّي، لعلّك الآن تَبكين جوعًا، وظمأً حدّ الهلاك!! إنّ مثلي لا يستحقّ أن تكونَ له أُمٌّ طيّبة مِسكينة مثلَ أمّي!

توجّهتِ العرّافة صوبَ أهْل نبوءتِها الأولى يتبَعُها الحارس، بينما أوشكتْ نبوءتُها الأولى على التّمام!

الفصلُ الثانى
أقمارٌ على أطرافِ الغابة

تتقدّمه العرّافةُ ببضع خُطواتٍ، بينما يظنّ الحارسُ أنها ستسلُك الطريقَ الآمنة نفسَها، تلك الطريقُ التي أتتْ منه، ولكنْ ها هي تنحرفُ صوْبَ طريق آخر . هو مُرْتعب، ولا يقْوى على مجرّد سؤالها عنْ سببِ اختيار تلك الطريق المهجورة، إنّها تتوغّل في الغابة، كيف تفعلُ هذا؟!

إنّ الغابة مَعقِل الوحوش الضّارية، والأفاعي الرّقطاء، والمسْتنقعات التي ليس لها قَرارٍ!

إنّها تمضي بطريقٍ دائمةِ الظّلمة، حتى أثناءَ ساعات النهار ، تساءلَ هامسًا في حِنق:

– عَلامَ تنْوين أيّتها العجوزُ الخَرِفة؟!

لا يكادُ الحارسُ البائس يرى ظلّ العرافة، فيما تعلو بين الفَيْنة والفَيْنة أصواتُ الحيوانات المفترسة، حتى أنها تبْدو لهما أقربَ ما تكون!

ما بين زئير الأُسود، وعواء الثعالب، وفحيح الحيّات، وقهقة القرود؛ قد أخذَ «باترسون» يعضُّ على يديه، ويَرْتعد، حتى لم يجدْ بُدًّا مِن سؤال العرّافة بصوتٍ مُتقطّع مِن أثَر الرّهبة:

- سيّدتي العرّافة العظيمة.. لماذاااااا..؟!

توقّفتِ العجوزُ عنِ السّير، والتَفتتْ نحوَه قائلة:

- تُريدُ أنْ تعرف لماذا سِرْتُ بالغابة، أليسَ كذلك؟!

هزَّ رأسه مُجيبًا، بينما كانتْ تملأ دموعُ الخوف عينيه.

أجابَتْه في ثباتٍ مَلحوظ:

- هذا شأني، ولا يحقّ لك السّؤال.

أصابَهُ الرّعب أكثر، ولاذَ بالصّمت مُضطرًّا، بينما كانتِ العرّافة تشعرُ بأنه يوشكُ على الموت مِن شدّة الخوف؛ فقالتْ له:

- عُدْ أدراجَكَ يا فتى.

كانت مَقولتُها تلك بمثابةِ طوْق النجاةِ الذي أتاه قبلَ أن يخرَّ صريعًا، ولكنّه ظنّ أنها تختبرُه، أو أنّ الملكَ سيعْلمُ بتخاذُلِه عنْ مُرافقة العجوز فيقضي عليه، بالإضافة إلى أنّهما قدْ أصبحا أمامَ بُقعة مُضيئةٍ بالغابة تتخلّلها أشعةُ الشمس؛ حيث كثافةُ الأشجار أمامَهما أضحتْ أقلّ نوعًا ما ممّا قبلها؛ فقال:

- لا.. اسْمحي لي أنْ أتّبعُكِ إلى حيثُ تريدين.

لمْ ينتهِ ممّا قال حتى حدثَ ما لا يُحْمَدُ عُقباه؛ إذْ رأى تمساحًا ضخمًا فاغرًا فاه، وقد بدتْ أسنانُه بارزة خلفَ العجوز مباشرةً، متأهّبًا لالتهامها!!

لَمْ يتفوّه الحارسُ بكلمة، بينما أسْفرتْ ملامحُ وجهِه عنْ صرخةٍ مَكتومة، استدارتِ العجوزُ لتجدَ التمساحَ أمامَها وجهًا لوجْه!!

بينما لَمْ يتحرّك لها ساكنٌ.. لم تصرخْ، أو حتّى تستغيث، بلْ كلّ ما فعلته؛ هو أنْ نظرتْ صوْبَ التمساحِ الضّخم نظرةً حادّة، وتمتمَتْ بكلماتٍ مُبْهمة، فما كانَ منه إلّا أنْ غاصَ بمُستنقعٍ قريب، واختفى بينَ طبقاتِ الوحْل العَطِنة!

هنا، لَمْ يتمالكْ «باترسون» المسكينُ نفسَه، و لاذَ بالفرار دونَ أن تأذنَ له تاركًا إيّاها خلفَه، ولكنّه سرعان ما تعثّرت قدمُه بجذعِ شجرةٍ ساقطٍ على الأرض بين ركام كَثيف مِن أوراق الأشجار الجافّة. عندما حاولَ الحارسُ النهوضَ، نهرتْهُ العجوزُ قائلة:

- عُدْ إلى أمّكَ أيّها الناكر لفضْلِها عليك، و لا تعدْ للقصْرِ الآن.

فقال في خوفٍ شديد:

- كيفَ لا أعودُ إلى القصر، ومازالت مُناوبةُ حراستي لم تنْتهِ بعد؟!

- قُلتُ لك عُدْ إلى أمّكَ يا غبي، ولْتُنقذْ حياتها قبلَ أنْ تندمَ بقيّة عمرك، واذا سألكَ كبيرُ الحرّاس عن سببِ تأخّرك في العودة إلى القصر؛ فقُلْ له: إنّ العرافةَ هي التي جعَلتني أتأخّر لبطءِ مِشْيتها، وقتَها لن يعاقبَك أحد. هيّا اذهب، واعْتذرْ مِن أمّك أيّها الأرْعن.

همسَ «باترسون» في نفسِه برعبٍ بالغ:

- كنتُ أظنّها تعلم اسْمي فقط، ولكنّها تعلمُ بأمْر إهمالي لأمّي أيضًا!! لا بدّ أنْ أتركَ تلك العرّافة قبل أنْ تخبرني بكلّ حماقاتي منذُ جئتُ إلى تلك الدنيا حتى تلك الساعة!!

ظلّ الحارس المرتعبُ يركض، ويتعثّر، ويسقط، وينهض، حتّى رأى أشعةَ الشمس مرةً أخرى، وهكذا حتى وصل إلى بيتِه، ودخل ليجدَ أمّه تئنّ ظمأً، فبكى حتى بلّلتْ دموعُه وجهَها، وهو يعتذرُ منها، ويرْجوها أن تصفحَ عنه، فإذا بها تبتسمُ فيقرّ عينًا، ويهدأ قلبًا، فيسقيها، ثمّ ينهضُ لإعدادِ حِساء الخضرواتِ منْ أجلها..

شكرَ الربّ على أن هيّأ له مصاحبةَ العرّافة الغامضة حتى يُرشدَه إلى الطريق السوي، وليس هذا وحسب، بل أخذَ يدْعو للعرّافةِ بالعمْر المديد؛ لأنّها أنقذت حياةَ أمّه بشكلٍ غير مباشر ، وعلّمته درسًا في العطاء، لنْ ينساه ما تبقّى من عمره، فلقدْ أدركَ حين عاد، ووجد أمّه لاتزال على قيدِ الحياة؛ أنّ العرّافة كانت تستطيعُ أنْ تذهب بمفردها، ودونَ الحاجة إليه، ولكنّها لم تُبْد رفضَها ببداية الأمْر لمجيئه معها حتى تلقّنَهُ هذا الدرسَ الذي لا يُنسى، وتُذيقه ذلك الخوفَ الرهيب بالغابة!!

- يا لَكِ من امرأةٍ حكيمةٍ.. «چبروتيا»!

كانت تلك هي آخر كلماته بعدَ انتهاء هذا اليوم العصيب، وعودته من حصّة الحراسة تارةً أخرى، وبعدَ أن اطْمئنّ على أمّه، وتمدّد بفراشِه مُنهكَ الجسد.. ولكنّه كان مرتاحَ الضمير.

ظلّت العرافةُ تطوي الطريقَ المتعرّجة إلى حيث لا يعلمُ أحد. مضى وقتٌ طويل، وهي لا تكلّ، ولا تَمَلّ منَ السّير المتواصل، ولا تخشى عواقبَ تلك الغابة المخيفة، إلى أنْ توقّفت أمام كوخٍ يلفّه الظلام، والسّكونُ معًا..

تنصتُ العجوزُ إلى صوتٍ خافت!!

إنّه صوتُ امرأةٍ تئنُّ، وتتألّم. يتزامنُ مع صوتِها صوتُ رجلٍ يشدُّ مِن أزْرِها، ويحثّها على التحمُّل حتى يأتي لها بإغاثة..

تنادي العرّافةُ بصوتٍ مُرتفع:

- «ويليام»، افتح البابَ يا بُني.

يفتح البابَ شابٌّ وسيمٌ فارعُ القامة، يصل شَعرُه المسترسلُ حتى كتفيه، ذو بشرةٍ بيْضاء مُشرئبةٌ بِحُمرةٍ جميلة، له لِحيةٌ بُنيّة اللّونِ كشَعْر رأسه، عيناه خضروان.

تهلّلت أساريرُ الشابّ الوسيم، وقال مُرحِّبًا:

- أهلًا ومَرحبًا أمّي الغالية «چبروتيا».

- كيفَ حالكَ «ويِلي»؟ وأين حبيبتي «هيلدا»؟

- ها هي بالدّاخل، وقد حانَ مَخاضُها، لقد أتيتِ بوقْتكِ أمّنا العرّافة.

كانتْ «هيلدا» زوجة «ويليام»، تضعُ مولودَها الثالث بعد أخويْه « ساmويل»، و «روبرت»؛ شابّة جميلة، مهذّبة، من أصلٍ عريق، فمَن يُمكنه أن يُصدّق ما هي عليه الآن؟!

وهلْ لأحدٍ أنْ يتخيّل أنّ «هيلدا»، ربيبةَ القصور، تلك الفتاةُ المُنعّمة قبل زواجها مِن «ويليام»؛ تعيشُ الآن داخلَ كوخٍ صغير على أطْراف غابةٍ، تعجّ بشتّى أنواع الحيوانات المفترسة، والزّواحف القاتلة؟!

ومَنْ هي هيلدا؟ إنّها ابنةُ مَلك البرتغال، والتي رحلت أمُّها قبل أن تبلغَ العاشرة مِن عمرها، فَدأبَ والدُها على أنْ يدلّلها، ويُغدقَ عليها من كلّ شيء حتى لا تشعرَ بالحرمان من حنان أمّها للحظة.

وقدْ تقدّم عشراتُ الأمراء من عدّة ممالك أروبية طالبينَ الزّواجَ منها لحسَبها، وجمالها الصّارخ، ومِن بين هؤلاء الأمراء كانَ الأمير «ويليام»، وريثُ عرش «قشتالة»، والأخُ الأكبر لـ«خوان الثاني»، والذي يكبُرُ «خوان» بأربعةِ أعوامٍ، وقد كانَ هو الأحقّ بعرش أبيه الملِك «هنري الثالث»، ولكنّ الأخ الأصغر «خوان» كان جشعًا لا يستيقظُ له ضميرٌ، ولا تَرْدعه فضيلة، لا يرى سوى نفسه، ولا يَعي سوى نصائح أبيه التي دمّرتْ مروءته، وأودَعَتها اللّحدَ، والمثوى الأخيرَ منذ كان صبيًّا!!

لذلك اسْتحوذَ الأخ الأصغرُ على عرش المْلكة، وتاجِ الأبِ الرّاحل، ولم يكتفِ بذلك؛ بل وطردَ «ويليام»، وخيَّرهُ ما بين السّجن مدى الحياة، أو الرّحيلِ عن القصر بلا مال، أوْ عتاد.

رحلَ «ويليام»، وزوجته «هيلدا» عن القصرِ ناجين بحياتهم، لا يمْلكون أيَّ شيء يُعينهم على الحياة بمَمْلكة قشتالة. وبعدَ عدّة توسّلات من الزّوجة

المسالمة، رضخَ «ويليام» لما أشارتْ عليه به مِن النّزوح إلى مَمْلكة أبيها، فما كان مِن أبيها «طانيوس» إلّا أن قابلَ «ويليام» بكلّ نُفور، وطلب منه بكلّ أنفةٍ تَطْليق هيلدا؛ لأنه لم يعدْ، في نظره، ذلك الصّهر المناسب الذي يليقُ بشرف أنْ يكون زوجَ ابنتِه، فما كان مِن الزّوجة الحكيمة «هيلدا» إلّا التمسّك بزوْجها المُغتَصب عرشُه، والفرار معهُ تارةً أخرى إلى مَمْلكة قشتالة، ولكنْ بعيدًا عن قصر «خوان».

غضبَ «طانيوس» على ابنتِه «هيلدا»، وتبرّأ منها نهائيًّا، إذا لم تتخلّ عن «ويليام»، ممّا زاد إصرارَها على البقاء جوارَ زوْجها، آملةً أنْ يعود الحقّ إلى نِصابه ذاتَ يوم.

كيف تستطيع أنْ تفعلَ ذلك سوى زوجة مُحبّة مثل هيلدا؟ وكيفَ لها أن تتركَه، وهناكَ قطعةٌ منه تتحرّك بأحشائها، فقد كانتْ تحملُ «سامويل»، طفلَها الأوّل الذي وضعتْه بالكوخ ذاته؛ حيث عاشتْ مع زوجها أسعدَ ما تكون رغمَ تلك الفاقة المدْقِعة.

حقًّا، إنّ المرأة إذا أحبّتْ رجُلًا بصدق؛ باعتِ الغالي والنّفيس، وزهدتْ كلّ شيء إلّا في مَنْ تُحبّ، ويهواه قلبُها.

وها هي «هيلدا» تضرب أروع الأمثال في الصبر، والتضحية، ها هي تُصبح من أميرة يُشار لها بالبَنان، إلى زوجة متفانية تقتاتُ ما خَشِن، وما قلَّ من الطعام، في حين كانت مِن قبْل تُشير بطرف أصبعها، فتأتيها الخادمات

بالأثواب الحريرية المُرصّعة بالأحجار الكريمة، والعطور التي كانت تُجلَبُ من أجلها وحَسْب من أقاصي البلاد، و كذلك الفاكهة الاستوائية التي لم يكن أحدٌ مِن الرّعية يعرف مجرد اسمها، ولا يعرف رائحتها بعد.

إنّ أميرة أرجوان اليوم، ترتدي ما بَلِيَ، ورَثَّ من الثياب، وإذا جادتْ الغابةُ عليه، وعلى أبنائها؛ تمكّنَ زوجُها من صيد أرنبٍ، أو ماعز برّي..

وبعد ما كان جناحها يُضاء بأفخر أنواع الشموع، التي ينبعث عطرُها الخلّاب كلّما أشعلتها الجواري!!

اليومَ أصبحت تُتقن صناعةَ الشموع بيديها، باستخدام شحوم الحيوانات التي تقوم بطهْيها فوق بعض الحطب، والأغصان الجافة. لقد أضحى وجْهُ الحياة كلّه مختلفًا، ولكن لا بدّ أن تمضي الحياة على كلّ حال.

اليومَ وُلِد لـــ «ويليام» الولدُ الثالث، بينما ظلَّ «خوان» يتحرق شوقًا لإنجاب الذّكر الذي يحمل اسمَه، ويرثُ عرشه، ومازال «خوان»، يفكّر في نبوءة العرافة، التي قذَفَتها بوجْهه بكلّ ثقة، حيث أخبرته أنّ هناك شيطانة قادمة بعد عدّة أشهُر؛ سوف يلعنُها الأخيارُ مِن أهلُ الأرض إلى أبدِ الدهر!

فماذا يفعل إذن إزاءَ تلك النبوءة الخطيرة؟!

تضاربتِ الأفكارُ بخَلده، هل يُجهضُ زوجته «إيزابيل أفيس»؟! أمْ يرضخ للقدر، وسيشفع لتلك الأنثى عنده أنّها ستحمل رايةَ الحرب، والإغارة على بلاد الأندلس حتى تتسلّم مقاليدها ذاتَ يوم؟!

إذًا، فلا بدّ من اسْتدعاء «موردخاي»، كبير القساوسة بالمملكة لمشاورته في الأمر .

***

كان الملك الثَّمِل «خوان الثاني» يجلس فوقَ عرشه- بل فوق عرش أخيه «ويليام» الوريث الشرعي لعرش والده الملك «هنري الثالث»- منتظرًا قدومَ الكاردينال، حتى اخترق أُذنيه صوتُ كبير حرّاس البلاط مُعلنًا عن وصوله، فسمح للحارس بإشارةٍ من يده التي تحمل قدحَ الخمر الذهبي، ومن ثمّ دلف الكاردينال قائلًا:

- سلام الرّب.. سيادة الملك «خوان الثاني».

فإذا بالملك يطيحُ بالقدح بعيدًا، فينسكبُ محتواه فوق أرضية الجناح اللامعة، فيما يرمقه «موردخاي»بنظرةٍ فاحصة في ثباتٍ تامّ.

فيصرخ «خوان»، في نزقٍ:

- أترَاك أهلًا لمنصب الكاردينال.. «موردخاااي»؟!

يصمتُ «موردخاي» بُرهةً، ثمّ يردّ في ثباتٍ أكثرَ من ذي قبْل:

- كيف يا ملكَ قشتالة!! متى احْتاج الملك إليّ، ولمْ يجدني؟!

- لِمَ لا تساعدني إذن؟!

أنتَ تعلم أنّي أتطلّع إلى السيطرة على شبه جزيرة «إيبيريا» كاااااااافّةً، من أقصاها إلى أدناها، إذن لِمَ لا تؤيّدني فيما أصبو إليه؟! أسَتَفعل كالعرّافة الماكرة «چبروتيا»؟!

– وماذا فعلتْ معكَ العرّافة.. سيادة الملك؟!

.. سأله «موردخاي » في هدوءٍ.

– إنها تنعتُني بأنني واهمٌ، كما أنها تركتِ القصرَ وراء الحقير «ويليام»، وزوجته الفاتنة، لم تتحمّل البقاءَ هنا بعد إطاحتي بهما خارج القصر ، وتبشّرني بالأنثى التي سترث عرشي، ألا تستحقّ تلك العجوز الموتَ بعد كلّ هذا؟!

هنا، ارتعدت فرائصُ الكاردينال، ومادتْ به الأرض، وهو لا يكادُ أن يُصدّق ماتسمعه أذناه، وشردَ ذهنُه لبرهة، وقال في نفسه، في حيرةٍ تعْصفُ بعقله:

– ماااااذا؟!

أوَ يقتلُ «خوان» «چبروتيا»؟!

أيقتلُ تلك الرؤوم؟!

أوَ بعْدَ كلّ ما قدّمته له ولأسرته كلّها من معاونةٍ، ومؤازرة لعقودٍ عدّةٍ!!!

لقد عاشت تلك المسكينةُ مُخلصةً للملِكة الأمّ، وللقصر بكلّ مَنْ فيه..

عاشتْ بلا زوج، ولا ولدٍ، عزفتْ نفسُها عن متاع الكون..

كانت، ومازالت تعطي ولا تأخذ، وقد أفنتْ أزهى سنوات عمرها لأجل الجميع، وفي النهاية تكُن تلك مكافأتَها؟!

القتـل ؟!!!!!!

لم يفِقْ «موردخاي» مِن شروده إلّا على صوت الملك المارق صارخًا:

– لماذ لا تُجبني؟!

– أوَ تظنّ.. سيادة الملك؛ أنّي سأوافقك الرأي إزاء أمرٍ أرفضه، ولو كانت حياتي ثمنًا لرفضي هذا؟!

قال الملك ساخرًا، وضحكةٌ شريرة يتردّد صداها بالمكان:

– أوَ لهذا الحدّ مازلت تعشقها أيّها العجوز .. «موردخاي»؟!

تعجّب «موردخاي»، حتى أنّه نظر للملك في ذهول، وقال بصوتٍ متقطّعٍ غير آبهٍ بالعقاب في حال غضِب الملك منه:

– أ أ أ عْــــ... شَـقققققق...هَـــاااا؟!

لا بدّ أنّ الخمر قد لعبت برأسِك أيها الملك؟!

قهقهَ «خوان» متهكّمًا، ومكرُ الثعالب بعينيه العسليّتين:

– أوَ تظُنّ أيها الكاردينال العجوز، أنّي لا أعرف بِولَهِكَ بالساحرة الماكرة «چبروتيا» منذ زمنٍ بعيد؟!

ومطَّ شفتيه، وغمغمَ بلسانٍ أثقله مفعولُ النبيذ:

– كَم حكى لي والدي المُعظَّم الملك «هنري الثالث» عنكَ، وعنها، وعن حبّكما الطائش؟! فكيف تدَّعون الشرف والمبادئ، وأنتما منها براءٌ أيّها القِس الهَرِم؟!

هنا، فار تنّورُ غضب «موردخاي»، وقال:

– حسْبُك أيها الملك، يبدو أنّك لا تعرفُ شيئًا من الحقيقة، وما تعرفه غير صحيح بكلّ تأكيد!!

ثمّ استطردَ الكاردينال بنبرةٍ غاضبة:

إنَّ «چبروتيا» أطهرُ امرأةٍ رأيتها بحياتي، ولم أعلم عنها إلّا كلّ الخير، وإنّي أخشى الرّب، ولم أبارزْه بالخطايا مذُ كنت شابًّا، وكذلك «چبروتيا»، بيدَ أنّ كلَيْنا قد وهبَ حياته للخير، وحبّ الناس، والعمل على إسعادهم، والزّودِ عنهم، أمّا غير ذلك فما هو إلّا إفكٌ مبين!!!

– لعلّك لن تُطيل البقاءَ بِمنصبك أيها المُخادع..

قالها الملك، وقواه تنضبُ تدريجيًّا، وبعدها سقطَ كالمغشى عليه!!

لقد غيَّبت الخمرُ عقلَه، وأخذته إلى سُباااااتٍ عميقٍ؛ فما كان من «موردخاي» إلّا أن نادى حراس البلاط الملكي، وطلبَ منهم أنْ يحملوا الملك إلى حيث فِراشه، ثمّ خرج الكاردينال على أثرِ ذلك هائمًا على وجهه، والحزنُ يكاد يقضي عليه.

حملته خطواتُه إلى حيثُ لا يدري، ولكن مِمّ سيخاف الراهب النقي؟!

فهو كَـــ«چبروتيا»، ليس لديه من المطامع ما يدفعُه للتملّق لذلك الملك المغرور.

ظلّ شاردًا بالحديث المُخزي الذي تحرَّك به لسانُ ذلك الملك الأربعيني المتهوّر.. فلمْ يحزنه تهديدُ «خوان» له بعدم بقائه في منصبِه بالكنيسة، فمنْ زهدَ متاعَ الدنيا؛ صار كذلك زاهدًا في المناصب والدرجات..

لكنّ ما شغل عقلَه هو حديثُ «خوان» عنه، وعن الطاهرة «چبروتيا»، كما أحزنه أنّ الذي أخبرَ «خوان» بهذا الكلام هو أبوه الملكُ الراحل «هنري الثالث»، الذي طالما خدمَهُ «موردخاي» بكلّ إخلاصٍ، وَودّ...

ظلّ مَصدومًا ممّا رماه به الملكُ، والعرافةَ مِن بُهتان، وباطل.. حتى همسَ في نفسه قائلًا:

– قليـلٌ من الملوك شرفاءٌ، وصالحونْ، لعلّ عروش الحُكم تُفسدُ الحُكام أكثر ممّا تُصلح منهم!

ظلّ «موردخاي» يسير إلى غير وِجهةٍ محددة، حتى التفتَ يمنةً، ويسرةً؛ ليجد نفسَه وسط سوق «قشتالة» ، وأصوات الباعة، والزبائن تملأ مسامعه..

كيف قادته خطواته إلى هنا؟!

لا يدري!!

لعلّه القَدَر الذي أتى به إلى حيث هو الآن، فالسوقُ هو أكثر مكانٍ يستطيعُ أن يتلمس فيه معاناة الناس من عدمها، ما بين بائعٍ، ومُشترٍ .

كانت السوق تعجّ بالكثير من البضائع، ولكنْ يبدو عليها مسحة واضحة من الكساد!!

البضائع كثيرة، ولكنّ أكثر الناس يشاهدون البضائع، ويرحلون دونَ شرائها، حتّى لَمَح امرأةً تحمل طفلًا فوق كتفها، وتحمل آخرَ أصغر منه فوقَ صدرها، تنضحُ ملامحُها، وملابسها، ووجوهُ صغارها بالبؤس الشديد!!

وجدَها تقف أمامَ بائع لحم، وما أنْ سألت البائعَ الشابَّ عن ثمنه؛ إلّا وولّت تاركة إياه، ولكنّ البائع الشاب ظلَّ يركض خلفها محاولًا إعطاءها قطعةَ لحم كبيرة دون مُقابل، اقترب الكاردينال منه؛ ليشكره على معروفِه مع تلك المرأة، وإذْ بالراهب يقول في دهشة:

- أنتَ؟!

أعطى الشابُّ اللحمَ للمرأة، ملفوفًا في خِرقة نظيفة، وهّمَّ باحتضان الرّاهب، ولكن سرعان ما تراجع خشيةَ أن يصيب ملابسَ الراهب النظيفة بشيءٍ من الاتساخ..

ولكنّ الراهبَ جذبه إليه، وعانقَهُ، وهو يقول بسعادة:

– لا تتردّد في احتضانِ والدك الذي يحبّك.. «ويلي»!!

أحضانُ شوق جااااااارف، ودموعُ محبّة خالصة تترقق بعيني كلٍّ منهما.

– ماذا تفعل هُنا حبيبي الغالي.. «ويليام»؟!

– أبي الحبيب «موردخاي»، اشتقت إليك كثيرًا.

قالها «ويليام» بشوقٍ صادق.. ثمّ استطرد:

– أنا آتي إلى السوق كلّما كان عندي ما يستحقّ البيعَ كما ترى، أمس قد رُزقت بغزالٍ ثمين أثناءَ تجوالي بالغابة، وجئتُ لأبيع ما استطعتُ منه، وما بقي لديَّ اليوم من اللحم؛ فهو لكَ أيّها الرّاهب الطيب.

ضحكَ الراهب، وربتَ على ظهر «ويليام » قائلًا:

– أنتَ كما أنت؛ لمْ يغيركَ الفقر.. كنتَ، ومازلتَ كريمًا يا صغيري.

ثمّ استدرك «موردخاي»:

– أنتَ تعلمُ أني أعيش من فيض عطاء الرَّب، وإنَّ أمثال هذه المرأة البائسة التي أعطيتها اللّحمَ بلا مقابل، لَهُم أهلُ فاقة، وحاجةٍ ماسَّة، وأراكَ مثلي.. بُني، لا تحملْ للدنيا بالًا.

وإذْ بصوتِ طفلٍ صغير يقول:

– أبي، ألنْ نعُد بعدُ إلى الكوخ؟ فقد اشْتقتُ لأمي، وأخواي كثيرًا!

فيقول «ويليام» مُبتسمًا:

- هذا فارسي الأول «ساموِيل».. أبي «موردخاي»، و هو أوّل أبنائي، وذراعي الأيمن.

انحنى الكاردينال؛ ليحمل «ساموِيل»، وأخذَ يطوقه بذراعيه، ويُقَبِّلهُ في رحمة، ويقول مبتسمًا:

- أنا اسْمي الجدّ «موردخاي» يا «ساموِيل»، وسعيدٌ جدًّا أنْ رأيتك اليوم، ولكن قُل لي.. ما اسْمَا أخويْكَ.. «ساموِيل»؟!

قال «ساموِيل» في سعادة:

- « روبرت، وإيڤ».

هنا، دعا الكاردينال لهم، وهو ينظرُ إلى «ويليام»:

- باركَ لك الربّ بفُرسانك الثلاثة.. بُني، فهذا فضلُ الرَّب على الأنقياء أمثالك.. «ويلي».

- آآآ ميــن، وبارك الرّب بعُمرك، وبِعُمر الأم «چبروتيا».. أبي «موردخاي».

كان يلوحُ في مُقلتي الراهبِ الكثيييرُ، والكثيييرُ من الأسئلة، ولكنْ قبل أن يسأل «ويليام» أيًّا منها، إذْ علا صوتُ أحدهم مُوجّهًا كلامه اللاذعَ للرّاهب الطيّب:

– إنَّ الجحيم ينتظرك أيها الرّاهب، وكذلك كلّ رُهبان المملكة، الويـل لكم من الرّب!

أنزل الكاردينال «ساموييل» برفق، واستدار ليتَبيّن صاحبَ الصوت؛ فإذا به شابٌّ يبدو من هيئتِه أنّه أحدُ البؤساء، حالُه كحالِ «ويليام»، والكثيـرِ من أهل المملكة، وإذْ بـــ «ويليام» يسيرُ نحو هذا الشابّ بائع السّلال، والحصير المصنوعة يدويًّا من الخوصِ، والقش!!

لم يكن «ويليام» متهوّرًا، فلمْ يكنْ ينوي العِراك مع هذا الشابّ، ولكنْ أراد فقط أن يعرف سرَّ غضبه من الكاردينال «موردخاي»، وخاصّةً أن الكاردينال إنسانٌ ودود، وليس له عدواتٌ، أو خلافات مع أحدٍ من الناس، ولكنّ الراهب خشي أنْ يتطور الموقف، ويشُبُّ شجارٌ بين الشابّين، فاعترض طريق «ويليام» قائلًا:

– على رِسْلِك.. «ويلي»، رجاءً انْتظر .

تجمْهَرَ الناس حولهم محاولين اسْتبيان الأمر، بينما توقّف «ويليام» أمام الشاب دون أن يتفوّه ببنت شفةٍ..

فسأل «موردخاي » الشابَّ الغاضب في رحمة، وابتسامةٍ عذبةٍ:

– ما اسْمك.. بُني؟!

فإذْ بالشاب يثورُ في وجهه قائلًا:

– أجئت تسألني ما اسْمي، حتى لا أواجهكَ ببغيْك أمامَ الناس.. أيها العجوز؟!

فارتِ الدّماءُ بــوجهِ «ويليام»، و هدرَ بغضب:

– تأدّبْ في حديثك مع سيادة الكاردينال يا هذا، كيف تتجرّؤ أن تقول ما قلت؟!

حاول الراهبُ بالكادِ الوقوفَ بين الشابّين، ثمّ اسْتدار بوجهه نحو الشابّ الغاضب.. يقول:

– تكلَّم بُني، ما الأمر؟!

بدأ الشابّ يستشعرُ الخجل، وقال بصوتٍ خفيــضٍ نوعًا ما:

– ألستمُ أيّها الرُّهبان دُعاةً للحق.. هُداة للناس.. ناصحين للعُصاة، والمارقين؟!

– أجل.. بني، صدقت، تلك هي رسالتُنا فوق الأرض، ولكن ماذا بعد؟!

– كيف تَعِظون البسطاءَ المُعدمين أمثالنا، ولا تعِظون الملوكَ، والحُكّام؟!.. أتصمتون عن المطالبةِ بحقوق الفقراء لأجْلِ عطايا الملوك لكم؟! أتَبيعون أُخْراكم بدنياكم.. أيّها الواعظ؟!

تلاعبَ الغضبُ برأس «ويليام»، حتى كاد أنْ يصيح بالشابّ غاضبًا مرةً أخرى، لولا أنْ رمقه الراهبُ بنظرةٍ رادعة، أدركَ «ويليام» مغزاها فعادَ إلى صمته، وثباته..

قبلَ أن يجيب الراهبُ عن سؤالَ الشاب الثائر، إذ تذكَّر لقاءه قبل قليلٍ بـــ «خوان الثاني»، ملك «قشتالة»، وكيف أنه واجهَهُ، دونَ أن يخشَ عقابًا، أو لومةَ لائمٍ فيما يقوله له..

وقال في هدوءٍ، وحكمة:

- ولِمَ أصدرتَ حُكمَكَ المُجحِف هذا علينا يا ولدي، بأننا لا نفعل ذلك؟!

الرَّب وحدَه يشهدُ ما أفعل، ويفعل كثيرٌ من القساوسة، وليس للإنسان من رقيب على أفعاله، وأقوله سوى الرّبِ وحده.

ثمّ عَقَّبَ الراهبُ قائلًا:

- وكلّ الناس هنا يا ولدي يعلمونَ أني لا أملك شيئًا من حُطام الكون، فما عندي مالٌ، ولا ضِياعٌ.. فلِمَ إذن أخشَى أنْ أعظَ أيَّ إنسانٍ كان حاكمًا، أو محكومًا؟!

لم يجِد الشابُّ ما يقوله؛ فطأطأ رأسَه أسفًا، وقال:

- سامحني أيّها الرّاهب، أنا ما قلتُ ما قلتُه إلّا لسوء الأحوال؛ فالسوقُ كما ترى، ويرى الجميع؛ بضائعُ راكدة، وحالٌ كاسدة، لا يجد الناسُ المال للشراء سيدي الكاردينال، فكلّ يومٍ آتي إلى السوق، وأعود لأسرتي، خاوي

الوفاض، كلّ ذلك، وملك «قشتالة» ليسَ له أُذن تسمع، ولا قلبٌ يرقّ لأحوال الناس...

تعالتْ أصواتُ الكثير من الناس غاضبين، كلّهم يؤيد كلامَه؛ فالحالُ عامة، والكساد ينغصُ حياة الجميع بلا استثناءٍ!!

كادَ الراهبُ يقولُ لكلّ الحضور بالمكان، وهو ينظرُ في شفقة إلى «ويليام»:

- انظروا مليًّا أمامكم، سترونَ الأخ الأكبر للملِك «خوان»، ها هو أبأسُ منكم حالًا، وأحوجُ منكم، ورغمَ ذلك فالملكُ يُنكره، ويبخسُه حقَّه، فلا تبتأسوا أنتم إذن، فهذا ديدنُ الملك «خوان» الذي لم يُبقِ على أخيه الشّقيق، فكيف يرأفُ بكم أنتم، وسائر الرعية.. أيها الفقراء المحرومون؟!

تمنّىَ الراهبُ لو استطاع أن يضربَ للناس حينئذٍ أروعَ مثالٍ بين يديه للصبر والقناعة بذلك الرائع القانعِ «ويليام»، ولكنّه لا يأمن العواقب، فقد ينتقم البعضُ من شخص الملك»خوان» في صورة «ويليام» الذي لا حولَ له، ولا قوّة.

في حين قرأ «ويليام» ما بـعيني الرّاهب، فقابل نظرةَ الراهب الحانية بنظرته الأحنى والأرقّ؛ ليُطمئنه عليه، وكأنّه يقول له:

- إنني بخيرٍ أيها الكاردينال، فلا فقرٌ يكسرني، ولا عوزٌ يقتلُ داخلي روحَ الحبّ لكل مَن حولي.

وعدَ الراهبُ الجميع بمناقشة الأمر بالكنيسة، وبمجلس مسئولي المملكة، ووعدَ بالقدوم بصورةٍ يومية لمتابعة أحوال الناس.

ثمّ احتضنَ الراهب كلًّا من «ويليام»، والشابّ الغاضب، وساموِيل»، وقبل أن يذهب الراهبُ في طريقه، قال له الشاب في انكسارٍ:

– معذرةً أيّها الكاردينال الكريم، وادعُ لي، وللجميع بالرزق الوفير.

فقال العجوزُ في بشاشة:

– أنا لم أغضبُ منك من الأصلِ حتى أسامحكَ.. بُني.

قال الشابّ، والندمُ يقطر مِن صوته:

– ما أكرمَك سيدي الكاردينال.. لا تنسَ ولدَك البائس، «إيمون» مِن خالص دعواتك.

في ابتسامةٍ وديعةٍ صافية، قال «موردخاي»:

– لكَ ذلك.. صغيري «إيمون».

وما أنْ قال «موردخاي» ذلك، إلّا وسمع صوتًا غليظًا أجَشّ ينادي في السوق:

– أيّها الباااااااعة.. ليُخرج كلُّ منكم عشرَة دنانير مرابطية على الفور، وإلّا بعثرنا بضائعكم، وأفسدناها، واعتقلناكم بأمر ملِك «قشتالة»، الملك المُعظم «خـــوان الثـــــاني» .

هنا، استدار كلٌّ من الكاردينال، و»إيمون»، و «ويليام»، و كلُّ الباعة ليجدوا خلفهم طُغمةً من جنود الملك، يتقدّمون نحوهم في بأسٍ شديد، وبدأ النقاش يحتدمُ بين هؤلاء الجنود جُباة الضرائب الجائرة، وبين الباعة البؤساء..

فحالُ جميعِ الباعة واحد، كلّهم فقراء، وتلقى بضائعهم الكساد، حتى أنّ بعض البضائعِ قد فسدتْ بالفعل لعدم الإقبال عليها نتيجةَ الحالة الاقتصادية المتردّية التي آلت لها حالة البلاد في ظلّ حكم الملك الأرعن «خوان الثاني»، ومِن ثمّ فقد هَمَّ «موردخاي» بالاقترابِ منهم، والحديث إليهم، لكنّ «ويليام» قد شدَّ على يدِه متوسلًا له ألّا يفعل.. فتوقّف «موردخاي» حيث كان نزولًا على توسّلات «ويليام»، في حين التفّ هؤلاء الجنود الأقوياء حول «إيمون»، وعندما طالبوه بدفع العشرة دنانير؛ فأقسَمَ لهم أنه لا يملك دينارًا واحدًا، فأخذوا يبعثرون له بضاعتَه المُزجاة الكاسِدة هنا، وهناك، ولمّا قاومهم الفتى بسببِ ما فعلوه ببضاعته؛ أوْسعوه ضربًا، ثمّ طرحوه أرضًا، حتى كادَ أن يفارق الحياة!!

كُلّ ذلك، و»ويليام» يقبضُ بكلتا يديه على كَفَّي الكاردينال، حتى لا يتدخّل فيما يجري، خشيةَ أنْ يصيبه أذًى مِن هؤلاء الجنود، الذين ينفّذون أوامرَ مليكهم في طاعةٍ تصل إلى حدّ الغفلة، والغباء..

ولكنّ «موردخاي» لم يتحمّل الاستكانة أكثرَ من ذلك، فأفلت يدَه من بين يديّ «ويليام» وراح يتوغّل وسطَ تلك المعمعة الشديدة، هاتفًا بغضبٍ بادٍ:

– فلتتركوا الفتى، وإلّا حلَّت عليكم لعنةُ الرّب!

ردَّ قائدُ هؤلاء الجنود، «دانييل»، ذو الصدر العريض، والعضلات المفتولة، بصوتٍ ينضَحُ قسوة، وهو يضرب «موردخاي» في صدْرِه بِــذراع حربةٍ معدنيةٍ:

– توقّف أيها العجوز الحقير، وإلّا أرديتُك بطعنةٍ نجْلاء من تلك الحربة الآن.

توقّف «موردخاي»، وهو يضعُ كلتا يديه فوق صدره كاتمًا آلامه، ولكن عندما أحسّ بقدوم «ويليام» نحو هؤلاء الجنود ردًّا منه على ما فعله أحدُهم بالقِسّ الفاضل؛ هتف:

– إنّني بخير .. «ويليام».

فلمْ يتوقّف «ويليام»، بل راح يتقدّم نحوَهم في بسالة، والجندي الذي يحمل الحربةَ يصوّب رُمحَه صوْب صدره، و«ساموئيل» يبكى، ويصرخ:

– عُدْ يا أبيييييي!!!

لمْ يجدْ «موردخاي» مُنقذًا لحياة «ويليام»، سوى أن يعلنَ لهؤلاء الجنود عن هويّته الحقيقيّة.. فقال بكلّ ما أوتيَ من قوّة:

– أيّها الجندي، توقف.. أتريد أن تقتلَ شقيقَ الملك؟!

تعالتْ شهقاتُ التعجب، وصيحاتُ الاستفهام، وعمَّت التساؤلات، وارْتسمت علاماتُ الدهشة، وبوادرُ الحيرة فوق جميع الوجوه، حتى على

وجوه الجنود أنفسِهم، فقد راحوا ينظرونَ إلى بعضهم البعضِ في ريبةٍ.. حتّى أَلجَمَ الصمت جميعَ الحناجر، والأفواه!

فانْطلق صوتُ الراهب يشقّ حُجب الصمتِ المطبق، ويقول في ثقةٍ:

- أجل.. إنّه الملك «ويليام»، وريثُ عرش «قشتالة» و«قشتالة»، والأخُ الأكبر للملك «خوان الثاني».. أوَ تظنّون أن تنجوا بفعلتكم لو قتلتموه؟! هل سيعفُو عنكم الملك آنئذٍ؟!

وإذا بأحدِ الجنود يقول في ارتياب:

- وما يدْرينا أنك تقولُ الصدقَ أيها العجوز، لعلك تحاول خداعَنا!!

فقال أحدُ الباعة البسطاء مؤكّدًا:

- لا.. إنّ هذا الرجل هو فخامةُ الكاردينال «موردخاي»، راعي كتادرائيات مملكة «قشتالة»، وهو أبٌ صالحٌ لا يكذب، ولا يدَّعي قولًا..

طأطأ الجنودُ رؤوسهم، وقفلوا صاغرين.. تاركين السوق، وما فيها، بأمرِ رئيسهم «دانييل»، الذي مازال يحملُ الرُّمح.. حين أمرهم بقوله:

- هيّا.. هلمّوا أيها الجنود، لنعُد إلى القصر ، وليأمر الملكُ بما يراه صوابًا حيالَ ما حدث اليوم.

وقبلَ أن يختفوا عنْ أنظار الجميع، قال قائدُ الجنود لِـ «ويليام»:

ــ إذا كنتَ شقيق مليكنا بحقّ، فأنا مَدينٌ لك بالاعتذار، ودعم أمام حشدٍ كبير من الناس، وأمّا أنت أيّها الكاردينال، فلا تلمْني على ما فعلتُ معك؛ فلقد قَدِمتُ كقائدٍ لتلك الكتيبة مِن قشتالة قبل بضعة أيامٍ فقط، ولمْ أحظَ بلقائك قبل اليوم، لذلك أنا لم أعرفك.

ثمّ انحنى لتحية «موردخاي»، ثمّ مضى، وجنوده إلى حيث أتى.

أشفق شهودُ تلك الواقعة على كلٍّ مِن «ويليام»، شقيق الملك الذي يرتدي ثيابًا رثّة، وكان قبلَ قليلٍ يبيع اللحمَ بالسوق، ويبذله لمن يحتاجه دون مقابل، وكذلك أشفقوا على الرّاهب الحكيم، وأجلسوه، ثمّ أتى أحدُهم بقدح ماءٍ من أجله، وأخذَ البعض، ومِن بينهم «ويليام» يحاولون أنْ يُفيقوا «إيمون»، الذي أغشيَ عليه من أثَر الضرب المُبرح الذي تعرَّض له، ومِن ثمّ يُضمّدون جراحَ وجهه المتفرقة النازفة بغزارة، وقد أخذ آخرون يلتقطون، ويرتّبون البضاعة التي بعثرها الجنود، ويضعونَها حيث كانت قبل قدوم هؤلاء الجنود، الذين يستوْلون على قوتِ المُعدَمين تحت مُسمّى، «جَبْيُ الضرائب».

وقعتْ عينا الكاردينال– قبلَ أن يتوجّه عائدًا إلى الكنيسة– على وجه «ساموبل» البريء حيث قال له:

– «ساموبل».. لتحمل قُبلاتي، وأشواقي إلى أخويْكَ، إلى أنْ أراهما في القريب العاجل بأمر الرّب.

وهكذا كان هذا الصباح مزيجًا من رعونةِ ملكٍ ثَمِل، و شجبِ رعيَّةٍ واعية، يظنّ مليكها–وهمًا– أنها قد أضحتْ غافلة، مُستكينة!

كم تمنّى «موردخاي» لو سأل «ويليام» إذا ما كان يرى «چبروتيا»، أم لا؟!

كم تمنّى لو الْتَقاها دونَ سابق موعدٍ، كما كان يراها من قبل بِحُكم الجِوار!!

ربّما ذلك الوقت لم يكن مواتيًا، ولكن رغم كل شيءٍ، رغم كلّ ما حدث؛

يبقى الحنينُ لهيبًا، لا تخبو، أو تنْطفئ له جذوةٌ داخله.

أخذَ «موردخاي» يقطع الطريقَ إلى الكنيسة، محاولًا قدرَ استطاعته إخفاءَ ألمِ صدْره عن كلّ مَن كان يقابله، ويراه، ولم يكنْ يدرِي أكانت توجِعُه ضربةُ الرمح المعدنية، أمْ يوجعه أنّها ضربةُ الرمح، قد أصابت مسكنَ حبيبةٍ، كم خبّأ حبّها داخل قلبه، وقد عجزتِ السّنون عن محْوِ ذكراها من أعماق فؤاده؟!

وكلّما حزَّ به الألمُ كان لسانُ حاله يُردّد:

- كُوني بخيرٍ .. «أثناسيا»..

كُوني بخيرٍ، يا رفيقةَ الطفولة، والشباب..

كُوني بخير، يا منْ لم يخفق فؤادي لِسواها..

***

الفصلُ الثّالث

ابنة «نِيسان»!

لم تبرحِ العرّافة كوخَ «ويليام»، إلّا بعد أن وضعتْ زوجتُه طفلَها الثالث، «إيڤ»، فقد سمَّتْه «چبروتيا» بهذا الاسم حين ألحَّ عليها الزوجان لاختيار اسم لمولودهما الجديد؛ حيث أنها على دِرايةٍ وقراءةٍ واسعة بِكُتبِ التوراةِ والإنجيل القديمة، وتعرف أنّ اسمَ «إيڤ» في اللّغة العبريّة يعني «الحياة»؛ تلك الحياة التي تجدُ أُسرةَ «ويليام» تعيشها بأرقَى معانيها، رغم سُكنى الكوخِ البائس بأطراف غابةٍ موحِشة!!

ولعلّ «خوان» قد نالَ ما أراد بالقوّة، و يتمرّغ في شتى صنوف الرفاهية، والدَّعة، وبين يديه الجاهُ والسلطان، ولكنّه يعيش مُشتَّت الذّهن، غيرَ هادئ البال، لا يعرفُ للقناعة، والرضا سبيلًا!

أمّا «ويليام، وهيلدا» رغم فقريْهما، إلّا أن ضحكتهما، منبعُها قلبان زهَدَا حبَّ الدنيا، واستعْذَبا لذّةَ الرضا بما قُسِمَ لهما، رغم كلّ شيء.

تذكّرت «چبروتيا» نبوءتَيْها لكلٍّ مِن «ويليام»، و»خوان»، فقد صدقتِ اليومَ نبوءتُها الأولى، و ها هي تؤتي ثمارَها بقدوم الولد الثالث «إيڤ».

لعلّها شفافية قلبِ امرأة، قد أذابَ فراقُ الأحبة كلَّ ما علقَ به من حبّ دنيا زائفة، ومتاع لا محالةَ زائلٌ، فصار لها حدسٌ لا يَخيب، ونظرةٌ للحياة، وللبشر لا تخطئ.

عادتِ العرّافةُ إلى صومعتها مع زوال نهارِ ذلك اليوم الحافل بالأحداث المتلاحقة، وبعد أن لملمَتِ الشمسُ أطنابها، وقد ألقى الظلامُ أستاره فوق وجْه الأرض، ومَنْ عليها، وقدْ خلا كلُّ خِلٍّ بِخليله، وكلّ حبيبٍ بحبيبه، وكلّ قلبٍ بما يؤنس وحشتَه، وإن كان ما يؤنسُ مجردَ ذكرى تُدثّر مُخيّلته، ويأنسُ بها وإن كانت تفوق مرارتُها العلقم!!

لم تكنْ صومعة «چبروتيا» بأفضل حالًا مِن كوخ «ويليام» البائس، ولكن وجوه أطفاله النّضرة، ووجْهَ زوجته الرقيقة، يضيئون جنباته، بينما السكون يعمّ صومَعَة العرّافة، حتى لَتبدو كقبرٍ صَمُوتٍ ساكنٍ سكونَ الموتي!

حياتها خاليةٌ من الزوج، والولد، حتى كان ما يؤرّقها أنه لن يُشيعها ابنٌ، ولنْ تبكيها ابنةٌ إذا ما وافتها المنيّة بغتةً!

ولكن سرعان ما كانتْ تقولُ في نفسها، حين تُداهم رأسَها تلك الأفكار:

- لا بأس، إنّي متيقّنة أن «ويليام» سيذكرني، ويَبْكيني، ولن ينسَ أمَّه التي عكفتْ على تربيَتِه، أمّا «خوان» فلن يفعل بكلّ تأكيد..

شتَّان ما بين الثرى، والثّريا!!

أضاءتِ العجوزُ سِراجًا زجاجيًّا، لم تتبقّ به سوى بضع قطراتٍ مِن الزيت بالكاد تكفي للاسْتضاءة بها الليلة فقط!

جلستْ فوقَ سريرها المهترئ، الذي بقي على حالِه منذ تركتْهُ بالصباح..

فيما ظلَّتِ الذّكريات تتوافدُ على مُخيّلتها، وتستدعي كلّ واحدةٍ منهن الأخرى، كاسْتدعاء أشباح الليل، حتى حاصرتها تلك الذكرياتُ فأضحى النومُ أمنيةً مستحيلة لديها، وممّا زاد الأمرَ صعوبةً، أنْ أعلنتْ معدتها التمردَ على كافة محاولاتها المسْتميتة للنوم، فصدقَ مَن قال.. «لا نومَ لجائعٍ، أو موجوع!!».

فقامتْ من فوْرِها صوْبَ سلة الخبز الجافّ لتهولها الصدمة؛ فقد أتى الجُرذ السخيف على ما تبقّى بها من فُتات الخبز الجاف!!

عادت تجرُّ أذيال اليأس، رغم قوّتها على مجابهة الظلم، إلّا أنها لا تقْوى على مجابهة ماردِ الجوع الكاسر، حتى بكتْ..

تستجدي الغفوة، فتأبى أن تطيعَها، تتقلّب بفراشها على جانبها الأيمن تارة، وعلى جانبها الأيسر تارةً أخرى، تضُمُّ رُكبتيها إلى بطنها دونَ جدوى، وكأنّ معدتها رضيعٌ، لا تُوقفُ صراخَه محاولاتُ أُمّه المُضنية للتهدئة من روْعه!

– ماذا أنتِ فاعلة الآن يا « چبروتيا »؟!

تساءلت في وهنٍ بالغ، وإذْ بصوتِ أقدام تقترب من الصومعة، غمغمتْ في ترقّبٍ:

– لعلّه أحد الوحوش الكاسرة، قد حرمه الجوعُ من الاستكانة حتى الصباح، فالجوعُ هو الوحشُ الكاسر الحقيقي، الذي لطالما أعيى الوحوش

الضارية، فهو لا يُفرِّق بين كهلٍ، أو رضيع، ولا يميّز بين قوي، أو هزيلٍ حين يضرب بقبضتِه، التي لا ترحم معدةَ كائنٍ، فلا هدف آنذاكَ سوى التنقيب عمّا يسدّ الرّمق!!

– ربّااااه.. إنّ زيت المصباح قد أوشَك على النّفاد، فماذا أفعل؟!

هل سأتحسّس طريقي كعمياءٍ لا تجدُ مَن يأخذ بيدها أينما تذهب؟!

ظلّت هكذا تتخبّط داخل دائرةٍ مغلقة من الهواجسِ البغيضة، بينما ألقى الظلام بعباءته على أرْجاء تلك الغابة المخيفة كافّةً، حتى جعلَها جثّةً هامدة لا حركةَ فيها، ولا صوتَ إلّا من هذا الوافد القريب من الصومعة!

همَّت بالنهوض من الفراش.. سارت ببطءٍ، ومِن ثمّ حملت مصباحَها، وقد أضحت شُعلتُه كجسدٍ يُصارع نزعَه الأخير ، اقتربت من النافذة عساها ترى هذا القادم..

كاد الهواءُ المتسلّل عبر تلك النافذة المُحطّمة أن يُطفئ سِراجها، بالكاد حَوَّطتْ الشُعلة بإحدى كفّيها، بينما كانت لا تزالُ تحمل المَصباح بالكفّ الأخرى.

لا تصدّقُ عينيها، إنه ليس أحدَ وحوش الغابة كما كانت تظنّ، بل هو رجل، لقد لمحت انْحناءَةَ ظهره، بينما يضعُ شيئًا على أمام باب الصَّومعة، ثمّ طرق الباب عدةَ طرقات هادئة، استجمعت شجاعتَها، تسأل:

– مَنِ الطارق.. مَنْ بالباب؟!

وما أنْ سمع ردَّها، إلّا وأسرعَ بالاختباء خلف أيكةٍ قريبة، محاولًا اختلاسَ النظر نحو باب الصومعة.

- يبدو أنّه مُسالمٌ، فلمَ لا يريدني أن أراه؟!

تساءلتْ في حيرة، وهي تقصد الباب بصحبة مِصباحها الذي بات ضوؤه في سكراته الأخيرة، لتفكّ رموز ذلك اللغز المُحيّر.

تفتحُ الباب، فتزداد ضرباتُ قلبه سرعةً.. لا يريد أن تكشف سِرّه، ولكنّه لن يمضي بأي حالٍ من الأحوال، إلّا حين يتيقّن من الْتقاطها ما تركَ أمام الباب..

تنظرُ أرضًا.. ثمّ تهمسُ في نفسها:

- إنّها لُفافة، ماذا بها يا تُرى؟!

ومَنْ هذا الذي وضعَها هنا تحتَ جُنح الظلام؟! على كلّ حال أيًّا كان محتواها، فلا بدّ أنْ أعرف، وليكن ما يكون!!

تضع السراجَ على الأرض، تتحسّس اللّفافة، تفكّ رباطَها لتجدَ بها..

ما هذا؟! إنّها بعضُ قطع اللّحم المُقدّد، وبعض ثمار الفاكهة، وقنينة زيتٍ للمصباح يكفي ما فيها للاستضاءةِ به عدّةَ أيام.. ولكن..!!

ذرفتْ عيناها، ورقَّ قلبها، وهي تقول:

- لقد رأيتُ تلك الخِرقة التي تجمعُ هذا الطعام من قبْل!

أجلْ.. لقد رأيتها في كوخ «ويليام»، إنه وشاحٌ نظيف لــ «هيلدا»، كنتُ قد وضعتُه بنفسي بصندوق ملابسها أثناءَ قيامي بترتيب الكوخ عقب ولادة «هيلدا» لـ»إيف»، إذًا فهذا الشخص الذي أتى في تلك الساعة المتأخرة هو «ويليام».. يااااللهُ مِن بارّ رحيم!

قالتها في حبّ أثير..

غلبتها دموعُها الممتنّة لهذا الفقير النّبيل، وتذكّرت كيف قبض بكلتا يديه على يديها متوسّلًا لها أن تنتظر حتى يُعدّ لها الطعام لتتناوله معه هو، وولديه «ساموِيل» و «روبرت»، ولكنها رفضت، متعلّلة بحاجتها إلى النوم.

كمْ هي عفيفة النفس، لا تطلبُ حاجة من حوائج الدنيا مِن إنسان مهما بلغ ثراؤه، فيأتيها رزقها بلا حولٍ، ولا قوّة منها.

فتتذكّر قصة البتول، العذراء «مريم أُمّ المسيح»عيسى»، و كيف كان حالُها مع الله.. وكيف انْزوت عازفةً عنْ ملذات الدنيا، فكان يرزقها ربُّها بلا حولٍ، ولا قوّةٍ منها بأفضلَ ممّا كان يرزق السائلين الناسَ إلحافًا!

ازْدادت العرّافة حبًّا للربّ، وشكرًا له كلما رزقها من فيض نعمائه من إخلاص الطيبين أمثال «ويليام»، وممّا تتذرّع به لتبقى على قيدِ الحياة، فلا جوع كاسر، ولا بطش ظالم تهابُ مادامَ الربّ يراها، ويسمع نجواها.

تذكّرت «ويليام»، قبْلَ أن تترك كوخَه حين قال لها:

– أمّنا الغالية «چبروتيا »، منذُ ساعاتٍ، وأنتِ بجوار «هيلدا»، حتى وضعت بسلامٍ، ومكثتِ بجوارها حتى عُدتُ، وطِفلاي من الغابة، ولم تتناولي شيئًا بعد، فلقد مَنَّ الرب عليّ اليوم، ورزقني بصيدِ كبشٍ وافرِ اللّحم، وقد قمتُ بِـشَيّه بنفسي، وأريدكِ أن تتذوقيه معنا.

فما كان منها، إلّا أنْ رفضتْ قائلة:

– أهكذا يا ولدي!! تريد أنْ تعطيني أجرًا جزاءً لما فعلتُه من أجل ابنتي «هيلدا»؟!

ثمّ التمعت الدموعُ بعينيها الزرقاوين، واستطردت:

– الربُّ لا ينسى عباده.. «وِيلِي».

أسرع «ويليام» بالردّ:

– لا يا أمّي، كل ما في الأمر أن أفضالَك علينا كثيرة، وأننا نحبّكِ كما تعلمين، ولم أُرِد ما جالَ بخاطرك؛ لأنني مهما أعطيتكِ، فلن أُوفّيكِ حقّك عليّ، فلم أعرف أُمًّا كانت، ومازالت أرفقَ بي منكِ حتى خلال حياة أمّي الملكة «كاثرين»، قدَّس الربّ روحَها.

فرَّتْ دمعةٌ من عين العرّافة، وقالت مُشفقة:

– أوَ مازلت تتذكّر أُمّكَ، وتدعو لها أيضًا؟!

قال في حنوٍّ:

- بل، وأبي الملك المبجّل «هنري الثالث» أيضًا.. وأخي «خوان الثاني» كذلك؛ أسألُ الرَّب أن يزيل غشاوةَ الغرور عن عينيه، وقلبه.. أمّي «چبروتيا».

تساءلتْ في تعجُّبٍ:

- أوَ بعدَ كل ما حدث؟!

أوَ بعد أنْ حرمكَ أبوكَ عرشَكَ الشرعي؟! ووهبهُ لِـخوان دونما وجْه حقّ!؟ وبعد أنْ طردكَ أخوكَ من قصركَ أنتَ، وزوجتكَ، وولدُك ساموَيل بأحشائها؟ يااااللك مِن مُتسامح يا ولدي!

- لا عليكِ أمي.. يكفيني أنني مازلت أراكِ، وأطمئنّ عليكِ، و كلّ ذلك الرضا يظلّل حياتي أنا و»هيلدا» والفرسان الثلاثة الذين سبقَ، وبشرّتِني بقدومهم ليلة زفافي.

- الكون كلّه بما حوى قليلٌ على مثلك.. «ويليام». لقد فاقت روعتُكَ، وإنسانيّتكَ كلّ حدّ بحقّ. لقد سمّيتُكَ باسْمه، وعلّمتكَ كيف كانَ وقد كنتَ يا ولدي.

- مَن هو ذلك الذي سمّيتني باسْمه.. أمي؟!

- هذا أمرٌ يطول شرحُه، وحكايةٌ تحتاج يومًا كاملًا على الأقل كي أخبركَ بتفاصيلها، كلّ ما يهمني الآن أني أكادُ أرى أمامي ملاكًا قد رحلَ منذ أمدٍ بعيد، وطالما اشتقت لأنْ أراه، وها قد رأيته، ولم أُحرم منه كما كنتُ أظنّ.

– أتحرّقُ شوقًا أمَّنا العرّافة أنْ تحدثيني عنه.

– سأفعلُ بلا شكّ يا ولدي.. لا تقلق؛ فأنتَ أحقّ إنسانٍ بالتعرّف إليه، ولكن قد اقتربَ الليل، لا بدّ أن أذهب الآن.

– على الأقلّ، دَعيني أرافقكِ.

– لا.. لا عليك صغيري، فقط اعْتنِ بزوجتكَ، ولا يوقظها أحدٌ منكم الآن؛ فقد تناولت طعامَها، وخلدت إلى النوم، تعَاهدَ الوليدَ فقط حتى الصباح، وسأمُرّ عليكم بمشيئة الربّ غدًا.

بوجْهٍ مُشرقٍ، وابتسامةٍ تنُمّ عن امتنانٍ شديد، قال في نبرةٍ تغشاها الرحمة:

– صاحبَتْكِ السلامة.. أمّنا الغالية.

قَفَلَ «ويليام» عائدًا حيث كوخه إلى أسرته الجميلة.. مُفعمًا بالسعادة والرضا، فقد كان يظنّ أنّ العرّافة لم تره، ولذلك كان فرحًا لأنه كان يخشى إذا رأتْه أن تتحرّج من لقائه، وزيارة أسرته بعد اليوم؛ فاطمئنّ قلبًا، وظلّ ساهرًا، بجوار فراشِ زوجته، وصغيرِه الجميل «إيڤ»، حتى شقّ بكاء الصغير سكونَ الكوخ، فبادر بحمْله بين ذراعيه حتى لا يُوقِظَ أمَّه المُنهكة من أثر المخاض.

بدا الرضيعُ جميلًا ناعمًا كفرخ الطير الذي قد خرج للتوّ من بيضة دافئة، فظلّ والده الحنون يدفئه، ويدثّره بغطاءٍ صنعتْه أمّه له من صوفِ الحيوانات، بعد تنظيفه بعنايةٍ قبل أن يأتي، قبل شهرٍ مضى.

هكذا كان «ويليام»، وهكذا كان حديثُه الذي يقطرُ رحمةً، وأدبًا جمًّا. على النقيض تمامًا كان أخوه «خوان»..

حيث لم تتذكّر العرّافة العجوز يومًا، أنْ طلبَ منها «خوان» البقاءَ لتتناول طعامًا، أو تحتسي شرابًا، ولم يُرسل في طلبها إلّا لحاجةٍ في نفسه، وكأنما لا يعترفُ إلّا بشعاره الأناني...

(أنا، والطوفان من بعدي)!

إنّ حديث «ويليام»، وقدومَه متدثّرًا بِظُلمةِ الليل حاملًا لها الطعام، قبل أن تلقى حتفَها متضوّرةً جوعًا؛ قدْ أعادا لها ذكرى كان قد مضى عليها أكثرُ من أربعين عامًا، ورغم كلّ تلك السنوات الماضية إلّا أن «چبروتيا»، مازالتْ تذكرُ كلّ تفاصيلها، كما لو كانت قد وقعتْ للتوّ، عقلها لا يكُفّ عن استرجاع مشاهدها بحذافيرها كما حدثتْ منذ زمنٍ بعيدٍ.

صعدت حيث كانتْ قبل أن يأتي «ويليام»، سكبتْ بعضَ الزيت من القنينة بخزّان المصباح الزجاجي الصغير، قبل أن تنطفئ شعلته. ثمّ جلست فوقَ سريرها تتناول بعضَ الطعام، لقيماتٌ قلائل، وأحسّتْ بالشبع سريعًا، ثمّ دعتْ بالخير، وسعةِ الرّزق لـِ«ويليام»، ثمّ رغمًا عنها لم يُسبَلْ لها جفنٌ، فقد ملأتْ أجمل الذّكريات عليها روحَها النقية، حتى عادت بها الذّكرى إلى حيث دفْء الأسرة، ورفقة الأهل..

إنّه الخامس من يوم ميلادها، فتحتْ عينيها على صوتِ أبيها يناديها- ذلك الأبُ الحنون، الذي كان يعملُ تاجرًا للغلالِ، قبل أن يقعدَه المرض

عن التجارة، ولم يعدْ لديه سوى بعض المالِ الزّهيد الذي ينفقُ منه على أسرته الصغيرة؛ زوجته، وابنته الوحيدة- بصوتِه المفعم بالحنوّ:

- أثناسيا..

ذلك الاسمُ الذي تناستْه منذ سنواتٍ عديدة..

بدتْ مظاهر الترفِ والرخاء تنحسرُ عن بيتهم كأمواجِ البحر حين الجذر بعدَ المدّ.

قفزتْ من سريرها الوثير الدافئ مُجيبةً:

- عِمتَ صباحًا أبي الحبيب.

كيفَ أصبحت أيّها الهُمام؟!

- بخير حالٍ حبيبتي.. «أثناسيا».

جالتْ بناظريها بالغُرفة، فلمْ ترَ أمَّها.. فسألتْ والدها:

- ولكن.. أين ذهبتْ أمي مبكرةً هكذا؟!

- إنّ جارتنا، السيدة «كارلا» يبدو أنها مُتعبةً بعض الشيء، وكما تعلمين هي تعيش بمفردها لسفر زوجها الدّائم للتجارة، فقد أرسلتْ إحدى الجارات في طلب والدتِك حيث ترتاح لها، وتطمئنّ لوصفاتها العشبيّة، فخبرةُ والدتك في هذا المجال ليست بالقليلة.

قاطعته الفتاةُ في فخرٍ، وهي تضحك في رقةٍ:

- بكلّ تأكيد أبتِ.. ولمَ لا، وجَدِّي لأمّي كان مِن أبرز أطباء «قشتالة»؟!

ويكفي أنّ جدي قد سمّاها «ريموندا».. أي؛ نــورُ الـعِـلـم، فكيف ألّا تصبح واسعة العلم، والأفق كوالدها؟!ـ

يومئ الأبُ مؤكّدًا، ثمّ تُعقّب «أثناسيا»، بِمرحٍ:

- ها أنتَ ذا قدْ أنْسيتني، لماذا كنتَ تناديني؟!

تفضَّل اطلبْ ما شئت، تجد ابنتكَ المطيعة رهنَ إشارتِك.

- كنت فقط.. أريدُك أن تذهبي إلى السوق، وتشتري سمكًا.

- أوَ يشتهي والدي الحبيبُ السمك؟!

ليتني اسْتطعتُ أن أحضرَ لك كلّ السمك الموجود بالسوق أبَتِ.

يضحك الأبُ في سعادة، وينظرُ نحوها في حبٍّ بالغ، ويقول:

- كُلُّ السمكِ؟! حبيبتي ليتني أستطِع تناولَ سمكةٍ واحدةٍ على الأقل.

- أجملُ سمكة بالسوقِ ستكون بين يديْك اليوم على مائدة الغداء!

ثمّ قالت بضحكةٍ مشرقة:

- لا تؤخّرني رجاءً؛ فالسمكة المحظوظةُ تنتظرني بالسوق.

ثمّ ضحكت ببراءة، وطبعتْ قُبلةً على جبين والدها، ثمّ دلفت إلى حجرتها لترتدي ثوبًا مناسبًا للخروج، ثمّ عادتْ إلى أبيها فأعطاها بعضَ

المال، ولكن عندما عدَّتْ القطع المعدنية التي أعطاها إيّاها نالَ من قسماتِ وجهها التعجبُ، وقالتْ:

- ولكن يا أبي هذا المالُ أضعافُ ثمنِ السمك! هذا كثير جدًّا.

تدفع بعض العملات في يده.. فيضمّ يدَها بين يديه في رحمة أبٍ كريم، ويقول:

- كلّ عامٍ وأنتِ بخيرٍ حبيبتي.. اليوم هو العاشر من نِيسان «أبريل»، ذلك يوم أشرقت معه حياتي بوَضاءةِ وجهك الجميل، ولو كنت أستطيعُ السير على قدمَيَّ لخرجتُ اليوم مع أول شعاعٍ للشمس، وجُبْتُ الأنحاء لأُحضر لك هديةً تليق بكِ يا جميلتي.. ولكنّ الأمر لكِ الآن، ولتشترِ ما تريدين.

لمعتْ دموع العرفانِ والامتنان بعينيها، وألقتْ بنفسها بين ذراعيه. وقالت:

- أحبّكَ أبي، أطالَ الربُّ عمرَك، و أبرأ جسدَك من كافة الأسقام، والآلام.. آمين.

- آمين.. ابنتي الحبيبة.

تركتهُ، ومضتْ تشقّ الطريق نحو السوق، وإذا بها تقولُ في صدمةٍ بالغة:

– ما هذا؟! أين ذهب باعةُ السمكِ اليومَ يا تُرى؟! ليس هناك سوى بعض باعة الخضروات والفاكهة!

سألت الفتاة سيدةً عجوزًا مرّت بجوارها:

– سيدتي، عفوًا.. لماذا السوقُ خالٍ اليومَ من باعة السمك؟!

أجابتها المرأةُ العجوز قائلة:

– اليوم يا ابنتي، قد جعله صيادو، وبائعو الأسماك عُطلةً لهم من كلّ أسبوعٍ، على ما يبدو أنّ لك فترة ليست بالقصيرة لم تأتِ إلى هنا.

قالت «أثناسيا» بصوتٍ متهدّج:

– أجل سيدتي، أنا لم آتِ منذ عامٍ تقريبًا، أمي هي التي كانت تشتري لنا الأسماك، ولكن لم تخبرني بأنّ الصيادين والبائعين قدِ اتّخذوا من اليوم عُطلة.

عقّبت المرأة العجوزُ مبتسمةً:

– ربّما لم تأتِ فرصة لتخبركِ يا ابنتي، فكم هي كثيرة مشاغلُ الأمهات!!

ولكن ثمّة جلبة قريبة هناك، لعله أحدُ الباعة المغتربين عن الديار، اذهبي لتتبيّني الأمر.

مضتِ العجوزُ في طريقها مودّعة إيّاها، وحين اقتربت «أثناسيا» مِن الجمعِ، علمتْ أن هناك بائعَ أسماك بالفعل، ولكن!!!

تساءلت هامسةً في حيرة:

- تُرى هل سأجدُ ضالتي معه؟! هل سأجدُ لديه أسماكًا طازجة، أمْ أنها باقية معه منذ أمس؟!

اقتربتْ مِن الجمع، فوجدتْ أمام البائع سلةً كبيرة لم يعدْ بها سوى سمكات قليلات، ولكن ما أروعَهُن، كانت الأسماكُ التي يبيعها طازجةً.. لامعةً.. غضةً.. مازالت تدبّ فيها الروح فتتحرك، وتتلوّى بالسلة، وكأنّها صِيدتْ منذ لحظات فقط!

ماذا عساها أن تفعلَ الآن، والزبائن كُثُر؟!

لا بُدّ وأنْ تقتحم زحام الزبائن، حشرتْ جسدَها بين عدة نساء كانت كلٌّ منهُن تريدُ أن تظفر بالغنيمة، وكلٌّ منهُنّ تمسك ببعض العملات، وتحاول إغراءَ البائع الشاب بها، حتى يختصّها بما تبقى معه مِن أسماك.

مهما كلَّفها الأمرُ من عناء، وجهدٍ، فلا بدّ ألا تعود بِخُفي حُنين..

لا بدّ أن تحصل- على الأقل- على إحدى هذه الأسماك، فوالدُها قد هفتْ نفسُه إلى تناول السمك اليوم، وهو الأبُ الكريم الذي لم يألُ جهدًا في إسعادها حتى بعد أن أصبح قعيدًا.. طريحَ الفراش منذُ عدة سنوات، فكيف هي اليوم لا تستطيع أن تُلبّي له رغبةً يسيرةٍ كهذه؟!

صاحتْ في اضطرابٍ:

- أيّها البائع، خُذ ما تريد، وأعطني ما تبقّى معك من أسماك.

وإذْ بالشاب يرفع وجهَه، وينظرُ نحو ذلك الصوت، فتراه قد حازَ شطر الجمال بحقّ، وبصوتٍ ملؤه الجدية، والحزم يقول:

– معذرةً سيدتي، الأسماكُ المتبقية مُباعة كلها.. تعالي غدًا، وسأعطيكِ ما تُريدين.

وما أنْ سمعت النساء اللواتي كنّ ينتظرنَ الحصول على السمك مقولتَه؛ إلّا وذهبنَ في هدوء، ولكنْ ظلت هي واقفةً غير مُصدقةً؛ أنها ستعود لأبيها خاويةَ اليدين.. فإذا بها تثور حانقة:

– كيف تقول إنّ أسماكك مُباعة، ولم يعدْ أمامكَ زبائن؟!

ارتسمتْ علاماتُ الغضب على وجهِه الجميل، وقال ساخطًا:

– سيدتي، أنا لا أكذب.. إنّ ما بقيَ معي مِن أسماك لا يُمكنني إعطاؤه لكِ أيًّا كان الثمن.

– أرجوكَ أعْطينيها، وخذْ أضعاف ثمنَها، أريدها اليوم دون غيره من الأيام.

– سيدتي، كيف لي أنْ أعاهدَ الربّ على الصدق، ثمّ أحنث لإرضائك؟!

انعقدَ حاجباها، راحتْ تُهدر، والدموع تطلّ من عينيها:

– يا لكَ من أحمق!!

إنّ والدي مريضٌ، وقد اشتهى السمكَ اليوم، وقد وعدتُه أن آتي له بأطيبِ ما بالسوق من أسماك، أيُرضيك أن أعودَ له دون ما تشتهي نفسُه؟!

ولم تتركْ له فرصة الردّ على ما قالت، فقط مضتْ كالسهم المنطلق حتى قادتها خطواتُها إلى شاطئ قريب خاوٍ من الناس، فجثَت على ركبتيها تبكي حظَّها العاثر، وهي تتخيّل كيف ستعودُ إلى البيت دونَ السمك!

ظلّت على حالها هذا قرابة ساعتين، حتى أوشكَ النهار على الانتصاف، ترسل دموع القلب قبلَ العين، وبداخلها صوتٌ يعاتبها:

- ما هذا الجحود «أثناسيا»! أيشتهي والدُك المريض شيئًا، وأنت على قيدِ الحياة، ولا تأتين له به؟! تُرى بما ستجيبينَ أباكِ، حين يسألكِ عمّا اذا كنتِ قد أحضرتِ السّمك، أمْ لا؟!

وبينما كانت على تلك الحالِ الحزينة، إذ أرسل أحدُهم صوته المُفعم بالشباب، والرجولة:

- تفضّلي سيدتي.

نظرتْ من بين دموعِها الجارية لتجدَ بائعَ السمك يقف أمامها حاملًا سمكةً كبيرة.. لامعة.. فائقةَ الروعة في سلّة مصنوعة من الأسلاك المعدنية، بينما يحاولُ السيطرة عليها، فقد كانتْ سمكةً قوية رائعة، تحاول أنْ تقفز إلى خارج السلّة لولا ضغطه عليها بكفّه القوية!!

تنظر الفتاةُ متعجّبةً، وهي لا تصدّق ما تراه عيناها.. يُسرّي عنها قائلًا:

- تفضَّلي.. هذه السمكةُ المطلوبة سيدتي، أنا آسف إذْ لم أعطِك ممّا تبقى معي من سمكٍ حين طلبتِ.

ثمّ طأطأ رأسَه في خجل منها..

ولكنها شعرت رغمَ ذلك بالدماء تغلي بعروقها، فصاحتْ به في غضبٍ عارمٍ:

- ويْحك يا هذا!!

ألم تقلْ إنّ ما تبقّى معك من أسماك لا يمكنُك التصرف فيه؟!

فكيف حصلتَ على تلك السمكة إذن؟!

ألم تَبِعْ كلّ ما معكَ فيما عدا سمكات قليلات؟!

وأين ذهبت سمكاتُك السابقة؟!

أبِعتُها، ونقضتَ عهدَك مع ربك؟!

أجِبني هيّاااا.

- سامحيني رجاءً.. إني بالفعل لم أكذبْ عليكِ فيما قُلت.

اتّسعت حدقتاها، وكادتْ تصرخُ في وجهه، وتنعتُه بالكذب مرة أخرى لولا أنْ أوضح قائلًا:

- حين مضيتِ غاضبة، أرسلت خلفَك غُلامًا يعملُ بالسوق، ويساعدني في بعض الأحيان في بيع أسماكي بمملكتِكم، وعندما عاد؛ أخبرني بأنّك جالسةً هنا تبكين، دعوتُ الربّ ألا تبرحين مكانكِ هذا لبعض الوقت، حتى أصطادَ لكِ سمكًا غير الذي كان معي، وآتي لك به قبل أن تغادرين.

وقبلَ أن يكمل كلامَه، قاطعته بسخطٍ قائلة:

– كانَ بإمكانك أن تعطيني ما معكَ في السلّة من أسماك، وتأخذ المالَ الذي تريد، فإنّ معي المزيد من النقود، بدلًا من أن تذهب للصيد.

قال في جزع:

– قُلت لكِ مِن قبل أني لا أستطيعُ بيعَ تلك السمكات، أرجوكِ صدّقيني، أنا لا أتكذَّب.

– كيف لا تستطيع؟ وما يمنعُك مِن بيعها؟ أكنت ستحملُها إلى زوجتك؟!

أمَا أخبرتُك بأن هناك رجلًا مريضًا.. قعيدَ الفراش.. هو أولى منكما بأكلِ ذلك السمك الطازج، ولكن يبدو أنّكما زوجان أنانيّان، لا تفكران سوى بأنفسكما ليس إلّا..

ردّ في ثباتٍ، وهدوء:

– إني أعزبُ سيدتي، وقد تركتُ أمّي، وأخًا بالتاسعة من عمره بِـ «أندورا»، ولا أدري هل لديهما ما يأكلانه أمْ لا.. حتى أعود إليهما بعدَ يومين من الآن على الأقل!.

انسابتْ كلماتُه في نفسها بردًا، وسلامًا، فقالت مُتعاطفة:

– إذن ستفسد أسماكُك قبل أن تصلَ إليهما.. لقد علمتُ الآن لماذا لم تبعْ لي ما تبقّى معك من أسماكٍ بالصباح؛ فأرجو المعذرة.

ابتسمَ في تهكمٍ، واستطردَ متسائلًا:

- ومَن قال لكِ إنّ الأسماك كانت لأمي، وأخي؟!

سألتْ في حيرة:

- لمن هي إذًا؟!

مَنْ الذي تختصّه بها؟!

لا بدّ وأنه شخص يهمّك أمرُه للغاية.

قال مبتسمًا:

- نعم، هو كذلك.

عادت لتسأله:

- ولكن هل لي أنْ أعرف مَنْ هو؟!

قال مؤكّدًا:

- بل هي وليس هو .. سيدتي..

استشعرتْ في نفسها غيظًا مُستعرًا، وامتقع وجهُها قبل أن تقول بامتعاضٍ:

- يا لحماقتي! إنها حبيبتُك إذن، أهذه التي أبيْتَ أن تبيعني السمكَ من أجلها، لا أريد شيئًا منكَ بعد، خذْ تلك السمكة الأخرى لها، فلا حاجةَ لي

بها، وهمّت بالمغادرة. حاول أن يستوْقِفها فلمْ يستطع.. ألقى بالسلّة أرضًا حتى يلحق بالفتاة.

قفزتِ السمكة العنيدة عاليًا، وتمرغت برمال الشاطئ، وأوشكتْ أن تقفزَ بالبحر، ألقى بجسدِه فوق الرمال كي يعيدَها الى السلّة، ولكنّ حركاتها كانتْ أسرع منه، أوشكت السمكة المتمرّدة على الوصول للمياه، فضرب البائعُ المسكين بكلتا يديه فوق الرمال أسِفًا، وبينما هو مازال مُقعى على الشاطئ، فإذْ بالفتاة تركض، وتمسكُ بها، وتلتقي أعينهما، فيضحكان كطفليْن يلهوان معًا في وداعة، وقدْ نسيا ما كان بينهما من شحناءٍ قبل قليل!!

أعطتْه سمكتَه الجميلة، وسرعان ما تذكّرت ماعنَّفته به من كلماتٍ لاذعة، فهرولتْ مبتعدةً.

شقّ نداؤه هدوءَ المكان:

- هيـــــه.. ليست لي حبيبة سوى أمّي.

توقّفت.. وهي تريد كشف النقابِ عن وجْه الحقيقة، و تلعثمت:

- مااا.. مااااا ذاااا إذن؟!

- أخشى أنْ تكونين قد تأخّرت عن إعداد الطعام.. أقصد لعلّكِ قد تأخّرتِ عن إعداد تلك السمكة لوالدكِ المريض، شفاهُ الله .

ابتسمت، فكأنما أقبلَ الربيع يفترش وجهَ جليدِ الحدائق بأطيب الورود..

أكملَ الصيادُ الوسيم:

– لو تأتينَ غدًا؛ سأحكي لكِ ما لا تعرفين.

أخرجتْ بعضَ العملات المعدنية من جيبٍ صغير بثوْبها، وقبل أن تمدّ يدها بها إليه، أشار بيدِه لها أن توقّفي، وقال في حزم:

– أنتظرُكِ غدًا.

قالت بنبرةٍ مُشاكسة فيما تكسو قسماتِ وجْهِها النديّ ابتسامةٌ خلابة:

– ومَنْ قال لك إنّي سآتي؟!

أجابها واثقًا:

– قلبي يقول لي إنّكِ ستأتين.

ابتسمتْ، وودَّعته مُلوّحةً، ومضت حاملةً سمكتَها العنيدة التي لم تكُفّ بعد عن التلوي داخل السلّة.

كان مشهدُ عودتها لبيتها تاركةً وراءها ذلك الشاب الساحر؛ هو آخِرَ ما استدعته ذاكرتها القوية، ثمّ نامتِ العرّافة، وملء جفونها وجهُه الملائكي، وملء أذنيها صوته الفَتِي الحنون..

ومع ميلاد يوم جديد، وإشراقةِ صُبح رائق، نهضت «چبروتيا» وكأنها ترى الكون بعين فتاةٍ بالثامنة عشر؛ هذا كان سِنُّها آنذاك، في حين أنّ الصياد الوسيم كان يبلغ الثانية والعشرين تقريبًا.

أوشكت على الخروج مِن صومعتها، وهي تنتوي أنْ تحكي كل شيء عن الفتى الصياد للابن البار، «ويليام» وزوجته «هيلدا»!!

اليوم على وجْه الخصوص تشعرُ، وكأنّ داخلها بركان نشِط من الحكايا والذكرياتِ يوشِكُ على الانفجار . ولنْ يُطفئ حرَّ خبيئة قلبها إلّا أنْ تسرد كلّ ما مضى، بِكُلّ تفاصيله المُبهجة، والمُبكية على حدّ سواء.

- إني قادمة إليكَ صغيري «ويليام»؛ كي تتعرّف إلى ذلك السرّ الذي طالما عكفتُ على إخفائه عن كلّ البشر.

قالتها العرّافة، والصدقُ يطوّق روحها النقيّة.

ولكنْ سرعان ما عادتْ حيث توجد لُفافة الطعام، وفكّت رباطَها ووضعت ما بها داخلَ سلّة مهترئة ذاتِ غطاء من الخُوصِ أسفل سريرها، وأخذت الوشاحَ معها، وخرجت قاصدةً كوخَ أقمار الليالِي، وشموس الأيام!

ثمّة شيء جميل يُميز هذا الصباح، لعلّها الطاقة التي تسري بجسدها لمجرد استعادة أغلى ذكريات حياتها!

أو ربّما هو ذلك الصباح الذي ستكشفُ فيه عن مخبوءِ نفسها كما يكشف نورالشمس، روعة الكون! ولعلّه لقاء الأحبة الذين لم يعدْ لها سواهم، و لا تجد نفسها إلّا بينهم!

قالت، وزقزقةُ العصافير، وتغريداتُ الـعنادِل تتواكب مع خطواتها:

- وما جدْوى الحياة، وما حاجةُ البشر للدنيا لو خلتْ من الأحبّاء الغوالي؟!

ها هو «ويليام» يجلسُ على مقربةٍ من الكوخ يُشعل النار ببعض الحطب أسفل وعاءٍ للطهي. في البداية، لم يلحظْ قدومها نحوه، فقد كان يترنّم بصوتٍ ملؤه الإيمان، يضاهي في روعتِه صفاء صفحة السماء:

- ربّاه، لقد أشقاني ابن أبي، وأمي..

ولأجلك سامحتُه، فعفوكَ أرجو..

وأضْنَى بَغيِّـــهِ؛ زوجتي، وصِغاري..

فهوِّن عليهم فَاقتَهُم حتى لا يَهِـنُـوا..

أرهفت «ﭽبروتيا» السمع، وأنصتت لكلماته الرقيقة، وأرسلت دمعها الحار قائلةً بصوتٍ يعتصره الألم، وهي تدْنو منه:

- لا تأسَ يا صغيري؛ وربكَ يسمعُ خافِقًا بين ضلوعك يدْعو..

وطِبْ نفسًا كما لو كنتَ طيرًا.. بالحبّ يحيا، ويشدو..

قامَ من فوره- ما إنْ رآها- ومسح دموعَه عن عينيه الواسعتين، ورحَّبَ بها أيّما ترحيب، وقال:

- أيُّ صباحٍ جميل هذا الذي أتى بكِ أمّنا الغالية!

- جئتُ أوفّيك أمانةً، ووعدًا يا ولدي.

- أيّ أمانةٍ، وأيّ وعدٍ.. أمي؟!

أخرجتْ يديها التي كانت تضمّ وشاح «هيلدا» مِن أسفل وشاحها الكبير الذي يغطّي طولُه ذراعيها بأكملها، ومدّت يدَها بالوشاح نحوه.. قائلةً في حنوّ، وعرفانٍ:

- ألا تذكر أين وضعتَ هذا الوشاح بالأمس.. وِيلي؟!

فتلك هي الأمانة.. رغم أني لم أوفّكَ حقّك عندي أيها المهذّب.

أدرك الشابُّ الخلوق حينها أنّ العرّافة قد اكْتشفت أمره، وتبيّنت حقيقة تدثّرِه بظُلمة الليل؛ تحْدوه الرحمة، والبرّ بها، فطأطأ رأسه في خجلٍ بالغ؛ لأنّه كان يريد أن يظلّ مُتخفّيًا بعطائه لها، حتى لا تستشعر الحرجَ تجاهه، ولا تنقطعَ عن زيارته، فهو لا يتخيّل ألّا يراها يومين متتاليَين، فكيف يهجر الابنُ البارّ أمَّه، أوْ يرضى بعدم الاطمئنان عليها يومًا من الأيام متى كانَ في استطاعته لقاؤها، وسؤاله عنها؟!!

أرادت إزالةَ ما جال بداخله مِن قلق، فاستطردتْ مُغيّرةً سياق حديثها لتطمْئنه، فقالت متهلّلةَ الأسارير:

- أوَ ما وعدتُك بأنْ أعرّفكَ بالشخص الذي سمّيتكَ باسْمه؟ والذي حباك الربّ صفاتِه وملَاحَةَ وجهه!

وجدتْ كلماتُه طريقها للخروج، لمّا سمعها تقول ذلك.. فرَطَنَ قائلًا:

- أجل؛ تذكّرت للتّو.. وأنا متلهّف بالفعل للتعرّف إلى هذا الشخص.. كُلّي آذانٌ صاغية.

أطلّت حينئذٍ «هيلدا» من بابِ الكوخ ناظرة إلى زوجها، والعجوزِ بابتسامةٍ عذبة قائلة:

- أهذا عدلٌ.. ويلي؟! أتريدُ أنْ تُنصت وحدَك لحكايا الأمّ الحبيبة «چبروتيا»؟!

قال «ويليام» مُعقّبًا:

- حبيبتي.. ما الذي أيقظَكِ الآن؟! استريحي.. جميلتي، وسأُعدّ الطعام، وآتي به إليكِ.

- لا حُرمتُ حُنُوّك زوجي الحبيب، ولكنني أريد أن أتعرّف على ذلك الهُمام مثلك، فهلّا سمحتما لي بالجلوس معكما؟!

هُنا، ضحكتِ العرّافة ملءَ قلبها، وقالت:

- بل نحن الذين سنأتي، ونجلس معكِ، أخشى أنْ يصيبك بردٌ، أنسيتِ أنك مازلتِ نُفَساء؟!

ثمّ أشارت العجوزُ لـ«ويليام» إشارة تعني؛

«هيّا، تعال لنجلس داخلَ الكوخ مع هيلدا».

دخل الجميع، وجلسوا، وإذْ بـــ«ساموِيل» ذو السبعة أعوامٍ ينهض، وحيويةٌ تدبّ بأوصاله قائلًا:

- وأنا أيضًا.. رجاءً، أريد الاستماعَ لحكاية الجدة «چبروتيا»، فماذا قلتم؟!

ضحكاتٌ رقيقة جعلت الدفْء يسري بزوايا الكوخ الهادئ، بينما «روبرت» ذو الأعوام الخمسة، والصغير «إيڤ»، كانا يغُطّان في نومٍ عميق، وقد أخذت العجوز في إخراج بعض ما في جُعبتها مِن حكايا، وقصّت عليهم حكايتها منذ أنْ ذهبت للسوق لشراءِ السمك، ورؤيتها لذلك الصيّاد الوسيم، حتى عادتْ إلى بيتها، ومعها سمكةٌ جميلةٌ لوالدها، ثمّ أكملت قائلة:

- عُدتُ إلى بيتي أحملُ السّمكة العنيدة، وهي ماتزال تتحرك، وتتلوّى بقوة، فقد كان البيت لا يبعُد كثيرًا عن الشاطئ، كانت السمكة متشبثة بالحياة.. حالُها حالي..

فمنذ رأيتُ ذلك الصياد، وأنا أشعر أنه مِلكٌ لي وحدي، حتى أنني كنت متحيّرةً من نفسي، ومِن سرِّ شعوري حياله كذلك، شعرتُ بالغيرة عليه بمجرد أن تفوَّه بحروف كلمة؛ «هي»،

فكنتُ عنيفة الردّ.. صلدةُ الكلمات، أحببت الحياة أكثر مُذْ وقعتْ عيناي عليه، وكأنّ رباطًا روحيًّا كان يربطني به حتى قبل أن أُولَد!!

انتظرتُ الغدَ على أحرّ من الجمر حتى ألتقيه..

وصلتُ إلى بيتنا، طرقت الباب، فاستقبلتني أمّي بعتابٍ صاخب، وأسئلة متلاحقة:

- أين كُنتِ كلّ هذا الوقت؟ خشينا أن يكون أصابكِ مكروه.

لِمَ تأخرتِ؟ هل بك شيء «أثناسيا»؟!

قاطعتها «هيلدا» بسؤالها:

- اسمكِ»أثناسيا»؟!

قال «ويليام» مبتهجًا:

- يا لَه من اسمٍ راااااائع!!

- نعمْ يا أبنائي، اسمي « أثناسيا». (أكَّدتِ العرَّافة).

عقّبَ «ويليام» في سعادة:

- «أثناسيا»، اسمٌ قديم معناه «الخالدة».. أطال الربُّ عمرَك أمَّنا، وأبقاكِ لنا.

ابتسمتِ العرّافة، وربتتْ على يده في رفق، وقالت:

- وها قد طالَ العمر يا ولدي، وقد بِتُّ أنتظر الرحيل، فطوبَى للدنيا التي جعلت قلبي يُولي عنها، ويرجو النزوحَ إلى رحمة ربٍّ واسعة.

قال «ويليام»، في لهفةِ ابن بارٍّ:

– يشهدُ الربّ أني لا أطيق فراقَك، لذا أرجوكِ.. لا تكرّري ما قلتِ ثانيةً.

– ولا أنا أمّي، ربي يعلمُ كمْ أحبكِ، وأجدُ فيكِ حنانَ أمي الذي فقدته منذ طفولتي.

قالتها «هيلدا»، وحروفُها يقطرُ صدقًا.

أمّا «سامويل» فأخذَ يقرض أظافره، يتحرقُ إلى خوض العرّافة أجواء الحكاية مرة أخرى..

فسرعانَ ما عاد «ويليام»، ليسألها تارةً أخرى معًا، وعلاماتُ تعجّب ترتسمُ بذهنه:

– ولكنْ ماذا عن اسم «چبروتيا»؟!

– لا تتعجّل نهاية الحكاية.. سأطلعكم جميعًا على كلّ ما لا تعرفاه عنِّي!

– كُلّنا آذانٌ صاغية.

قالها الزوجان مُنشرحي الصدور.

سردتِ العرّافة ما حدث بينها وبينَ الصياد الشاب حتى أبدى والدها «فيكتور» رغبتَه في لقاء الصيادِ الشاب قريبًا.. بعد ما سمعَه من ابنته عن موقفه النبيل.

قفزَ الهِـرّ « أرنولد» فوق ظهر «ساموويل»، فغضب الولد، وقال للقطّ بلهجةٍ حادة:

– لقد قطعتَ على الجدّة «چبروتيا» حكايتها الجميلة، وقطعت عليَّ كذلك لذّة الاستماع، لِمَ تغضبني بمشاكستكَ.. أيها الشقي؟!

ضحكتِ العرّافة، والزوجان.. ثمّ سألت العرّافة «ويليام» في قلق:

– هل يعلمُ أيٌّ من الصيّادين أنّك الأمير «ويليام»، ووريثُ عرش مملكة قشتالة يا بُني؟!

– بكلّ تأكيدٍ لا.. أمَّنا العرَّافة.

– ولِمَ يا ولدي لم تخبرْ أحدًا بذلك؟! أوَ تخشَ «خوان»؟!

– لا يا أمي.. كلّ ما في الأمر، أني خِفتُ أنْ يهابني هؤلاء الصيادون البسطاء، أوْ يتجنّبونني، وكذلك التجار بالأسواق؛ فيعطونني ما لا أستحقّ بسيف الخوف والحياء؛ لذا آثرتُ أن أظلّ في نظرهم «ويليام» الصيّاد البسيط، الذي يعيشُ حياتهم، ويمرّ بذاتِ ظروفهم.

لمعت مقلتا العجوز الزرقاوان بمسحةٍ من الدموع، وقالت:

– أنتَ إنسان بحقّ.. بُني، كلّ يوم أكتشف فيك كنزًا من كنوز الرحمة والإنسانية؛ تفديكَ روحي وأسرتك.. «ويليام»، وإني عاهدت الرَّب أني بما أوتيتُ من أسبابٍ.. لا أدعَ غادرًا يمسّكَ بسوءٍ، والرَّبّ على ما عاهدتُه لأجلك شهيد.

انحنى «ويليام» من فَوْره ليُقبّلَ يديها، لكنها سرعان ما خبّأت كفّيها أسفل وشاحها، وهي تُمطره بفيضٍ مِن دعواتها، ودموعُها تجري- وكذلك «هيلدا»- فوقَ صفحتي خديهما.

وإذْ بصوت «ساموِيل» يأتيهم مُتذمّرًا مُتأففًا:

- دعكُم مِن هذا الحديث، متى تُكمل الجدةُ الحكاية! فقد نفد صبري، وما عدت أُطيق الانتظار بعد.

فتشُقّ ضحكاتُ الثلاثة جنباتِ الكوخ، وما حوله، على إثر مِقولة «ساموِيل»، فيستيقظ «روبرت» يفركُ عينيه لِيستَبِينَ وجوهَهم، ويملأ آذان الجميع بكاءُ الصغير «إيڤ»، وكأنما يقول لهم:

- كيفَ تضحكون هكذا؟ ألا تعلمون أنّ هناك رجلًا يريد أن يرتاح؟!

الفصلُ الرّابع

إنَّ الجنَّةَ تُنادينا!!!!!

غـــرنـــاطـــة.. العروس الــبـــهـــيَّـــة ١٤٥٠م

إنها غرناطةُ الأبية الشمَّاء، فقد سقطتْ أخواتها؛ الواحدةُ تلو الأخرى بين براثن الغزاة الطامعين، بينما بقيت وحدَها تصدّ هجمات المستعمرين، وتردّ عن حدودها الغزاة عبْر عقود متتابعة.

إنها عروسُ بلاد الأندلس..

الحسناءُ الفاتنة التي مافتئتْ ترفلُ في ثوبٍ نفيس، وتزهو بِـعطر يُذيب القلبَ عشقًا!

معمارٌ فريد، ومساجد عامرة تصدحُ بـنداءِ السماء للعابدين، ولهجِ الذاكرين آناء الليل، وأطراف النهار...

مآذِنُ شاهقة كما لو كانت تعانقُ السماءَ الصافيةَ في حُبّ جارف، وشوقٍ لا ينفكّ يربط بينهما بلا انقطاع، يضارع صفاءَ الحياة في كلّ جنباتها المترامية!

خيرٌ زاخر، وأناسٌ مُتراحمون!

بساتين وارفةُ الظلال، حدائقُ غنَّاء، قطوفها دانيةٌ للصغير والكبير، للفقير والميسور، للرائح والغادي..

بكلّ مكان حولك ترى طبيعةً خلابة، حدائقُ ذات بهجةٍ، تسرُّ الناظرين..

ينابيعُ، وجداول صافية، وأزهارٌ، وثمارٌ، ورياحين..

سوقٌ ذاااخرة بصنوف النّعم، وآلاء الرحمن..

أمانٌ، واطمئنان يملأ النفوس..

كلُّ مَن تقابل مِن ساكنيها تحسّ بأنه قريب لك، وحبيب؛ قدْ طال بك الاشتياق إليه! ترحابٌ، ومودّةٌ بادية جليّة كشمسِ النهار الصبوح!

رجالٌ أتقياء.. آباءٌ حكماء، وفتيةٌ بررَة، يُحلّون الحلال، ويُحرِّمون الحرام..

إناثٌ مُحتشماتٌ مستَتِرات؛ ما بين فتيات مُهذباتٍ، وأمهاتٌ فُضْليات..

أطفالٌ تلهو في براءة، وضحكاتٌ رقراقة تزيد جمالَ وجوههم الصغيرة!

تآزرُ وألفةٌ تجمع القلوبَ، السعادةُ ترفرف بأجنحتها فوق الجميع...

زفافُ إحدى الفتيات كزفافِ كلّ العَزْباوات، ورزقُ أسرةٍ بوليدٍ سرورٌ لجميع الأهل، والصحبِ، والجيران؛ لذا تخرج المدينة عنْ بَكْرةِ أبيها تُهنئ، وتحتفل بصاحب الحدثِ السعيد..

يا لهُ مِن مجتمع فريد شديد الخصوصية؛ كما لو كان تجسيدًا لفكرة «المدينة الفاضلة»، التي كان يحلمُ بها «أفلاطون» على أرضِ الواقع، بل وفاقت مدينة «أفلاطون» روعةً، وبهاءً!

طرازٌ معماري أبدعته أيدي فنانين بحقّ؛ بدايةً من القصور والمساجد إلى بيوت الأعيان، وكبار التّجار، و دور المناسبات!

نقوشٌ حُفرت فوق الجدران، والشُرفات، والأبواب، كلما اقْتربنا أكثرَ من تلك النقوش البديعة، وأمْعَنَّا النظر فيها، وجدنا أنفسَنا أمام لوحاتٍ فنيةٍ نادرة تنافس كلٌّ منها الأخرى وتتميزُ عن مثيلاتها بلمسةٍ جمالية ذاتِ طابع خاااااص.

قناديلُ تغتال ظلمةَ الليل، تضيىء دروبها، وما أكثرَ تلك القناديل الموقدة؛ التي تدلّ على أن خلف أبواب هذه البيوت؛ فتياتٌ يضاهي حُسنهنّ بدرَ الليالي القمراء، تلكُم الجميلات حافظاتُ كتاب الله عن ظهر قلب.

فلم يكنِ العثور على العروس التقيّة النقية المتفقّهة بالدين؛ بالأمر العسير!

لقد كاد سكانُ حواضر شبه جزيرة «إيبيريا»، أن يغبطوا أهلَ غرناطة على ما خصَّهم الخالقُ بِــكلّ هذا النعيم المُقيم؛ حيث البركة، وسعةُ الرزق في كلّ دربٍ، وزاويةٍ!

حاضرةٌ كريمة، يقصدُها المعدوم، فيعود ديارَه مُحمّلًا بوافر الخير، ويقصدها ذو المال، فيرجع وقدْ تضاعف المالُ بين يديه، وكأنّ لتلك المملكة الرائعة شعارًا فريدًا؛

(لا شقيّ، ولا محرومٌ بِـــغرناطة!).

إذن، لا بدّ مِن سَرّ يكمنُ بها، وقد غاب آنذاك عن بقية الحواضر، والممالك، ولذلك فقد تناقلتِ الحناجرُ، والألسنة تلكَ الأسئلة.. آلاف .. بل ملايين المرات:

ما الذي يجعل الخيرَ بتلك المملكة دونَ سواها بتلك الوفرة؟!

هل السرُّ في أرضها المعطاءة، وموقعِها الطيب؟!

أمْ يكمن السِّرُّ في نفوس أهلها، وسلوكياتهم الحياتية؟!

أم أنّ السرّ في حكّامها الورعين؟!

لا يملكُ الإجابةَ سوى الذي يُقيم بتلك المملكة حقبةُ من الزمن، حتى يستطيع أن يجمعَ خيوط الإجابة، وينسجها معًا؛ فيجد حلّ اللغز، يبدو أمام ناظريه جليًّا في هذا المبدأ؛

«العـدلُ أسـاسُ المُـلك»

حقًّا؛ متى عدَل الحاكم هنأتْ الرعيَّة، وبات الشعبُ ممتنًّا قريرَ العين، حيث ما مِن حاضر لا تُؤْمَنُ بوائقه، ولا مستقبل تُخْشَى عواقِبُه!

تلك هي «غرناطة»، شمسُ بلاد القوط.. ومقصدُ اللهفى، ومعين العطاء لَمن يطأ أرضها..

تلك هي «غرناطة»، الفاتنةُ المتمرّدة.. المُتمنّعة على المغتصبين..

فقد سقطتْ أخواتها.. حاضرةٌ تلو أخرى.. بينما ظلَّتْ تقاوم.. وتقاوم.. حتى غابتْ شمسُها عن أعين محبّيها، وأهلها بعدهُا بقرونٍ من الزمان!!!

***

- انظُرْ يا «ساموييل».. ومتِّع ناظريكَ.. أتَرى كيف هي مملكة «غرناطة» سااااحرة؟!

هل ترى ما أراه، أمْ نحنُ نشاهد حُلماً؟!

يَجول الصغير «ساموييل» بعينيه الزرقاوين الصافيَين بالأنحاء، فاغرًا فاه مشدوهًا.. دون أن ينطق بحرفٍ.. في حين يبتسم الصياد « آرميا» مُجيبًا:

- لا.. إن ما تراه حقيقة يا «ويليام»، ما أطيبَ تلك الأرض، ما جئت إليها إلا وعُدتُ لأولادي بكلّ خير، وها أنت قد أتيتَ معي اليوم، ورأيت حالها بأمّ عينيك؛ فاقصدها متى استطعت؛ ففيها كلّ ما تحتاجه أنت، وأسرتك!

ثمّ شرد «آرميا»، وهو يجول ببصره حوله مبهورًا:

- ليتني نزحتُ بِأسرتي إليها، وعشتُ برضابها الغنَّاء ما تبقّى من عمري بعيدًا عن أهوال الغابة التي نُقيمُ على أطرافها بِـ «قشتالة».

غمغم «ويليام»، والألمُ يعتصر قلبَه، مُعقِّبًا على كلام الصياد البائس:

- إنّني لا أقْوَى على مفارقة «قشتالة»؛ حيث يعيش أخي الأصغر «خوان الثاني»، مازال يراودني أملٌ في أنه سيرتدع، ويعودُ إلى رُشده عمّا قريب.

ثمّ أخذ يقول في نفسه.. في أسًى:

- كلّ البشر على تلك الحال، يحْدو بهم الحنينُ إلى بلادهم، رغم ما قدْ يلاقونه من شقاءٍ بها، وإنْ وجدوا الحياة الكريمة ببلادٍ أخرى.. ببساطة؛ إنّه الانتماء!!

فقدْ يكون الانتماء للأهل..

للذكرياتِ على تبايُنِها ما بينَ ذكرياتٍ مُفرحة، ومؤلمة..

حنين للأرضِ..

لرائحة النسيم..

للطقس..

لشقشقة الطيور..

وإن كانت تبدو واحدة للبعض، لكنها تختلف بكيفية تلقِّي الآذان لها، إلا أن أرضنا تشبهنا، حتى أننا نكتسب لون بشرتنا، وأفكارنا، وسلوكياتنا، وأحلامنا منها..

لكَزَ « آرميا »، «ويليامَ»، حتى أخرجه من خِضَم شروده، قائلًا له بصوت مرتفع:

- ماذا بك.. ويليام؟! ألا تسمعني يا رجل؟!

- لا.. لا شيء البتة «آرميا».

قال «آرميا» في جزعٍ:

- هل ناء بِك الحِمل؟! أصدقني القول.. هل تعبتَ لثقلِ ما تحمله عني؟!

كان «ويليام» يحملُ بضائعه، وبضائع «آرميا» كذلك، رحمةً بهذا الصياد المسكين ذي الذراع الواحدة.

وإذ بِـــ «ويليام» يردّ مُسرعًا:

- لا..لا.. لا أخي «آرميا»، بل يسعدني أن أحملَ عنك كل شيء، لا تقل ذلك مرةً أخرى، إنني رهنُ إشارتِك.

ثمّ مضى الرجلان يشقّان الطريق صوبَ سوق المملكة الثرية بالخيرات، بينما ترك «ويليام» زوجته، وولديْه بالكوخ برفقة العرَّافة بِـــ«قشتالة».

كان «آرميا» صيادًا مسكينًا.. يعول أسرةً كبيرة مكوّنة من زوجة، وستةٍ من الأطفال بذراعٍ واحدة.

فقد كان يقومُ منذ عام فائت بالتجوّل بالغابة بحثًا عن صيدٍ، ولكن لِـــحظِّه العاثر؛ هجم عليه فهدٌ كبير، وكاد أنْ يقضي عليه لولا أن كان «ويليام» على مقربةٍ منه، ولم يكن له بآرميا سابق معرفةٍ، وقد شقّت استغاثة

الرجل أرجاءَ الدُغل، فهرول «ويليام» نحو مصدر الصوت، واستلّ سهمًا، وأصاب الفهدَ الذي خرَّ صريعًا من فوره، ولكن بعد أن انتزعَ ذراع «آرميا» اليُمنى، وكاد جُرحه الغائر أن يُسمِّمَ جسده، وعكفَ «ويليام» على مداواته، ورعايته، والتكفّل بأسرته حتى تعافى تمامًا. ومنذ ذلك اليوم، و»ويليام» يرافقه بجميع جولاته بالغابة، و بأسواق الممالك المُجاورة، فلقد آلَ «ويليام» على نفسه أنْ يحمل عنه عبءَ كلّ شيء قد يعجز عن عمله.

كاتدرائية «قشتالة» الكبرى..

– لا.. لا تقف هكذا «نيكولاس»؛ لا بدّ وأن تطرق بابَ حجرة الكاردينال الآن، لا تكنْ جبانًا، اذهبْ، وأخبره بما حدث أثناء وجوده خارج الكاتدرائية.

وقفَ «نيكولاس» متردّدًا.. يهمسُ لنفسه بتلك الكلمات، ويبدو أنه قد عقدَ العزم على البوْح للكاردينال «موردخاي» بما رأى، وسمع.

بيدٍ مرتعشة طرقَ الباب، أتاه صوتُ «موردخاي»- الذي قد خَبِر صوتَ طرقاته المميزة- مُجيبًا:

– ادخل.. نيكولاس.

دخل الفتى، وأخذَ يحملق بوجْه الراهب تارة، ويُطرق برأسِه نحو الأرض تارةً أخرى دون أن يُعرب عن مُبتغاه.

– ماذا هناك.. بُني؟!

أخذ «نيكولاس» يعضّ شفتيه في توتّرٍ شديد، ثمّ قال مُتلعثمًا، والعرقُ يتصبّب من جبهته:

– سيدي الكاردينال.. أ.. أأأأ.. أأ..

– هل أنت بخير «نيكولاس»؟!

بينما ظلّ «نيكولاس» صامتًا.. وقد بدت رعشاتٌ متتالية تتناوبُ على جسده، فإذ بالكاردينال يقول في شفقةٍ:

– اجلس نيكولاس، واسترح حتى أعود بالطبيب!

– لا..لا.. لا تقلق سيادة الكاردينال؛ إني بخير، ولا حاجة لي بالطبيب، بل أ.. أ.. أحتاجُكَ أنتَ، ولا سواك.

– ها أنا ذا يا ولدي.. لِتَطْلُبُ ما تريد.

– معذرةً سيادة الكاردينال.. أريد أن تسمعني، وحسب.

– أسمعك.. بُني.. تكَلّم.

– الـــ.. الرااا.. الراهب «بليدي»!!

دبَّ القلقُ بقلب «موردخاي»، حين ذكر «نيكولاس» اسمَ الراهب «بليدي»، وأحسّ أن وراء نيكولاس أمرًا جسيمًا، ولكنَّه تمالك أعصابه، وقال بهدوءٍ:

– ماذا حدث «نيكولاس»؟ ماذا بالأسقف «بليدي»؟!

– لقد عنّفني سيادة الأسقف لخدمتي إيّاكم.. سيدي.

ابتسم «موردخاي»، وقال في حكمةٍ، وهو يُربتُ فوق كتف الفتى:

– لا عليك.. بني، أهذا جُلّ ما يزعجك؟!

– لا.. هناك ما هو أكثر، وأخطر .. سيدي الكاردينال؛ إإإ.. إإ.. إن سيادة الأسقف يريدُ...

– يريد ماذا.. بُني؟! أيريد منصبي، وغرفتي تلك.. أليس كذلك؟!

جحظتْ عينا «نيكولاس»، وقال في تعجّبٍ ملحوظ:

– كيف عرفت.. أبي «موردخاي»؟!

ابتسم الكاردينال في وجْه الفتى ليُطمئنه، وقال، وعلاماتُ الرضا تبدو على وجهه:

– وماذا يُضيرني في ذلك.. نيكولاس؟!

– كيف ذلك!؟ يريد الأسقف الهيمنةَ على منصبِك، ومكانِ خلوتكَ، ومكان تعبّدك.. ولا ضير؟!

– نعم.. نيكولاس، لا ضيْر .. أتعرف لِمَ؟!

حرّك «نيكولاس» رأسَه في تساؤل.. فعقَّبَ «موردخاي»:

– لا ضيْرَ يا بني على الإنسان الذي لا يرجو سوى رضا الرَّب؛ فالربُّ يحفظه ويرعاه، ولا خوف إلّا على هؤلاء الذين يبتغون المناصب، والألقاب دونَ سواها.

– ليرعاكَ الربّ سيدي الكاردينال، حضرتكم أحقّ القساوسة بهذا المنصب، فإني لم أعهدك إلّا أبًا صالحًا.. تزهدُ الدنيا، وزخرُفَها، وتتركها لمَن يريدها.

- اذهبِ الآن «نيكولاس».. دعني أصلِّي، عسى أن ينتزع الرَّبّ ما يجيشُ بصدر سيادة الأسقف، وأنْ يسلُلَ سخيمةَ قلبه.

ثمّ قال «موردخاي»:

ــ أبلغْ كافة القساوسة، والأساقفة، والكرادلة.. بضرورة الحضور صباحَ الغد بقاعة الاجتماع الكبرى للضرورة!

خرج «نيكولاس»، وهو أكثرُ قلقًا من ذي قبل!!

***

كاد رأس «نيكولاس» ينفجر؛ لاكتظاظه بعشراتِ الأسئلة التي لا يجدُ لها إجابةً شافية!

أبلغ الشاب رسالةَ الكاردينال لكلّ مَن رأى، والتقى من القساوسة، وانتوى أن يُبلغ الرسالة للبقية من غير الحاضرين بصباح غد، ثمّ عاد إلى «موردخاي» مرةً أخرى؛ ليتأكّد ممّا إذا كان يحتاج لأي خدمةٍ منه، قبل أن يخرجَ لإحضار بعض الأطعمة من سوق المملكة، أم لا.

فقدّم له بعضَ الطعام، ولكنه لاحظَ أن الراهب قد تناول القليل جدًّا منه، ثمّ تركه لأمرٍ ما يشغلُ ذهنه!

كما لاحظَ «نيكولاس» أنّ الكاردينال يضع يدَه فوق صدره طيلة الوقت..

ودَّ الفتى لو سأله عن السبب، ولكنّ صمت «موردخاي»، ووجومَه، جعلاه يتراجع عن سؤاله.

لذلك لم يُردِ الشاب إزعاجَ «مورخاي» بمزيدٍ من الأسئلة؛ بينما كادَ يُجنّ، فهو لم يبُحْ بما يثقل صدرَه للكاردينال، بيدَ أنه لم يستطع أن يعرف سببًا لِــوجومِه، وكذلك رغبته في عَقْدِ اجتماعٍ عاجل لجميع قساوسة المملكة!!

استأذن «نيكولاس»، ومضى حيث سيبتاع بعض الأطعمة، والشموع من أجل سيده الكاردينال.

***

مازال كلٌّ من «ويليام»، وابنه الأكبر»ساموِيل»، و»آرميا» بغرناطة.. يسيرون بأزقّةٍ ضيقة، ولكنها نظيفة للغاية.. هادئة.. ذات طرازٍ معماري شديدِ الخصوصية. وبوادرُ الإعجاب، والانبهار تبدو جليّةً على وجوههم، فقد وصلوا منذ قليلٍ إلى حيٍّ ذاخرٍ بِبعضِ حوانيت النساجين المبدعين، والصاغة الماهرين، كلّ ما يروْنه رائع، وساحر ، فسأل «ويليام» رفيقه الصياد قائلًا في دهشةٍ:

- أين نحن الآن.. آرميا؟!

ضحك «آرميا» مسرورًا لما يراه مِن شغف «ويليام»، وصغيره «ساموِيل» بغرناطة، وقال:

- نحن الآن في «حي الـبـيّـازيـن» يا صديقي.

- وما هو حُيُّ «البيازين».. آرميا؟!

- إنه أشهرُ أحياء، ومعالم «غرناطة» يا صاح. به يقطُن أثرياءُ تلك المملكة الساحرة، وبه أيضًا مُستقرّ حوانيت الحرفيّين، والصّنّاع المهرة.

ثمّ اجتذب «ويليام» من ساعدِه الأيمن، وقال:

- انظر هناك مليًّا.. «ويليام».

- وماذا هناك «آرميا»؟!

- أمْعِن نظرَك فقط، وقلْ ماذا ترى على مرمى بصرك؟!

انطلقتْ صيحةُ اندهاش عالية من حنجرة «ويليام»، وقال في صوتٍ يغشاه الذهول:

- هل هذه هي الجنّة.. آرميا؟!

ضحكَ «آرميا» حتى بانتْ نواجذه، ودمعت عيناه:

- وكيف عرفتَ أنّها الجنة يا صاح؟!

قال «ويليام» مُتلعثمًا:

- ولكن كيفَ أرى الجنة، وأنا لم أمُت بعدُ «آرميا»؟!

ثمّ التفت إلى ابنه «ساموئيل»، الذي كانت مُقلتاه متعلقتيْن بذاتِ الجهة حيث ينظر أبوه!

فسأله أبوه:

- «ساموﻳل»، أترى يا صغيري ما أرى؟! أمْ أنا قد فقدت عقلي؟!

ظلّ الصغير صامتًا، وعيناه تلمعان تعجّبًا، فسأله والده مرةً أخرى:

- «ساموﻳل»، ماذا ترى يا حبيبي؟!

قال الصغيرُ بحروفٍ متقطّعة:

- أ..ر..ى... الـــ..فـــــ..ر..دَ..و..س.. أبـــ..ي ي ي.

سأله « آرميا»، وهو يضحّكُ في سعادة:

- ماذا تقول.. ساموﻳل؟!!

- أجلْ يا عمّاه، إنها الفردوس، التي لطالما قصّتْ لي أمي عنها أجملَ الحكايات، وكم قالت لي كثيرًا... «إنّ الرَّبّ قد أوْجدها من أجل الصالحين»!!

هنا قال «آرميا»:

- صدَقْتما.

ولكنّ «ويليام» رمَقَهُ بنظرةٍ حائرة، فاستطردَ «آرميا» مُعلّلًا:

- نعم، إنها جنَّةٌ، ولكنْ ليست الفردوس، إنّها تسمى «جنّة العريف»، وهي مجموعة كبيرة من الحدائق السّاحرة التي تحوي داخلها مئاتِ «النوافير المائية»، وأشجار الفاكهة، وعيون الماء الجارية.

وجنّةُ العريف؛ يمكن لأي إنسانٍ بِغرناطة أنْ يراها من أيّ ناحية من أنحاء المملكة، فهي تُحيطُ بقصر «الحمراء» العريق، حيث مقر الحكم بغرناطة كما ترَيا.

صاح الصغيرُ هاتفًا:

- هيّا.. أبتِ، هيّا عمّاه.. أسرعاااااا!!

تساءل الرجلان في صوتٍ واحدٍ:

- إلى أين «ساموبل»؟!

صاح الصغيرُ بصوتٍ أكثر قوة، وترقرقَتْ ضحكتُه الرنانة تسحرُ الأسماع:

- إلى الفردوس..

إنّ الجنّةَ تُناديناااااااااااااااااااااااا.

الفصلُ الخامِس
مِرطُ زفافٍ ثمين!

وقف «ساموئيل» أمام سياج «جنّة العريف» مَشدوهًا، وقلبُه يرقصُ طربًا لذلك المشهد الخلّاب الذي يراه أمامه. مِن دونِ رويّةٍ.. أخذ يركض، و يركض بمحاذاة السياج، ثمّ يتوقّف برهةً لمطالعة العيون الجارية، والأطيار المُحلّقة بأجنحتها الملوّنة التي أبدعها الخالقُ في أبهى الصور، والنسيم العليل يلامس وجنتيْه، فتنتشي روحُه، ويضحك، ويقهقه باغتباطٍ نادرًا ما أحسّه من قبْل اليوم، طاف حول حدائق العريف، حديقة فأخرى، تحملُه قدماه الصغيرتان كجناحين يحلقان به، إلى حيث يمكنه اختلاس النظر من بين فتحات السياج الحديدي، إلى الجداول الجارية، و الينابيع الصافية، في سعادة غامرةٍ.

– كفي.. «ساموئيل»؛ لا بدّ أن نذهب الآن.

وبوجْهٍ عبوسٍ قال الصغير:

– لنمكثَ قليلًا.. أبي، لا تتعجّل.. أرجووووووك.

قال «آرميا» مُطمئنًا للطفل:

– أعدُكَ «ساموئيل» أنْ نعود جميعًا قريبًا، وتلهو قدرَ ما شئت.

عقَّب «ويليام» في حزم:

– هيّا «ساموِيل»، لا بدّ أن نمضي الآن، وإلّا تأخّرنا عن العودة لأمّك، وأخويك، فضلًا على أننا لا بُدّ وأنْ نمرَّ بسوق «غرناطة» قبل أن نعودَ إلى «قشتالة».

نكَّس «ساموِيل» رأسَه، وعيناه مغرورقتان بالدّموع، وقال بصوتٍ خفيضٍ:

– كما تريدُ يا أبي.

ومضى يجرّ قدميه الصغيرتين كما لو كان والدُه يسوقه إلى عقابٍ مرير.

مضى ثلاثتُهم، بينما حمل «ويليام» فوقَ كتفه بعض أمتعةِ صديقه، وأمسك بيدِه الجوالَ الكبير الذي كان يحوي بضائع «آرميا» كذلك، فيما يتأبط بالذراع الأخرى جوالًا آخر يحوي بضائعَه البائسة. حاول «آرميا»، جاهدًا، أنْ يحمل بضاعته لمسافةٍ ما، ولكنّ «ويليام» لم يوافقه مُطلقًا.

***

قطعتِ العرّافة مسافةً كبيرة حتى وصلتْ إلى صومعتها العتيقة..

كان ضوءُ النهار مازال متخلّلًا معظمَ جنبات الصومعة، صعدتْ حيث تريد أن تلقي بجسدها.

على مقربةٍ من مَهْجعها؛ توقّفتْ، وتسمَّرت قدماها، وأخذت أنفاسُها تتلاحق في اضطرابٍ شديدٍ، وعيناها مُعلّقتان بسطح الفراش، فربما رأتِ

الجرذَ المشاغب يرتعُ فوق فراشها بعد أنْ أتى على فُتات الخبز الذي كانت تدّخره لحين حاجتها إلى تناوله!

ولكنْ هل ينبغي لعرّافة «إيبريا» أنْ ترتعب من جرذٍ ضئيل؟!

يبدو أنّ ما وقعت عيناها عليه شيئًا بالغَ الخطورة بالفعل، عيناها مرتعبتان، أنفاسُها لاهثة مُتسارعة، شاخصة البصر، شاردة الذهن، فقد كان هناك ما أفزعها، حتى عجزت عن أنْ تفكّر فيما يتوجّب عليها أن تفعله حيالَ ذلك الموقف الشائك!!

جلستِ العرّافة حائرةً متأملةً ذلك الرابضَ فوق الفراش، تتساءل:

- ويْحك أيها المغتصب «خوان»، ألا يكفيكَ أنِ انتزعتَ العرش من أخيك الأكبر! بل، وأرسلتَ هذا الشيء، وغرسته بفراشي؛ كي ترهبني؟!

قالت ذلك، وهي تقتلعُ الخنجر اللامعَ ذا النّصل الحادّ، من وسط فراشها، وقد روّعتها صحيفةٌ من جلدٍ أُلقيتْ بجوار الخنجر - كُتبت بها كلماتٍ لم تكنْ قد كُتبت بِـلغةٍ معروفةٍ آنذاك، فقد بدتِ الرسالةُ وكأنها مجموعةٌ من الرموزِ والطلاسم، ولكنّ العرّافة قدِ استطاعت قراءتها، وفكّ طلسمِها في سهولةٍ ويُسر، وما أنِ انتهتْ من قراءتها، إذْ طوتْها، وقالت، وصوتها يقطرُ كمدًا، وحسرةً:

- أهكذا إذن.. أيّها الغادر؟!

تُرى ماذا ستفعلُ بأخيكَ، وأسرتِه بعد أن تفرغ مِن أمري؟!

أهَداكَ مُجونكَ إلى اغتيال أقربِ الناس إليك؟!

وماذا بعدُ يا «خوان».. أنت، وحاشية السوء؟!

متى سترتدعون؟!

مضتِ العرافةُ صوب البحر.. لعل بخاطرها أمرًا جللًا يستحقّ أن تخلو بنفسها لتفكّر به بعيدًا عن الناس..

لقد باغتها شعورٌ بالخوف الغامض على «ويليام»!

كان شعورًا مفاجئًا، ليس له مِن تفسير، أو مُقدمات..

جلست وحدَها فوق الرمال تتأمّل مياه البحر الزرقاء.. تسترجعُ ما كان قبل ما يزيد عن أربعة عقودٍ خلتْ..

تمنَّت لو لفظَ البحر الخِضمُّ أحشاءه، وظهر «ويليام سيلور»؛ الحبيب الغريق!

الذي يبدو أنّ البحر قد أحبَّه مثلها، فاستخلصه لعروسٍ مِن عرائسه، وخبّأه عن أعين تلك الإنسِيّة التي لم تعدْ «أثناسيا» إلى الأبد!

راحتْ تستعيدُ مشاهد لقاءاتها الضئيلة، وابتسامته التي تضاهي ابتسامة الشفق الرّائق..

فيما تغرقُ بذكرياتها، إذْ مزَّق بكاءُ شابٍّ بالجوار نياطَ قلبها.. فقدْ طالَ نشيجه.. وبوْحُه بمحبّة فتاة تُدعى، «بولخاريا»..

بدا مِن ملابسه أنه أحدُ شباب كتادرائية «قشتالة» الكبرى !

بصباح اليوم التالي، فزعتِ العرَّافةُ من نومها، كما لو كان هناك مَن أيقظها بقسوة، ثمّ جالتْ بعينيها الزرقاويْن بسقفِ الصومعة، وتنهّدت تنهيدةَ موجوعٍ لا يُرجى شفاؤه، وأرهفتْ السمعَ برهةً، كما لو كانتْ تُنصتُ إلى صوتٍ قد أتاها مِن وراء الحُجب، ثمّ أومأت برأسها، وقالت:

– إني بأمركِ حبيبتي.. «هيلدا»، أتنتظرينني؟!

إني آتيةٌ إليكِ، ولكنْ هناك أمرٌ لا بدّ من إنهائه الآن، لا تبكِي يا ابنتي، إنَّ دموعَكِ غالية عندي أيّتها الحبيبة الطاهرة.

باليوم الفائت.. حيث كان «ويليام»، و»آرميا»، والطفل «سامويل» بغرناطة..

- «آرميا».. انتظرْ من فضلك؛ إني أريدُ أن ألقي نظرةً على تلك الأقمشة.

- بالتأكيد «ويليام».. لتفعل ما تريدُ صديقي الوفي، ولكنْ هذا حانوتٌ لصناعة ثياب النساء، أنا أعرف صاحبَه جيدًا، وقد ابتعتُ منه ثوبًا لزوجتي قبل حادثتي السابقة بيومين فقط.

فقال «ويليام» مداعبًا، وهو يبتسم:

- إذن، هيّا «آرميا» لنلتقي صاحبَ الحانوت.. فأنتَ الآن، رجلُ المهام الصعبة يا صديقي.

ابتهج «آرميا»، وقال:

- هذا مِن دواعى سروري.. «ويلي».

أنزلَ «ويليام» حُمولَه أمامَ الحانوت، وطلبَ من «سامويل»، أنْ يبقَى إلى جوارها حتى يعودا إليه.

تفرّس الخيّاط- ذو الملامح الأوروبية، والسّمتِ العربي- في وجه «ويليام»، بينما تكدَّر وجهه عندما وقعتْ عيناه على ذراع «آرميا» المبتورة؛

فهبَّ واقفًا يدعوهما للجلوس، فقد كان «راجح» طلقَ اللّسان بعدّة لغاتٍ تسود بلاد القوط؛ كالقشتالية، والفرنسية، والإنجليزية، والبرتغالية، وغيرها، وقد أعربتْ نظراتُه عن الكثير من الأسئلة حولَ ما آلت إليه حالُ «آرميا»، ولكنه لم يجرؤ على السّؤال خشيةَ إحراجه، وتذكيره بحادثٍ أليم..

لاحظَ الخيَّاط وجودَ الطفل خارجَ حانوته، فدعاه إلى الدخول، والجلوس معهم، في حين دعا صبيّيْن يعملان لديه بحياكة الملابس، وأمرَ أحدَهما هامسًا:

- اذهب إلى زوجتي «أمّ عامر»، وقُل لها؛ أعدَّي أطيبَ ما لديكِ من طعام، فعندي اليوم ضيوفٌ قد أتَوْا من سفرٍ بعيد.. ولا تنسَ أن تقول لها أيضًا؛ استعيني بإحدى جاراتِك لطهي الطعام، فربما يُصرّ الرجلان على السّفر إلى حيث أتَوا بعدَ قليل.

جرى الفتى يسابقُ الريح إلى بيت سيِّده، وأبلغ زوجةَ الخيَّاط رسالةَ زوجها، فقامت من فوْرها، واستدعتْ جارتَها «مروج»، كي تنجزا المهمةَ بأسرع وقتٍ مُمكن، بينما أكّدت على الصبي أن يعودَ بعد وقتٍ قصير؛ لأخذ الطعام لزوجها، وضيوفه. بينما أرسل الخيّاطُ الصبيَّ الثاني لإحضار ثلاثة أقداحٍ من القهوة وكوبًا من الحليب المُحلّى من المقهى المجاور.

عاد الصبيَّان إلى الحانوت، وأحدُهما يحملُ المشروبات، ويضعُها فوق منضدةٍ أمامهم، وأعطى الخيَّاط كوبَ الحليب لـــ «ساموبل»، الذي لم يمدّ يده لأخذه إلّا بعد أن أومأ له والدُه برأسه إيماءةً تعني؛ أن خذِ الكوب.

كان يبدو للغاية كَمْ هو كريمٌ ذلك الخيَّاط، وقد تجاذبَ الرجال الأحاديثَ التي بدأها «آرميا» بتقديم «ويليام» لـــ «راجح» الخيّاط، مشيدًا بسموّ أخلاقه، ومعروفِه معه يومَ أنقذ حياته من موتٍ محقّقٍ مِن بين أنياب الفهد المفترس، وعكوفِه على علاجه، وتطبيبه حتى عاد إلى حياته مرةً أخرى، كما أبدى «ويليام» رغبتَه في أن يصمّم له الخيّاط عدّةَ أثواب راقية الذّوق، شريطةَ أنْ يصارحه بثمنها دونَ نقصان، فوقعت محبّة «ويليام» بقلب «راجح»، فقال له:

- لتأمرني، فتُطاع.. الحانوت، وصاحبُه بأمرك سيّد «ويليام».

- أريد عشرةَ أثوابٍ بألوانٍ مُختلفة، ومِن أجود الأقمشة لديك لامْرأةٍ شابّة، ومرطًا أبيضَ مِن أجلِ أمّي.. سيد «راجح».

تعجّبَ «آرميا» لطلب «ويليام»؛ حيث أنّ ثمنَ الأثواب العشر بالإضافة للمِرط، بكلّ تأكيد سيكون باهظَ التكلفة، و«ويليام» رجلٌ فقير، بالكاد يجدُ قوتَ يومه مثله تمامًا، لذلك تساءل «آرميا» في نفسه:

- تُرى مِن أين لك بثمنِ كلّ تلك الأثواب.. «ويليام»؟!!

حتى أنّ «راجح» نفسَه؛ قد رمقَ «ويليام» بنظرةٍ مُتساءلة عن سرّ ذلك الطلب، ولكنه لم ينطقْ بحرفٍ خشيةَ أنْ يظنّ «ويليام» أنه يقلّل من شأنه.

بينما سأله « آرميا « في سرعةٍ:

- أعلم أنّ لك زوجة.. ولكنْ لم أعلم بأنّ والدتك على قيْد الحياة «ويلي»، فمازلت أتذكّر أنك قلتَ لي يومًا إنّ كلا والديك قد فارقَ الحياة منذ عدّة أعوامٍ، فأين إذن أُمّك هذه التي تطلب لها مِرطًا؟!

وكيف لامْرأةٍ في عُمر أمّك أن ترتدي مِرطًا أبيض اللّون كثوب الزفاف؟!

لقد حيّرني أمرُك يا صاح!!!!

أتَى جوابُ «ويليام» ليزيد مِن حيرته:

- إنّ تلك الأثواب لــزوجتي.. والمِرطُ من أجلِ أمّي كما قلت لكما.

اعتلتِ الدهشةُ وجه «آرميا» تارةً أخرى، وكأنه يستكشفُ شخص «ويليام» للمرة الأولى، بينما اقتربَ أحدُ الصّبيان من أذنِ السيد «راجح»، يستأذنه بهمسٍ كي يسمح له للذهاب لإحضار الطعام، فأذِن له، وأرسلَ معه الصبي الآخر، وسرعان ما عادا، وهُما يحملان طاولة مُغطّاة بمفرشٍ نظيفٍ مُزركش بزهور طُبعتْ عليه بألوان زاهية.

رفع الخيَّاط الغطاءَ عن تلك الوليمة الشهيّة؛ فإذْ بها الدجاج، والأرز، والحساء، والخضرواتٍ مُنوّعة، وخبزًا طازجًا.

استشعرَ الرّجلان الحرجَ، وهَمَّا بالنهوض للّحاق بالسفينة النازحة إلى قشتالة، ولكنّ «راجح» أقسم عليهما بالجلوس، وتناولِ الطعام، وأبْدى لهما

أنّ تركهما للطعام بمثابةِ سُبّة لا تنسى، كما أنهما يريدان السفر، ولا بدّ مِن تناول الطعام حتى لا يُداهمهما الجوعُ أثناء سفريْهما؛ فنزلا على رغبته، وتناولا بعضَ الطعام.. وكذلك «ساموئيل» الذي أشادَ بمذاق الطعام الطيّب، وما أن انْتهوا مِن تناول الطعام؛ إذْ شكر الرجلان لهذا الرجلِ الكريم صنيعَه الطيب، ثمّ أدخل «ويليام» يدَه في جيبه، وأخرجها وهي تحوي صُرّة من العملات النقدية، وناولها للخيّاط قائلًا:

- تفضَّل.. سيد «راجح».

عبثَ وجهُ الرجل، وسأله غاضبًا:

- أتعطيني ثمنَ ضيافتكما.. سيد «ويليام»؟!

أهكذا تُعاملون الناسَ بمملكتكما؟!

لم أكنْ أتوقّع منك تلك الإهانة يا ضيفي العزيز!!

أسرع «آرميا» قائلًا:

- لا أظنّ أنّ هذا ما قصدَه أخي الحبيب «ويليام».. سيد «راجح».

قاطعه «ويليام» مُبتسمًا، وهو يقتربُ من «راجح»، ويُربتُ على كتفه:

- لا.. سيد «راجح»، لقد أسأتَ فهْمي.

رمقَ كلٌّ مِن الرجلين «ويليام» بنظرةٍ مُستفْسرة، فاسْتطرد قائلًا:

– سيد «راجح».. إنّ زوجتي عانتْ في الحياة معي كثيرًا دونَ شكوى، أو ضجرٍ، ومنذ عدّة سنوات لم أتمكّن مِن شراء ثوب جديدٍ لها، ولمّا رأيت تلك الأقمشةَ الزاهية؛ تذكّرت أنه قدْ آن الآوان كي أرُدّ لها جزءًا من حقّها عليّ، وهذا المال قدِ ادّخرته على مدار أكثر مِن عامين، خذْه ولتعتبره جزءًا من ثمن الأثواب، وكلّما عُدتُ إلى «غرناطة»؛ سأعْطيك بقيّة المبلغ، وتُعطيني أثوابَ زوجتي، ومِرطَ أمي.

هنا سأله «آرميا»:

– أتقول كلمة «أمّي» ثانيةً؟!

ألم تقلْ لي إنّ أمّك قد رحلتْ منذ سنواتٍ؟!

قال «ويليام» في رفق:

– يا صاحبي.. ليست الأمّ هي التي تحملُ ثمّ تُنجبُ فقط، بل الأمّ أيضًا هي التي تُربّي، وتُعلِّم الخير، وقد صدقتُكَ القول حين أخبرتُك بأنّ الأم التي أنجبتني قد رحلت، ولكنْ مازالت الأمُّ التي ربتني على قيْد الحياة .. أطال الرَّبُّ بقاءها إلى جواري.

تأمّل «راجح» وجْه «ويليام» بنظرةٍ ملؤها الإكْبار، واحتضنه وقال:

– أعِدْ نقودكَ إلى جيْبك يا رجل، ومتى أتَيتَ ستجدُ أثوابَ زوجتك يضاهون أثوابَ الأميرات جَمالًا، وروعة ، وكذلك مِرطُ والدتِك سيكونُ بأمر الله أرقى مِن ثيابِ أمّهات الملوك.

شردَ «ويليام» بُرهةً في بعضِ كلمات راجح؛ (الأميرات، وأمهات الملوك)، بينما صاح «ساموِيل» موجّهًا كلامَه للخيّاط:

– يا عمّاه .. إنّ أمّي أميرة، وابنة ملك.

اعترى الذُعرُ وجهَ «ويليام»، بينما سأله «آرميا»:

– هل هذا الكلامُ حقيقي «ويليام»؟! هل زوجتُك ابنة أحدِ الملوك؟! مَنْ يكون والدُها؟! ولماذا لم تخبرني بذلك مِن قبْل؟! وكيف لابنةِ ملكٍ أن تعيشَ كفقيراتِ «قشتالة» على طرف غابة؟! ألا تثقُ بي.. «ويليام» حتى تخفي عني ذلك الأمر؟!

بينما كان «راجح» يقف مَبهوتًا، مشْدوهًا مما سمعه للتوّ، ومثله مثل «آرميا» كان يتحرَّقُ لسماعِ إجابةٍ شافية من «ويليام»، عن كل تلك الأسئلة!!

ابتسم «ويليام»، وتلعثمَ مُضطربًا، ونظرَ للرجلين، وقال:

– إنّ طفلي يرى أُمَّه أميرةً ككثيرٍ من الأطفال الذين يعشقون أمهاتهم، ثمّ حدجَ «ساموِيل» بنظرةٍ معناها؛ اسكتْ، ولا تتفوّه بالمزيد، ثمّ أكمل إجابته:

ــ لا عليكما، أصدَّقْتما فكاهةً قالها غلامٌ بالسابعة من عمره؟!

وهل لو ما قاله كان صدقًا؛ فكيف تعيشُ أميرة على طرف غابةٍ موحشة؟!

ثمّ كيف لها أنْ توافق على الزواج من رجلٍ مُعدَمٍ مثلي؟!

هنا، اطمئنّ الرّجلان، وزالت حيرتُهما إلى حدٍّ كبير، بينما كانتْ مقلتا «آرميا» لازالتا تحملان مزيدًا مِن الرّيبة فيما قاله «ويليام».

ثمّ سأل الخيَّاطُ «ويليام»:

- ولكنْ كيف أعرف مقاسَ زوجتك، ووالدتِك؛ حتى تكونَ الأثواب مناسبةً لهما؟!

لم ينْتهِ الرجلُ من سؤاله؛ حتى أقبلتِ امرأةٌ تغطي وجهها بوشاحٍ ورديّ اللّون، تسلّلت منه ذؤابة كستنائية ناعمة.. بينما بالكادِ يمكن أن تُرى عيناها فقط؛ كانت تتبعُها امرأةٌ مكشوفة الوجْه سمراء البشرة، يبدو أنها خادمتها..

ما أنْ أقبلتْ تلك المرأة ذاتُ الهيبة، والطلعة البهية، والقامة الفارعة، إلّا وتنحّى الرجال الثلاثة جانبًا، وأفْسحوا لها الطريق حتى الأرفف المتراصّة بشتى أنواع الأقمشة. ثمّ ابتعد كلٌّ مِن «ويليام»، و»آرميا» قليلًا، وانزويا بجوار أحدِ جدران الحانوت؛ ليُفسحا المجالَ للمرأة لتطلب ما تريدُ من الخيَّاط.

أخذت السيدةُ تتطلّع في ألوان الأقمشة المتراصّة فوق الأرفف، وفوق الطاولات الممتدة بالحانوت. بينما تعرّف إليها «راجح» بسهولةٍ؛ لأنها قد ابتاعتْ منه الكثيرَ من الأقمشة، وصنعَ لها عشراتِ الأثواب من قبل، بيدَ أن خادمتها «مروج» تدلّ عليها؛ لذا قال للمرأةِ مُرحّبًا:

- مرحبًا سيدتي «العلياء».. أشرقتِ الأنوار، تفضلي سيّدتي بالجلوس، ولتُشيري فقط نحْوَ ما تريدين، فأجعلُه بين يديك بأمر الله تعالى.

أشارتِ المرأة إلى عدّة أنواع مِن أجود الأقمشة، وأغْلاها ثمنًا، وطلبتْ من الخيَّاط أنْ يحيكَ لها ثلاثةَ أثوابٍ جديدة، وأنْ يرسلها إليها فوْر الانتهاء منها.

جاء صوتُ الخيَّاط مُفعمًا بالتوْقير لها قائلًا:

- طلباتُك كلّها مُجابةٌ بأمر الله.. سيدتي «العلياء».

حدّثته قليلًا حول ما تريدُ مِن تصميمات لأثْوابها، ثمّ دارت على عقبيها ماضيةً في شموخ واعتزاز، تتبعها جاريتُها التي سرعان ما تركتها عند باب الحانوت، وعادت لتعطيَ الخيّاط بعضَ المال، فرفض أنْ يأخذه منها مُتعللًا بقوله:

- إنّ سيِّدك، زوج السيدة «العلياء»، لا يتأخّر في إرسال تكاليف حياكة الثياب التي تطلبها، بلْ ويدفع ما يزيدُ عنْ تكلفة الحياكة، ثمّ كما تعلمين يا «مروج»؛ أنني لا أتقاضَى أجرًا إلّا بعد أن أنتهي من حياكة الثياب، هذا مبدئي، ودَيْدني بعملي، فأخبري سيّدتك بألا تشغلَ خَلدَها بأمر النقود.

أومأت «مروج» موافقةً في حياء، وسرْعان ما هَرْولت تلك الخادمة الأمينة لأسْرة السيد «بهي الدين الصائغ»، والجارة الطيّبة للخياط، وزوجته؛ نحو سيّدتها، وتهامَسَتا، ثمّ ذهبتا.

وإذا بـــ «ويليام» يُقبلُ نحْو الخيَّاط، مُهرولًا بسعادةٍ غامرة، يقول:

– ها هُما!!

ملأت الحيرة «راجحًا»، فسأل:

– هُما مَنْ يا سيّد «ويليام»؟!

أوَ تعرف زوجةَ أشهر صائغٍ بغرناطة، وخادمتها؟!

– لا.. لا.. لا.. سيد «راجح»، ولكنهما، وكأنّهما هُما تمامًا، لولا وشاحًا يغطّي وجْه السيدة!!

جاءت إجابةُ «ويليام»، لا تغني، ولا تُسمنُ مِن جوع .. فسأله «آرميا»:

– كأنّهما مَنْ.. «ويليام»؟!

هنا، أدرك «راجح» مُرادَ «ويليام» ممّا قال؛ فابتسم، وقال، وهو يصوّب نظراتِه نحو وجْه «ويليام»:

– فهمتْ.. أنتَ تقصد أنّ قامةَ تلك السيدة «العلياء»، كقامةِ زوجتِك، وقامة خادمتها، كقامَةِ مربّيتك.. أليسَ كذلك؟!

تهلّلَ وجهُ «ويليام»، وقال:

– أجل، والربُّ لكأنّها زوجتي «هيلدا»، ولولا ذلك الوشاح الذي يغطّي وجْهها لَخِلتُها هي.. وتلك الخادمة، قامتُها كقامةِ أمي، أقصدُ مُربّيتي لولا أنّ الخادمة مُمتلئةُ الجسد قليلًا مقارنةً بأمي.

- فهمتُك سيد «ويليام»؛ لذلك سأصنع أثوابَ زوجتك كما لو كنتُ أصنعها لزوجة الصائغ تمامًا دون زيادةٍ في المقاس أو نُقصان. والمرطُ سأجعله كما لو كانَ لـــ «مروج»، أعني؛ لخادمة زوجة الصائغ.

ضحكَ «ويليام»، وأشادَ بسرعة بديهةِ الرّجل قائلًا:

- يا لكَ مِن ذكيّ لَمَّاح.. أيها الترزي المخضرم!!!

انطلقت قهقهاتُ الرّجال الثلاثة، بينما كان «ساموبل» يضع رأسَه فوق ذراع أريكةٍ بالحانوت وقد بدأ النومُ يداعب عينيْه الجميلتين؛ لذا فقد أيقظَه أبوه وودّع ثلاثتُهم الرجلَ، ومضوا صوبَ الشاطئ؛ للّحاق بالباخرة النازحة نحو «قشتالة»، وقد أقبلتِ الشمسُ كحبيبةٍ تشتاق لُقيا الغروب.

ولكنْ سرعان ما تذكّر «راجحُ» أمرًا.. فأرسل صوتَه مناديًا، «ويليام»:

- سيد «ويليام».. من فضلك لديَّ سؤال أخير.

- تفضَّل سيد «راجح»، سَلْ ما تريد.

بدتْ علاماتُ الاضطراب، والتوتر تظهرُ على وجه الرجل، فاستحثّه «ويليام» على الكلام، فسأل الرجل في صعوبةٍ:

- قلتَ لي إنّ مرط والدتك.. أقصد، مرطَ مُربّيتك أبيضُ اللّون.. أليس كذلك؟!

- بلى سيد «راجح»، وماذا في ذلك؟!

– لا شيء البتة، سيد «ويليام»، ولكننن!!

– ولكنْ ماذا؟! تكلّم أرجوك سيد «راجح».

سأل «راجح» على استحياءٍ:

– في الأغلب تكون أسمالُ الأمْهات، ذات ألوانٍ غائمة، فلماذا طلبتَ هذا المرطَ أبيض اللّون؟ فضلًا عن أنّك قد اخترتَ قماش المرط، من ذلك النوع الثّمين، الذي تُصنع منه أثوابُ الزّفاف للعرائس؟!

بدا «آرميا» مَذهولًا كذلك.. مُنتظرًا إجابة «ويليام» على أحرّ من الجمر، وتساءل في نفسه مُتعجبًا:

– نعم.. كيف لم يخطرْ ببالي هذا السؤال؟!

حقًّا مادام «ويليام» يقول إنّ تلك المرأة التي طلب مِن أجلها مرطًا، هي مربّيتُه.. إذًا فلا بدّ وأنّها امرأةٌ عجوز.. فلماذا يبتاعُ من أجلها قماشَ ثوبِ عرسٍ؟!

ثمّ سرْعان ما اسْتطرد، قائلًا في نفسه:

– يبدو أنّ وراءك مِن الألغاز والأُحْجية الكثير، والكثير .. «ويليام»!!

ظلّ «ويليام» صامتًا، وكأنّ على رأسِه الطير، لا يدري ماذا يقول، وبِمَ يُجيب الخيَّاط .. بعد.

فقال «راجح» في وجلٍ:

– أرجو المعذرةَ سيد «ويليام»، فعلى ما يبدو أنّي قد تدخّلتُ فيما لا يعنيني، وتسبّبت في إحْراجك مِن دون قصدٍ، فسامحني، واعتبرْ أنك لم تسمع أسئلتي بالمرّة.

ظلّ «ويليام» على حالِه بُرهةً قبل أن يقول:

– وحقّ الربّ.. ما منَعَني مِن إجابتك إلّا أنّني لا أملك حقّ الإجابة، ففي تلك الإجابة إفشاءُ سرٍّ لستُ بصاحبِه، ولا يحقّ لي أن أُدلي به. على كل حالٍ، سأكتفي بأن أقول لك:

– لا تجعلْه مِرطًا، بل ثوبَ زفافٍ نادر، وأبْدع في صناعته قدرَ استطاعتك كما لو لم يستطعْ إنسانٌ أن يصنع مثلَه من قبل، وسأعطيك ما تطلبُ بمشيئة الرَّب.

ثمّ استدار «ويليام»، وهمسَ في نفسه بحزنٍ:

– «لعلّ صاحبتَه ترتَديه لدقائق، فتشعرُ ببعض السعادة التي لم تختبرها حالَ شبابها، قبل أن تغادر!».

سادَ الصمتُ، وبدا كلٌّ من «آرميا» و«راجح» في حالٍ من الذهول والانْدهاش، لا تكادُ تنفكّ عنهما، حتى شقّ صوتُ «ويليام»، ستائرَ الصمت قائلًا:

– هيّا «آرميا».. هيّا «ساموِيل».. لقد أوشكتِ الباخرةُ على الإقلاع.. أسرعا.

ثمّ لوَّحَ «ويليام» لـــ «راجح»، وملء عينيه وعدٌ بلقاءٍ قريب بهذا المكان.

وبينما كانوا بطريقهم صوْبَ البحر، وقبل أنْ يغادروا ساحةَ السوق المزدحمة، إذْ ترجَّل «ويليام»، ورفيقُه لشراء بعض الفاكهة، وبينما يتوقّفان، إذْ تعلّقت عينا «ويليام» بحانوتٍ لبيع المشغولات الذهبيّة، والمجوهرات، وقال:

– ليت كان لديَّ وقتٌ كافٍ، كي أرى تلك المشغولات عنْ كَثبْ.

لم ينطقْ «آرميا» ولم يُعقِّب، فقد كانَ مشدوهًا من تصرّفات «ويليام» العجيبة بذلك اليوم، وعشراتُ الأسئلة تتصارع برأسه.

فلقد بدا «ويليام» له لغزًا كبيرًا، لا يستطيع أن يفكَّ رموزه، لذلك لاذَ بالصمتِ المطْبق، حتى وصلا حيثُ الباخرة المُبحِرة نحو «قشتالة».

أوشكتِ الشمسُ على المغيب بكبدِ السماء، وكلٌّ من «ويليام» و«آرميا» صامتان، شاردان، كُلٌّ غارقٌ بشأنِه وأعبائه التي تُثقلُ كاهله. بالإضافة لأسئلة «آرميا» التي تُحيِّره؛ حيث جلس يُحدّث نفسه:

– هل أنا مازلتُ أجْهل هويّة «ويليام» حتى الآن؟!

هل يتعمّد أن يُخفي عني حقيقتَه؟!

ومِن أين لِـ «ويليام» كلّ ذلك المال المدين للخيَّاط؟!

ومِن أين له كذلك المالُ الذي يمكنه أن يشتري به قطعةَ حُلي؟!

وإلّا، فلماذا كان يريد أنْ يرى حانوتَ الصائغ؟!

أسئلةٌ كثيرة لا أجدُ لها إجابة إلّا عند «ويليام» نفسه، فهل سيجيبني ذاتَ يومٍ إذا سألته؟! أمْ سيضيقُ بأسئلتي؟!

إني أحبّ «ويليام»، ولكنْ يبدو أنني لم أعرفه بعد!!

ثمّ أخذ يهوِّن على نفسه قائلًا في نفسه:

- إنّني أتوسّم في «ويليام» الخيرَ والصدق، ولعلّه سيأتي مِن تلقاء نفسه ليخبرني بما لا أعرفُه عنه.

سرْعان ما خيَّم الظلامُ فوق الباخرة، وخريرُ الماء يُزكي شرودَهما.

وقدْ ظلّ الصغير «ساموِيل» مُستيقظًا، بينما ألقى برأسِه فوق صدر أبيه، يراقب بناتِ السماء، وقد أخذْنَ يداعبنَه، ويرسلْنَ إليه قُبلاتهنّ الدافئة بالهواء؛ فيبتسم.

كان يرى هؤلاء الحوريّات تتسابقنَ نحْوه ضاحكات، تُمسكْنَ بزهورٍ يانعة، يربتْنَ فوقَ وجنتيه بأكُفِهنَّ الملْساء، حتى أنه كان يشعرُ بلمسات أنامِلِهن لوجْهه البريء، ويتنسّم عطورهُنّ الفوَّاحة، التي تملأ أنفَه الصغير.. أخذْنَ يُحلّقن فوقَ رأسه، يدغْدِغن أوصاله، فلمْ يستطعْ كتمَ ضحكاته، أخذ يضحك ويقهْقِه، ويقول:

- كفى.. كفى.. أيتها الفتيات، كفى، وإلّا شكوتكُنَّ لأبي!!

***

الفصلُ السّادس

الطَّلسَـــم!

ظنَّ «ويليام» أن الصغيرَ يرى حُلمًا جميلًا، فلم يُرد أن يُخرجه من هالة حُلمه، ولكنّه.. فوجئ بالصغير يقول:

– عُدنَ إلى السماء، كيف تتركونَ أباكم القمر وحيدًا هكذا؟ سيغضبُ منكِن لا مَحالة أيّتها الهاربات، ثمّ إنّ الفتيات المهذبات ينمْنَ مبكرًا، هيّا اخْلُدن إلى النوم الآن.

ثمّ عاد إلى ضحكاتهِ المَجلْجلة بسكون الليل.

هنا، سأل «آرميا»:

– ماذا بابْنك «ويليام»؟ هل رأى حلمًا،أمْ أصابته حُمّى، ويهذي على إثْرها؟! تحسّسْ جبينَه يا «وِيلي»؛ لنطمئنّ عليه!

فقال «ويليام» وهو يحاولُ إيقاظَ الصغير، مُربتًا فوقَ وجنتيه:

– «ساموِيل».. «ساموِيل».. ماذا بك يا ولدي؟ هل أنت تحلم؟!

إنَّ حرارةَ جسده عادية، علّه رأى حلمًا.. «آرميا»!

امتزج صوتُ الصغير بضحكةٍ رقراقةٍ رنّانة:

– أنا لستُ نائمًا يا أبي.

اقتربَ «آرميا» من الصغير، وسأله في توترٍ:

- لستَ نائمًا؟!

- نعم.. عمّي «آرميا»، أنا مُستيقظٌ كما ترى.

قالها «ساموِيل»، وهو يواصلُ ضحكاتِه المتلاحقة.

فسرْعان ما سأله والدُه بقلقٍ:

- إذن، لماذا تضحك؟! وإلى مَنْ تتحدّث.. بُني؟!

أجاب الصغيرُ موجّهًا حديثه إلى كلٍّ من والدِه وصاحبه، والبهجةُ تسكن حروفَه:

- إنّ بناتِ السماء قدْ أتينَ كي تلعبنَ معي، ألا ترياِنهما؟!

ها هُنّ تحلقنَ بالهواء، انظرا.. فهذه تقبّلني، وتلك تريدُ الإمساكَ بيدي كي أطيرَ معها، وهذه الأخرى تعبثُ بشعري، وتقول لي؛ أنتَ طفلٌ جميل.. «ساموِيل»، وإنّنا كلنا نحبّك، ونشكرك ملءَ قلوبنا. ألا تسْمَعا ما تقوله؟!

نهرَهُ «ويليام»، قائلًا:

- كفاكَ هُراءً «ساموِيل»، إنّ الكذب خطيئةٌ لا يحبّها الرَّبّ، فَكُفَّ عن الكذب!

بكى الصغير قائلًا:

– ولكنْ أنا أقول الصدق أبتِ. انظر أبي.. اسمع.. اسمع..

سأله «ويليام» غاضبًا:

– وماذا أسمعُ أيها المُخادع الصغير؟!

– إنهُنَّ يشكرنَني لأنّني ي ي ي ي....

قاطعه «آرميا» موجّهًا حديثه إلى «ويليام»:

– ارفقْ بالفتى يا صاح، فلعلّه يتخيّل، هذا حالُ الكثير من الأطفال، ومازال «ساموئيل» صغيرًا، فلا تُعنِّفه رجاءً.

غشَى النشيجُ صوتَ «ساموئيل»، بينما يقول:

– أنا لا أكذب يا أبي، انظرْ جيدًا لِـترى هؤلاء الفتيات، ها هُنّ هناك.

ثمّ أشار بيدِه الصغيرة نحو السماء، فلم يرَ «ويليام»، و«آرميا» سوى بعض النّجمات يُحطْنَ بالقمر، ويلمعْنَ وسطَ صفحة السّماء الحالكة.

حاولَ «ويليام» أنْ يبدوَ هادئًا؛ حتى لا يبكي الصغيرُ تارة أخرى، فقال في تؤدة:

– حبيبي «ساموئيل»، إنّ الذي تراه هو القمر مُحاطًا ببعض النجمات وحسب.

قال الصغيرُ بإصرارٍ، وتحدّ:

- نعم.. أبي.. إنني أرى القمر، ولكنّ اللواتي تحِطْن به ليستْ نجمات كما تقول، إنّهنّ فتياتٌ جميلات، يجلسنَ فوق مقاعدَ بيضاء ليِّنة ناعمة كفراء الأرانب.

حاول «ويليام» إقناعَه برفق، فقال:

- أيًّا كان ما تراه يا صغيري.. هل لك أنْ تنام الآن، ثمّ نتحدّث فيما بعد؟!

فوالدُكَ، وعمّك»آرميا» مُتعبان الآن.. فماذا قلت؟!

فقال الصغيرُ في وداعةٍ:

- أجل.. أبي، سأنام الآن.

وما أنْ ضمّه والده إلى صدْره ليدفئه، إلّا وقال الصغيرُ وهو ينظر نحْو السماء:

- ليلةٌ سعيدة أيّتها الفتيات، كفاكُنَّ لهوًا، وإزعاجًا لي وللقمر الجميل، ولتأْتُنَّ معنا إلى «قشتالة»، لأعرفَكُنّ بأخويّ «روبرت، وإيف» وهِرِّي اللطيف «أرنولد»، لا أنكُر أنكُنّ جميلات جدًّا، ولكنّ أمي أجملُ منكنّ، تعالينَ لزيارتنا، وسأعرّفكُنّ بها، ستحبّونها بكلّ تأكيد، فهي تُعدّ حساءً لذيذًا.

ثمّ أخرج لسانَه الصغير، ولعقَ به على شفتيْه المطبقتين، ثمّ صاح صيحةَ متلذّذٍ بمذاق طعامٍ شهي:

- يااااممميييييي.

انفجرت ضحكاتُ كلّ من «ويليام»، و«آرميا» مُجلجلةً،فأتاهما صوتُ أحدِ الرّكاب قائلًا، فيما يتململُ في نومه فوقَ ظهر الباخرة:

- كفى ضحكًا أيّها الرجلان، ولتُسكتا ذلك الصغير المشاغب؛ أريدُ أن أنام. فوضع كلٌّ منهما يدَه فوق فمِه، بينما ظلّا يضْحكان بصوتٍ خفيض حتى دمعتْ أعينهما، ثمّ خلدا إلى نوم عميق.

ومعَ انبثاق أشعّة الشمس الذهبية، كانت الباخرة قد رستْ على شاطئ «قشتالة».

تفرَّق جميع الرُّكاب، كُلّ يقصد وجهتَه التي يريدها، وعلى جناح الشّوق جاء «ويليام»، وصغيرُه للقاء أسرتهما.

وعلى مقربةٍ من الكوخ، أخذ الصغيرُ يصيح فرحًا:

- أمّي.. روبرت.. إيف، لقد عُدنااااااااا!

وضعتْ «هيلدا» الرضيعَ برفقٍ بجوار أخيه «روبرت»، وهرْولت لاستقبالهما مُتهلّلةَ الأسارير، وهي تحتضنُ «ساموئيل»، في حنوّ، وتقول:

- مَرحبًا بأحبابي، لا حرَمني الرَّبّ منكما.

ثمّ ألقت بنفسِها بين ذراعي «ويليام»، بعد أنْ حطَّ الجوال الكبير الذي كان يحملُه مِن فوق كاهلِه، قائلة:

– حمدًا لله على سلامتِك يا زوجي الحبيب.

اندفعَ «ساموِيل» يقول لأمّه في لهفةٍ:

– ليتَكِ سافرتِ معَنا، ورأيتِ ما رأينا.. أمّي!!

خشي «ويليام» أن يُفشي الصغيرُ أمرَ الأثواب الجديدة التي اتّفق عليها من أجلِها بغرناطة، فاستدارَ ناظرًا نحو «ساموِيل»، نظرةً مُحذّرة، فأدرك الصغير مُرادَ والده مِن تلك النظرة، فأراد أن يُطمئنَ والده أنه لنْ يتفوّه بكلمةٍ فيما يتعلّق بأمر ثيابِ أمّه، فالتفتَ يمينًا، ويسارًا حتى يتأكّد من عدم ملاحظة أمّه له، فلمّا وجد أمّه لا تراه؛ أخذ يعضّ على شفتيه، ويغمز بعينه لوالدِه.

فضحكَ «ويليام» على إثر ذلك، ولمّا سألته «هيلدا»:

– علامَ تضحك «ويلي»؟!

تلعثَمَ الزّوج، وقال بصوتٍ مُرتبكٍ، وهو يخفي ارتباكَه بابتسامةٍ رائقة:

– لا شيء حبيبتي.. إن «ساموِيل» بينما كنّا بالباخرة عائدين؛ أخذَ يهذي، ويقول إنّه قد رأى فتياتٍ جميلات يُحلقنَ بالهواء، وقال إنهنَّ قبّلنه، ولعبن معه، يبدو أنّ القصص الخيالية التي تحكينها له، قد جعلته واسعَ الخيال، يتوهّم أشياءً لا وجود لها.

ضحكتْ «هيلدا»، ونظرت نحو «ساموِيل» تسأله مُداعبة:

– أهكذا إذن يا سيد «ساموِيل».. لقدْ أصبحت لديك فتياتٌ مُعجبات من السماء.

زوى الصغيرُ بين حاجبيه، وقال في غضب:

– نعم أمّي.. إنّ كل ما قاله أبي صحيح، كمْ لعبن معي، وداعبْنني وأضحكْنني، كما شكرتْني كلُّ واحدةٍ منهن، ولكنّ أبي لم يصدّقني، وكذلك العمّ «آرميا»، لم يصدقني بِدوْرِه.

ثمّ سأل «ساموِيل» أمَّه قائلًا في وجلٍ هامسًا:

– هل لا تصدقينَني أنتِ أيضًا.. أمّي؟!

أجابتْ «هيلدا»، وابتسامةٌ صافية تزيد وجهَها نضارةً:

– يا حبيبي.. أنت قلتَ إنّ هؤلاء الفتيات كانت تحلقنَ بالهواء، ويداعبنك، أليسَ كذلك؟

– أجلْ يا أمي.

كان «ويليام» يتأمّل وجهَ أصغر أولاده؛ «إيڤ»، وهو يبتسم، ويقبّله في حنوّ حتى غلبه النومُ بجواره.. بينما حاولتِ الأمُّ اكتشافَ الحقيقة من وراء كلام «ساموِيل» في ذكاء.. فسألته، وهي تمسح بيدِها فوق شعره الحريري:

– كلّ ذلك معقول إلى حدٍّ ما، ولكنْ لماذا شكرْنكَ إذن؟!

هل أسديتَ لهُنَّ معروفًا حتى تكُنْ أهلًا لشكرهنّ لك؟!

رمقَها الصغيرُ بعينين غاضبتيْن، وقال بنبرةٍ قانطةٍ:

– يبدو أنّك لا تصدّقينَني أيضًا يا أمّي!

هدأتْ أمّه مِن روْعه، فجثت على ركبتيها، وضمّته إلى صدرها، وسألته بصوتٍ خفيضٍ:

- يا صغيري.. أعلمُ أنّك فتًى صالح، ولا تحب الكذب، أنا فقط أعني؛ ماذا فعلت أنتَ حتى تشكرك تلك الفتيات؟!

يعني شكرْنك على ماذا؟!

نظر الصغير في ريبة نحو والده النائم، ولم يتكلّم، فقد كان يخشى أن يسمعه والدُه فيعاقبه، إذا استرسلَ في الحديث في هذا الأمر، ولكن كانت «هيلدا» أُمًّا حكيمة، فقالت لــ «ساموئيل» هامسةً:

- لا تخفْ «سامو»، اهمسْ بأذني بما تريد قوله، ولن يسمعك والدك، فقد نام الآن، هيّا قُل لي؛ لماذا شكرْنكَ؟!

قال «ساموئيل» مرتعدًا:

- أستصَدّقينني؟!

- نعم.. سأصدقُكَ، تكلّم.

- إنّ إحدى هؤلاء الفتيات قالت لي؛ كلنا نشكرك لما ستقوم به.

ثمّ عادت أجمَلُهُن لتقول:

ــ نشكرك ملء قلوبنا، لِما ستقوم به من عنايةٍ بــرضيعٍ، وبامرأة كفيفة، وبــرجلٍ مَبتور الساق!!

انتفضَ قلب «هيلدا» رُعبًا، وسألته مجددًا بشفتين مرتعشتين:

- هل أنتَ مُتيقنٌ ممّا تقول.. «ساموئيل»؟!

تذكَّر جيدًا يا بني.. أرجووووووك!!

قال الفتى، وحمرةُ الغضب تغشى وجهَه الصغير، وبعض قطرات العرق تظهر على جبهته رغم طقس الصباح البارد:

- نعمْ يا أمي.. لقد قلْنَ لي، كلّهن؛

« نحن جميعًا نحبكَ يا «ساموئيل»، ونشكرك ملء قلوبنا، والرَّب يشكر لك ما ستقوم به»، ثمّ قالت لي الفتاة الأكثر جمالًا بينهنّ:

- «كلّنا نشكرك ملءقلوبنا، لِماستقوم به من عنايةٍ بــرضيعٍ، وامرأةٍ كفيفة، وبــرجلٍ مَبتورالساق!!

ثمّ قالت لي بعد ذلك:

- ولكن عليك أن تعطِ القلادة لوالدتكَ، قبل أن توليها ظهركَ، وتركض بعيدًا.. لا تنسَ.

انتابتْ جسدَ «هيلدا» قشعريرةٌ جارفة، وأخذ قلبها يخفق في سرعة شديدة، وتهدَّج صوتها، وهي تقول:

- اصعد إلى الفراش الآن يا صغيري بجوار أخويك، واسترح قليلًا حتى أُعِدُّ الطعام، فيبدو أنك مُنهك من تلك الرحلة.

أومأ الولد برأسه مُطيعًا، وخطا خطوتين نحو الفراش، ولكن أتاه نداءُ أمّه:

– ساموئيل.. ساموئيل.. انتظر!!

عاد الصغيرُ الى حيث أمّه، فقالت له:

– هل تحبّني.. «ساموئيل»؟!

ألقى الفتى بنفسه بين ذراعي أمّه، وقال:

– بالتأكيد.. أحبّكِ يا أمي.

فأمسكت بمِنْكبيه، وحدقت بوجهه، وقالت:

– إذن؛ لا تُخبر أحدًا بما أخبرتني به للتوّ!

– حتى.. أبي؟!

– حتى والدك.. «ساموئيل».

– أجلْ يا أمي.. لن أقول شيئًا.. اطمئني.

ثمّ صعد الصغيرُ فوق الفراش، ولمّا لم يجد مكانًا له بين والده، وأخويه؛ ألقى بجسده أسفلَ أقدامهم، ولكن سرعان ما تذكّر شيئًا فرفع رأسه قليلًا، وسأل أمّه التي كانت تخفي دموعَها عنه:

– أمي، متى ستأتي الجدّة «أثناسيا».. أقصد الجدة «چبروتيا»؛ كي تُكمل لنا بقيّة حكاية الصياد الوسيم؟!

اعترى «هيلدا» بعضُ الذهول؛ لأنّ ذاكرة «ساموبل» تبدو حاااااادّة للغاية، فالصبي مازال يتذكّر الاسم الحقيقى للعرَّافة، رغم أنه ذُكر بصورةٍ عابرة بِمضمار الحكاية، ورغم ذلك، فذاكرتُه مازالت تحتفظ بذلك الاسم جيدًا، وليس هذا وحسب؛ بل أنه قال اسم «أثناسيا»، ثمّ عاد، وتذكَّر أن العرّافة، كانت قد أخبرتهم أنها تُفضِّلُ دعوتها باسم «چبروتيا»؛ فقام «ساموبل» في الحال، بتعديل اسم العرّافة في سؤاله بتلقائيةٍ مدهشة. وإن دلّ ذلك على شيء؛ فهو دليلٌ على صدقه فيما روى من حديثٍ عن فتيات السماء اللواتي حدثْنه، وداعبْنه، وشكرنه على شيء مُبهم، لم تدرك مغزاه بعد، فلعل المستقبل القريب سيزيح غلالة الظلام عن وجه الحقيقة التي سبق أن سطّرتها مشيئة الرِّب في لوحٍ محفوظٍ!!

تجمّدت «هيلدا» حيث كانت جاثيةً على ركبتيْها، تجرى دموعُها مدرارة رغمًا عنها، فأخذت تدعو الرَّب، وتتوسّل إليه أن يسوق إليها الأم «چبروتيا»، فهي في أمسِّ الحاجة للحديث معها الآن.

وتساءلت في نفسها، وهي تبكي بارتعابٍ شديد:

- لا رضيعَ لدينا سوى «إيڤ»، فمنْ تكون المرأة التي سيُكَفّ بصرُها؟!

ومَنْ هو الرجل الذي ستُبترُ ساقه؟! هل أنا التي ستصبحَ عمياء؟!

وهل ستُبترَ ساق «ويليام»؟!

ثمّ رطنتْ، محاولةً طمأنة نفسِها قليلًا:

- ولكن ماذا لو كان «ساموريل» يكذب؟!

ثمّ سرعان ما تراجعت هامسة:

- لا.. لا.. لا.. إنّ ابني لا يكذب؛ بدليل أنه أعادَ قول ما سمعه من هؤلاء الحوريات أكثرَ من مرةٍ، وبنفس السياق، إذن، فلا بدّ أن يكون ما قاله قد وقع بالفعل أمام عينيه، كما أن حُجب الغيب كثيرًا ما تتكشّف أمام أعين الأطفال؛ لِنقاءِ أرواحهم، وبراءة سرائرهم!

ثمّ انتفض جسدُها، ونشجتْ، وناجت ربها متوسلةً:

- ربّ سُقْ إليَّ أمي العرَّافة، فما أحوجني لها الآن، استجبْ يا ربّ، آآآآآمين.

ثمّ مسحت دموعَها عن وجهها، وقالت:

- نعم.. حبيبي «ساموريل»؛ ستأتي جدّتك اليوم لا محالة، فقد وعدتني بذلك أمس.

ولمّا لم تسمعْ ردًّا من الصبي؛ استدارت لتجدَه وقد غطَّ في سُبات تام!!

فسارت نحوه، وقبَّلته وهي تهمس في شجنٍ:

- ربّ.. كُن رفيقًا به، وبنا، وهبْنا الرضا بما كتبته علينا.

***

منذُ زمنٍ بعيدٍ لم تطأ قدما «چبروتيا» كتادرائية «قشتالة» الكبرى، اليوم أقبلت لأمرٍ هام، ولكنها تردّدت في دخول الكنيسة، وإذا بأحدِ الشبان يتقدّم نحوها، ويسألها عمَّ يمكنه أنْ يساعدها به؟!

– سيدتي، هلّا أخبرتني كيف يمكنني مساعدتك؟!

توجّستْ منه خيفةً؛ خشيةَ أن يكون إحدى عيون الرّاهب «بليدي»، فسألته في قلقٍ:

– ومَنْ تكون أنتْ؟!

– اسمى «رافي» سيّدتي، أحدُ القُرّاء هنا، مَنْ تكونين؟!

– لا يهمّ ذلك الآن.. بني، هل تعرف سيادة الكاردينال «موردخاي»؟!

قال مُرحِّبًا:

– أجل سيدتي، ومَنْ لا يعرفه؟! تفضّلي بالدخول للقائه؛ فهو لا يمنعُ أحدًا من لقائه.

وقبل أن تُعقِّب العرَّافة على مقولته، جاءها صوتٌ مِن خلفها كانت قد سمعته مِن قبل؛ يسألها في حِدَّةٍ:

– وماذا تريدين مِن «موردخاي» أيّتها العرّافة؟!

لم تستدرْ لتراه؛ بل قالت، وهي ماتزال توليه ظهرها:

- هذا ليس مِن شأنك أيّها الراهب «بليدي».

جاء ردُّها له صادمًا، فاستشاط غضبًا، وقال هامسًا:

- يبدو أنكِ لم تنسِي صوتي بعْد، يا لَكِ من داهية!!

رغم صوتِه الخافت؛ إلّا أنها سمعت ما قال، فدارتْ على عقبيها، وحدجته بنظرة حادةٍ، وقالت:

- وكيف أنسى صوتَك، وقد توعّدتني قبل ثلاثةِ أعوامٍ مضتْ بالويل، والهوان؛ لأني قلتُ لكَ.. إنّ التاريخ لن يرحمك، وسيذُمّكَ الأخيار في كل زمان، ومكان!!

كيف أنسى صوتَ راهبٍ يدَّعي محبّة الرَّب، ويرسل مَنْ يتسلّل إلى داخل صومعتي، ويضعُ لي رسالة كتلك فوق فراشي، يريدُ بها إرهابي، وإخافتي؟!

قالت ذلك، وهي تُمسِك بالرسالة التي وجدتْها بجوار الخنجر فوق فراشها..

اعترتْهُ الرعشة، وتغيَّر وجهه، وجالَ بنظره حوله ليجد «رافي» مازال يقف أمامَها مَشدوهًا، فإذا بـــ «بليدي»، يزجره قائلًا:

- يا لَك مِن أحمق!! هيّا اغْرب عنْ وجهي الآن، لن أغفرَ لك ثرثرتك مع تلك العجوز.

بوجهٍ شاحبٍ، وبنبرة مرتجفة قال «رافي»:

– لم أثرثر سيدي الرّاهب «بِليدي»، أردّتُ مساعدة السيدة ليس إلا، فأرجو المعذرة.

دخل «رافي» الكتادرائية مُهرولًا، حتى غاب عن أنظار «بليدي»، الذي تنفس الصعداء، ثمّ حدجَ العرّافة بنظرة تحمل البغضاء، وقال مُهددًا:

– احذرى مِنِّي أيتها العجوز الحلجاء، لو علم «موردخاي» بأمر تلك الرسالة..

أتى صوتُها مُفعمًا بالتحدي:

– «بليدي».. أريد أن أخبركَ أمرًا لا تعرفه.

تجمّدت الدّماءُ في عروقه، ولم يقوَ على الكلام، فاستطردتْ قائلة في ثباتٍ عجيب:

– أنا لا أهابكَ بالمرّة، بل إنني لا أهاب ثلاثتَكم.

خرجتِ الكلماتُ من فمه بعد مُغالبة قصوى، وقال:

– ثلاثتنا!! ماذا تعنين أيتها العرّافة؟!

ابتسمتِ ابتسامةَ الظّافر، وقالت في هدوءٍ:

– نعم، ألستُم ثلاثة، ورابعكم الشيطان؟!

أنتَ، والملك، والزرادشتي المتعطّش دومًا للدّماء؟!

تلعْثم مُنكرًا:

– وما علاقتي أنا بالملك، إلّا أنني أحد أساقفة «قشتالة»؟ ثمّ إني لا أعرف زرادشتيًّا كما تدَّعين.

ثمّ اقترب منها، يريد أن يختطفَ الرسالة من بين يديها، ولكن سبقته يدٌ أخرى بالتقاطها، فبُهِتَ الراهب «بليدي»، وكاد أن يُغشى عليه من هوْل المفاجأة!!

بينما نظرت العرّافة، لتجد رجلًا ذا قامةٍ فارعة، وهيبةٍ بادية يُمسك بالرسالة ويفضَّها، ويهُمّ بقراءتها!!

لم يجِد الراهب «بليدي» بدًّا من الهرولة بعيدًا عنهما، حتى اختفى داخل الكتادرائية.

فقالت العرّافة في نفسها:

– إنّ «موردخاي» يستطيع مثلي قراءةَ تلك الرسالة، رغم ذلك ما كنتُ أريده أن يراها.. ولكنْ لا بدّ من استشارته بأمرها.

– أهكذا الأمر إذن «أثناسيا»؟!!

سألَ «موردخاي» ـ

– بل ادْعوني «چبروتيا».. «موردخاي».

رجاءً؛ انسَ اسم «أثناسيا»، فقد رحلَ مع الراحلين، ثمّ أنّي لم أكن أنتوي أنْ أُريك تلك الرسالة بعد، لقد جئتُ إلى هنا مِن أجل شيء آخر.

قالتها وهي تمدّ يدَها؛ تريد استعادةَ الرقعة.

– لكِ ذلك «چبروتيا»، ولكنْ ستبقَى تلك الرقعة معي.

قالها وهو يُبعِد الرسالة عن يدِها.

ثمّ استطردَ في قلقٍ وهمسٍ:

– لا بدّ أنْ ترحلي، لم يعدْ لكِ بقاءٌ بتلك المملكة بعدَ تلك الرسالة، إنّها تهديدٌ صريح، يريد مُرسِلُها أن نصمتَ للأبد، وإلّا قتل كلًّا منّا.

– وكيف نصمتُ عن حقّ لا بدّ من إعادته إلى نِصابه؟ إلى متى الصمتُ إذن يا كبيرَ الرّهبان؟!

– إلى أنْ يشأ الربّ سيّدتي الحكيمة، فلم يحِن بعدُ وقت إبلاج الحقائق، أرجوكِ تريّثي، وإلّا قدّمنا ابننا الحبيب «ويليام» قربانًا لظالمٍ لا يخشى الرّبّ.

خفقَ قلبُها وهَفَا خوفًا على «ويليام»، وقالت:

– صدقْتَ «موردخاي»، ليحفظه الرّبّ لنا، ولأسرته.. إنّي قد تُقتُ إليه، سأذهب الآن كي أراه.

ثمّ سألَتْه في قلق:

– ألَنْ تردَّ إليَّ الرقعة!؟

اقتضبَ جبينُه، وزوَى بين حاجبيه، وقال والأسى بادٍ على وجهه:

– ألا تثقينَ بي بعْد.. «چبروتيا»؟!

قالت مُرتبكةً:

– لم يكنْ سؤالي لعدم الثّقة بكَ يا راعي الكنيسة، ولكن كنتُ أريدُ.....

قاطعَها في يقين لا يُساوره شكّ:

– كُنتِ تُريدين مواجهةَ الملك بتلك الرسالة، أعلمُ ما يجول بخاطركِ، ولكن صدّقيني، تلك المواجهةُ مغامرة غيرُ محمودةِ العواقب، لنُرجئها للوقت المناسب، ولا تقْلقى؛ فتلك الرسالةُ لا بدّ مِن أن تبقَى معى على الآقل لفترةٍ ما، ولتعْلمي أني أريدُ حمايتكِ، ووريثَ العرش، وأسرتَه.

قالت، وإماراتُ الرّضا، والاطمئنان تسري بروحِها:

– أعلمُ مدى إخلاصك «موردخاي»، وكُلي ثقةٌ بك، الرَّبّ معك، ولكننن!!!!

– ولكنْ ماذا.. چبروتيا؟!!

– ضعْ فتَاكَ نُصبَ عينيك، يا راعي الكنيسة.

قال في حيرةٍ، وتوجّسٍ:

– فتاي! مَنْ تقصدين؟!

– خادمك الأمين «نيكولاس»، لتعتنِ به، ولا تجعلْه يغِب عن ناظريْكَ لحظةً واحدة.

زادَ ارتعابُ الكاردينال، وسرتْ البرودةُ بدماء جسدِه كلها، وسألها:

– «نيكولاس»؟!!

ولكن مِن أيْن لكِ أنْ تعرفينه؟!

ولماذا تذْكرينهُ هو بالتحديد دونَ غيره؟! هل مِن خطرٍ يحومُ حوله؟! أخبريني رجاءً؛ فهذا الفتى بمثابة ولدي، وأكثر..

أتاهما صوتُ «رافي»، بينما كان يهرولُ نحوهما، يقول:

- سيّدي فخامة الكاردينال، إنّ جميع الرُّهبان ينتظرون سيادتكم بقاعة الاجتماعات بالداخل، وقد أرسلني بعضُهم لدعوتكم لبدْء الاجتماع، لارتباطهم بعدّة مهمّات لا بدّ من أن يؤدّونها بعد انتهاء الاجتماع، مِن بعد إذنكم سيدي!!.

قالت العرَّافة، وهي ترمقُ وجهَ «رافي» بحنوّ:

- أشكرُك يا ولدي، لاستدعاء سيادةِ الكاردينال مِن أجلي بالوقت المناسب.

أومأ «رافي» برأسه، وقال مُبتسمًا:

- إني بأمرك.. أمَّاه.

ثمّ أشارَ راعي الكنيسة للفتى إشارةً تعني؛ اذهب الآن.

فمضى «رافي» إلى داخل الكنيسة على الفور.

همَّت العرّافةُ أنْ ترحل، ولكن تذكّرَت شيئًا، فتراجعت خطوة إلى حيث كانت تقفُ، وقالت لـ «موردخاي»:

– لا تنسَ أن تصطحبَ «نيكولاس» حيثما ذهبت، وليفعل الرَّبّ ما يشاء.

ثمّ مضتْ، والشوقُ يعزف على أوتار قلبها معزوفةَ حبّ أموميّ تليد، إلى كوخ «ويليام».

تركتِ العرّافة «موردخاى»، ورأسُه تدور فيما وراء تنبيهِها الغامض بشأن «نيكولاس»، بينما كانت تقودُه قدماه إلى صحن الكاتدرائية.

وقبلَ أن يصل «موردخاى» إلى بهْو قاعة الاجتماعات الفسيح؛ إذْ به يلمحُ «نيكولاس» يستوقف إحدى الرّاهبات الحديثاتِ العهد بالرّهبنة، وخدمة الكنيسة، فتوقّف ليستبينَ ما يحدثُ من كثب!

خجلتِ الفتاة، وطأطأت رأسَها لما رأتْ كبير الكهنة على مَقربةٍ منهما، بينما رآه «نيكولاس» مؤخّرًا، فقال لها في صوتٍ خاااافت:

– رجاءً «بولخاريا» لا تذهبي.. لحظات فقط، وسأعود إليكِ.

ثمّ هرْول الفتى نحو سيّده الكاردينال قائلًا:

– معذرةً أبانا الصالح.. إني بأمركم؛ هل مِن أمرٍ أُسْديه لكم؟!

بينما كان لا يقوَى على النّظر بوجْه كبير الرهبان؛ لخجَلِه من رؤيته له وهو يستوقفُ فتاته التي كان يحبّها، والتي أخبرَ الكاردينال بمدى ولعِه بها قبل أنْ يؤثر خدمة الكتادرائية عازفًا عنِ الزواج بها لظروفٍ خاصة به!!

تفحّص «موردخاي» وجْه الفتى، والقلقُ يسري بقلبِه عليه، فقال:

– «نيكولاس».. عُدْ إلى الفتاة، وقل ما كنتَ تريد قولَه.. فأنا أثقُ بك، ولم أُسئ بكّ الظنّ، فلا داعي لكلّ هذا الخجل مِنّي، ولكنْ رجاءً لا تتأخّر عن الاجتماع؛ الْحَق بي.

مال الفتى، وأمطرَ يدي الكاردينال بالقُبلات، بينما كان كبيرُ القساوسة يحاول سحبَ يديه مِن بين يدي الفتى، ثمّ عاد فنصبَ قامتَه، ونظر إلى وجْه سيّده، وقال:

– لا أدري لماذا أشتاقُ إلى معانقة جلالتِكم أبي «موردخاي»؟!!

مدَّ «موردخاي» ذراعيه نحْو الفتى، وضمّه إلى صدره، حتى أنه كان لا يريدُ أن يتركَه، ولكنْ جاء صوتُ أحد الشباب يقول في توقيرٍ بالغ:

– سيادة الكاردينال، جميعُ قساوسة «قشتالة» بانتظاركم، فماذا أقول لهم.. سيّدي؟!

ترك «موردخاي» فتَاهُ المخلص، ودلفَ إلى داخل القاعة الشاسعة؛ فما أن رآه الرّهبان؛ إلّا ووقفَ الجالس منهم، واعتدلَ القائمُ منهم في وقفته.

عاد «نيكولاس» إلى حيث تقفُ «بولخاريا»، وقال لها آسِفًا:

– «بولخاري».. أريد أن أءتمِنك على سري.

عاجَلتْه بسؤالها:

- أيّ سرّ يا «نيكولاس»؟! أتريد أنْ تترك الكتادرائية؟!

حرَّك الشابّ رأسَه نافيًا، وقال بعينيْن دامعتين:

- قد أتركُها مُضطرًّا بين ليلةٍ، و ضُحاها.

هلعتِ الفتاة، وعاودتْ سؤاله:

- كيف؟!

فقال ما عقدَ لسانَها، وأرجفَ فؤادَها:

- أحدُهم يتعقّبني، و يريد النيلَ مِنِّي.

فزعتْ قائلة:

- مَنْ هو؟ ولماذا يضمرُ لكَ الشرّ؟!

شحبَ وجهُه، وهو يقول:

- هو وافدٌ غريب، لم أرَه قبلَ أمس.. يبدو كقاتلٍ مأجور.. وجهُه كقطعِ الليل مُظلمًا.. عيناه تقدحُ لهبَ حقدٍ، كتنّورٍ مضطرم.. صوتُه باردٌ كالزّمهرير.. لقد اعتزمَ هذا الغريبُ قتلَ الأب «موردخاي»، و عرَّافة تُدْعى «چبروتيا».. هكذا سمعتُه يؤكّد للأسقف «بليدي».

كان «نيكولاس» يتلفّت حولّه في توجّس، بينما يُدلي بتلك الاعترافاتِ الخطرة..

ثمّ قال مُعقِّبًا بصوتٍ مُرتعش، و «بولخاريا»، ترهفُ السمعَ إليه في ارْتعابٍ تام:

– رأيته، وهو يدلفُ إلى غرفةِ الأب «موردخاي»، ولكني لا أظنّه قد خرجَ مِن الكنيسة.

– ماذاااا؟!

سألت «بولخاريا»، وقد أوشكتْ على الصراخ رُعبًا، ولكنها تكتّمتْ صرختها، وقالتها بصوتٍ مبحوح.

تابعَ «نيكولاس»، بينما يلتفتُ حوله مُرتعبًا:

– لقدْ رأيته بأمّ عيني بينما يدلُف والأسقفُ «بليدي»، إلى داخل غرفة سيادة الكاردينال.. ولم أرَه خارجًا من الكنيسة.. فربّما مازال مُختبئًا بمكانٍ ما هُنا؛ مِن أجلِ اغْتيال سيادة الكاردينال.

أكَّد «نيكولاس».. ثمّ قال، وقدِ انسابتْ دموعُه على وجهه:

– ولعلَّه سيبدأ اغتيالاتِه بي أنا.. ولعلّكِ لنْ تريني بعد الآن.

قالتْ «بولخاريا» في فزع:

– لا بدّ أن تُخبرَ سيادة الكاردينال فورًا حتى ينقذَك، ونفسَه، والسيدةَ «چبروتيا» التي ذكرتها.

قاطعَها «نيكولاس» بصوتٍ مُختنق من أثر الدموع:

– احْفظي سرّي هذا يا «بولخاري» رجاءً. وإذا نالَ مِنِّي ذلك القاتل؛ فلتُخْبري الأب «موردخاي» بكل شيء.

***

(باسْم زرادشت[1] العظيم؛ حلِّقِّي يا حمائمَ الموت فوقَ رأسِ السّاحرة الشمطاء..)!

مازالت تلك الكلمات- التي خطَّتها أيدٍ آثمة فوق الرقعةِ الجلديةِ التي وجدتها «چبروتيا» فوق فراشها العتيق- تتراءى أمامَ ناظريها، بينما كانت تسيرُ نحو كوخ «ويليام» وأسرته، والخواطرُ، والأسئلة تتصارعُ بخَلدها، لكنها لم تهتدِ لشيءٍ بعد.

ومازالَ ذلك الخنجر ذو النّصل اللامع بينَ يديها تدثّره خرقةً بالية تحملُها بين يديها.. ولكن لماذا لم تتخلّص منه؟! ولماذا تحملُه معها، وهي ذاهبةٌ لزيارة «ويليام» وأسرته؟!

يبدو أنها مازالت تسيحُ في خِضَمِّ أفكارها الغزيرة التي جعلتها لم تنتبِه إلى أنّ الخنجر مازال بين يديها، لعلّها خشيت أن يعودَ صاحبُ الخنجر، لاستعادتِه من صومعتها قبلَ أن تتيقّن مِن شخصه؛ لذا أخذتْه معها مِن الصومعة، وكذلك لم تكنْ لديها النيَّة في أنْ تُريَهُ لـ«مورِدخاي».. وقدْ فعلت.. ولم تخبرِ الكاردينال عنه شيئًا!

***

(١) زرادِشت: هو فيلسوف آسيوي إيراني ومؤسس الديانة الزرادشتية «المجوسية» وهي ديانة «عبدة النار»، وقد عاش في مناطق أذربيجان وكردستان وإيران الحالية، وظلت تعاليمُه وديانتُه هي المنتشرة في مناطق واسعة من وسط آسيا إلى موطنه الأصلي إيران حتى ظهور الإسلام.

عقب عودة «ويليام»، و «ساموبل» من غرناطة؛

تساقطتِ الثلوجُ بكثافةٍ حتى كَستْ وجهَ الأرض بردائها الأبيض الناصع، في حين قادتِ الخطواتُ «چبروتيا»- من دون وعي- حتى باتتْ على مَقربةٍ من كوخِ «ويليام»، اقتربتْ من شجرةِ التوت العتيقة المجاورة للكوخ، وقد رأتْ أنّه من الحكمةِ أنْ تقوم بالحفر بجوارها؛ كي تُخفي الخنجرَ حتى تنتهي من زيارة «ويليام»، وأسرتِه، فهي لا تريدُ أن يتسلّل القلق عليها إلى نفس «ويليام»، وزوجته في حالِ عِلمِهما بأمر الخنجر، وبأمرِ الرسالة الغامضة التي كانت تجاورها فوق فراشها.

وقبلَ أن تشرعَ في الحفر؛ إذِ انتبهتْ الى صوتِ مواء»أرنولد»، الهِرّ الصغير الذي خرج للتوّ مهرولًا، بينما تتبعُه «هيلدا».. تلك المرأةُ السابحة في خضمّ أفكارها؛ حيث كانت تسيرُ كالمسْحورة؛ لذلك لم ترَ العجوز؛ حيث كانت تبكي في نشيجٍ خافتٍ، وتقودُها خطواتها إلى حيث لا تدري هي، ولا تدري كذلك»چبروتيا».

تراجعتِ العرَّافة عن الحفر، وتبعتْ «هيلدا» مُعتمدةً على سياجٍ من الأشجار الباسقة، وهي تتساءل في دهشة:

- إلى أين تُرى يا «هيلدا»؟! منذ متى تخْرجين وحيدةً بالصباح هكذا؟! وكيف تسيرين نحْو قلب الغابة وحدَك؟! ألا تعلمينَ ما قدْ يلحقُ بك من أذًى؟! وأينَ «ويليام» الآن؟!

ثمّ استطردتْ، وعدّةُ أسئلة تتزاحمُ في رأسها:

– وماذا عنْ رضيعِك «إيـڤ»، فربما يبكي في غيابك!!

ثمّ نفتْ مُستنكرةً:

– لا أظنّ أنّ «ويليام» الرّقيق هو مَنْ أحزنَكِ، وأبْكاكِ.. صغيرتي؟!

ثمّ استطردت قائلة:

– الآنَ أدركتُ لماذا لاحَ لي وجهُك مغمورًا بالدّموع، عندما كنتُ بصومعتي؛ فأتيتُ مِن فوري إليكِ في تلك الساعة؛ لعلّك بحاجتي الآن.. حبيبتي.

ظلّت العجوزُ تتبعُ «هيلدا» التي كانت تسيرُ كالثّمِلة، حتى توقّفت أمام نبعٍ صافٍ، وطأطأت رأسَها، وأسندتْها إلى ركبتيها، وأجْهشت ببكاءٍ مريـر لوقتٍ امْتدّ حتى توسّطت الشمس صفحة السماء!!

تسمّرتْ قدما العرّافة خلفَ «هيلدا» مُتعجبةً لما تراه ولا تدركُ مغْزاه، حتى وجدتْ «هيلدا» تهبُّ واقفةً ترفع رأسَها نحو السماء قائلة:

– ربّاهُ.. أتوسّل إليك؛ سُقْ إليَّ أمي «چبروتيا»!

ثمّ قامت مُنهمرةَ الدموع، تقول:

– تفديكَ عيناي حبيبي الغالي «ويليام»، ربِّ إذا كانت مَشيئتُكَ أنْ تجعلني عمياء، فلا تجعل «ويليام» مَبتور الساق، ولا تجعلْ رضيعي «إيـڤ» يتيمًا، مازال «ساموِيل» صغيرًا على تحمُّل أمرِ رعايته، وتربيته من بعدي!

همستْ «چبروتيا» إلى نفسها، مُرتعبة:

- ياااااا لَهَوْل ما أسمع، وياااااا لعَجبِ ما أرى!!!

ثمّ تساءلتْ في نفسها:

- مِنْ أين أتتْ «هيلدا» بكلّ تلك التكهّنات يا تُرى؟! هل رأتْ بمنامها ما جعلَها على تلك الحال الغريبة؟! أمْ أن أحدَهم يحاول إيهامَها بخرافاتٍ، لا أساس لها من الصحّة؟!!

ظلّت «هيلدا» تسير، والعجوزُ تتبعها لهفةً للحديثِ معها، وللاطمئنان عليها، ولكن دونَ أن تشعرها بأنّها سمعت كلامها، ورأت دموعها.

لذا؛ رأتِ العرّافة أنه لا مَناصَ من أنْ تنتظر حتى توشكَ «هيلدا»، على الاقتراب مِن الكوخ، حتى لا تفزعَ عندما تراها بالقُرب منها، لذلك عندما اقتربتْ «هيلدا» من الكوخ، تظاهرتْ «چبروتيا» بأنها قد أتتْ للتوّ مِن طريقٍ موازية لتلك الطريق التي تسير فيها «هيلدا»، بل وتعمّدت أن تركلَ أوراق الأشجار الجافّة المتساقطة التي تغطي وجهَ الأرض أسفل طبقةٍ رقيقةٍ من الثلوج، وأن تحُكَّ سباطَها بالأرض قدْر استطاعتها لِـتُنبّهها إلى قدومها.

- الشكر للربّ، الشّكر للربّ!!!

لهِجتْ «هيلدا» بجزيل الشّكر للرَّبّ، ووجهُها تكسوه ابتسامتُها الغائصة في غزير الدموع.

ركضتْ نحو العرَّافة، وأقبلتْ عليها تعانقُها، وتقبّلها، ولسانها يجودُ بأطيب عبارات الشّكر لربِّها؛ لإرساله إيّاها في ذلك الوقتِ العصيب الذي تحتاج إليها فيه حااااااجة مااااسة!!

ثمّ قالت، وهي تمسح دموعَها بأطراف أكمامها:

- أمّي.. لشدَّ ما أحتاجُك!!!

هشّتِ العرّافةُ في وجْهها، وسألتها مُداعبة:

- أين كُنتِ.. صغيرتي؟!!

ارتبكتِ المرأةُ الجميلة، وتلعْثَمت:

- أنااااااا.......

قاطعتْها العرّافة مُطمئنةً:

- عيناك تقولُ الكثيرَ، وبقايا دمعِك، تُنبئ عن أمرٍ بالغ الأهمية، لتُفضِي إليَّ بما يؤرقك متى شئتِ.. اهدئــي الآن.

ثمّ ربتتْ «چبروتيا» على يديها في حنوّ..

أخذتْ «هيلدا» بيدِي العرّافة لتجلس معها بجوار البئر التي حفرَها «ويليام» منذُ قدومهما للإقامة على مشارف الغابة، افترشتا العشبَ الغضّ الرّطب، وما أن همّت «هيلدا» بالحديث:

- أمّي.. إنَّ....

إذْ تسلّل إلى سمعيْهما صوتُ «ويليام» يشقّ الآفاق، وهو يعدو متقطّع الأنفاس:

- هِـيـلـداااااااااااااااا، أين أنتِ؟! هِـيـلـدااااااااااااااااااا!!!

قامت «هيلدا»، وأخذتْ بيدي العرّافة، وصاحت وهي تمسحُ براحتيها على وجنتيها؛ لإخفاء أثر الدموع:

- إني هُنا بالجوار .. «ويليام»، بجوار البئر.

أخذتْ خطواتُه تقترب، وتقترب، حتى رأتْه بالكاد؛ لغشاوةٍ اعْترت مُقلتيها من أثر البكاء. ها هو قد باتَ قريبًا منهما، يعدو حاملًا صغيرَه «إيڤ» بين ذراعيه، وقد ابتلّ شعره المسترسل فوق جبهتِه عرقًا!!

- تماسكي، ودعي الأمرَ للربّ.

هكذا شدَّت العرَّافة مِن أزْرها..

أقبلَ «ويليام » لاهثًا، ناظرًا إلى وجْهِ زوجته، بينما كان الصغيرُ يبكي، ويلعقُ يديه مِن شدّة الجوع!!

حملتْ «هيلدا» صغيرَها مِن بين يديه تهدْهِده ليكُفّ عن الصراخ، فما أنْ ضمّته إلى صدرها؛ حتى هدأ تمامًا، بمجرد أن تعرَّف رائحةَ جسدها غطَّ في نومٍ عميق، بينما سألها «ويليام» في هلعٍ:

– كيفَ تخرجين وحدَك.. «هيلدا»؟! ألا تعلمينَ أنّ المكانَ غير آمِنٍ؟!

لم تجدْ ما تردّ به على سؤاله، فأسرعتِ العجوز تسأله مُعاتبة، مُنبسطةَ الأسارير:

– ألمْ أكنْ أهلًا لِأن تقل لي: عِمتِ صباحًا.. أمّي؟!

ابتسمَ لها ابتسامة ودٍّ زادت وجهَه إشراقًا، وقال في خجلٍ:

– أوووه.. أمّي.. مَعذرةً، فلم أتعمّد تجاهلَك، ولكني استفقتُ من النوم على صراخ «إيـڤ»، ولم أجدْ «هيلدا»، ولمّا ناديتها، ولم أجدْ منها إجابةً؛ كدتُ أجنّ، وقُمتُ من فوري، وألقيت بالغطاءِ على «ساموِيل، وروبرت»، ثمّ حملت الصغيرَ الباكي، وأحكمت إغلاق بابِ الكوخ، ثمّ هِمتُ أجوبُ أطرافَ الغابة بحثًا عنها، حتى ظننتُ أنّها عادت إلى الكوخ مرةً أخرى؛ لذا عُدتُ لأجدَ باب الكوخ على حالِه التي تركته عليها قبلَ قليل.

قاطعتْه العرّافة، وهي تنظرُ إلى وجه «هيلدا» نظرةً أدركتِ الشابة المليحة مَغزاها جيدًا؛ فوافتها بنظرةٍ مُماثلة، وكأنما كانتا تقولان لبعضهما البعض في آنٍ واحدٍ:

– اتّـفقنا.

ثمّ أدارتِ العرافةُ وجهها نحو «ويليام»، وقالت في ثقةٍ:

– أنا التي طلبتُ منها الخروجَ معي مِن الكوخ، والسيرَ معى حتى النّبع العذب القريب.. «ويليام».

– هكذا الأمرُ إذن.. أمّي؟! ولكنّ خوفي عليكِ ليس بأقلّ مِن خوفي على زوجتي، إنّي لا أتصوّر حياتي بِلاكُما، ليحفظْكُما الرَّبّ لي، ولأبنائي.

قالها «ويليام» وهو يتنفّس الصّعَداء، كما لو أزاحَ طودًا عظيمًا مِن فوق صدره، ثمّ وجَّه حديثَه إلى زوجتِه في رحمةٍ واضحة، وابتسامتُه الرقيقة تكسو ثنايا وجهِه الملائكيّ:

– «هيلدا».. ألنْ تفتحي الجوالق الذي أتيتُ به من غرناطة؟! ففي هذا الجِراب الكبير، قد تجدينَ شيئًا اشتهَتْه نفسُك؟!

نسيتِ الشابةُ حزنها، ونظرتْ نحو العرّافة في سعادة، ثمّ عادت تنظر إليه بمرحٍ؛ وتقول في لهفةٍ طفوليّةٍ بريئة:

– إممممم.. عنبٌ، أليس كذلك؟!

أجابَها على الفور، والسرورُ يتوّجُ مُحيّاه:

– نعم.. حبيبتي، هيّا إلى الكوخ مع أمّنا الحبيبة، وكُلا ما شئتما، أسرعا هيّا.

وما أنِ ابتعدَ عنهما خطوتيْن؛ إلّا وأسرعت العرَّافة تسألُه مُتعجبةً:

– أقُلتَ «غرناطة»؟!

عاد ليقفَ أمامها مباشرةً، ويسألها في هدوءٍ:

– نعم.. أمي «چبروتيا».. أوَ تعرفينها؟!!

- كيف لا أعرفُ عروسَ جزيرة «إيبريا».. «ويلي»؟! كيف لا أعرفُ آخر مَملكة طُفتُ بأنحائها برفقةِ أبي الحبيب؟!

تهلّل وجهُه، وسألها:

- وماذا تعرفينَ عنها؟!

كانت عينا «هيلدا» تتنقّلانِ بينهما في سعادة، وحبّ استطلاعٍ جلِي، بينما ضحكتِ العجوز مَسرورةٍ، وقالت:

- الأحرى بكَ أنْ تسألني عمّا لا أعرفه بها يا ولدي؛ إنّ ملامح تلك المملكة الساحرة مَحفورةٌ بذاكرتي رغم مرور أكثرَ مِن أربعةِ عقودٍ على آخر رحلاتي إليها.

رمقَها «ويليام» بنظرةِ إكبارٍ، وكأنه عثرَ على كنزٍ ثمين، ولسانُ حاله يقول:

- لتجمعنا أحاديث، وسوامرُ عنْ تلك الحاضرةِ الغنّاء.. أيتها الحكيمة الرائعة!!

مالَ قليلًا، وطبع قُبلةَ عرفانٍ فوق رأس مُربّيته الفريدة، ثمّ مضى في صمتٍ.

أوقفَه صوتُها، وهي تقول في قلقٍ:

- إلى أين.. يا بُني؟!

- سأتجوّل بالغابة قليلًا.. أمّي، ولتدعِي لي الرَّبّ؛ لعلّي أعودُ إليكما بصيدٍ جيد.

بينما كان يقولُ ذلك، كانت العرّافة تتأمّل كفَّيه في فزع:

- وأين هي عُدّة صيدك.. «ويلي»؟! ما لي أراك لا تحملُ حبلًا، ولا سهمًا؟! ألا تخشَ على حياتنا يا ولدي؟!

تعجَّب:

- حياتكم؟!!

أردفتْ تقولُ في عذوبةٍ:

- إنك كُلّ حياتنا، وكُلّ ما لنا بالحياة.. «ويلي».

قالتها، وهي تُلقي عليه دِثارًا من حُبٍّ أمُوميٍ صادق.

فزعتْ «هيلدا»، حيث أنْساها حزنها المستترُ أن تنتبِهَ إلى زوجها الأعزل، فأسرعتْ تقول في لهفة:

- أمّنا مُحقّة «ويليام»؛ لتعُدْ معنا، ولتحملْ عُدّة الصيد، أرجوك.

شخصَ ببصَرِه، لا يلوي على شيءٍ، ثمّ تنهَّد قائلًا:

- إني أخشى أنْ أعود لإحضار أحبالي، وأسهُمي، فيتعلّق بي «ساموئيل»، أو «روبرت»، ويصاب أحدُهما بوعكةٍ صحية جرَّاء ذاك البردِ القارص، فالولدان ينامان دافئان الآن، سَيبكِي أحدُهما - لا محالة - حتى يصاحبني.

لم تستطعْ كلماتهما أنْ تثنيه عمّا نوى، ودارَ على عقبيْه مُبتعدًا عنهما، حتى استوقفَه نداءُ «چبروتيا» للمرّة الثانية:

- «ويليام».. انتظر.

أخرجتْ لفافةً بالية من أحدِ أكمام مِرطِها الصوفي، ثمّ فضتها؛ لتجحَظَ عينا الزوجين عندما وقعتا على ذلك الخِنجر ذي النّصل اللامع، والحادّ للغاية، وما استرعى انتباهَهما أكثر؛ هو ذلك الطّلسم المحفورُ الحروف فوقَ مقبضِ الخنجر!!!

سرتْ رِعدةٌ طفيفةٌ بأوْصالهما، حتى أنّ «هيلدا» لم تستطعِ النّطقَ بحرفٍ وقتها، في حينَ رطنَ «ويليام» في توترٍ:

- ما هذا الخِنجرُ العجيب.. أمي «چبروتي»؟! فإني لم أرَ مثلَه قبل اليوم!!

الفصل السابع..

(خنجرٌ مفقود، وملكٌ مهزوم!).

❋غابة قشتالة..

لم يستطعْ «ويليام» وزوجتُه أن ينْبثا ببنتِ شفةٍ؛ وهُما يتأمّلان ذلك الطلسمَ الغامض الذي حُفرت كلماتُه بوضوحٍ، فوق مِقبضِ الخنجر، ظلّا صامتيْن حتى شقَّ «ويليام» حُجُبَ الصمت الصّلدة، يسألها:

- أيُعقلُ ألّا أستطيعَ قراءة ما هُو مَكتوب على ذلك الخنجر.. أمّي العرَّافة؟!

ثمّ استطرد مُستنكرًا:

- لقد تعلّمت الإنجليزية، والبرتغالية، والألمانية، والإيطالية، فضلًا عنْ لغتنا القشتالية، ولكني رُغم ذلك، لا أستطيع أنْ أتهجّى، أو أُفسر حروفَ تلك الكلمات مُطلقًا، فهل تستطيعينَ يا أمّي أن تقرأينها لنا؟!

لم تُجبْه العرّافة بالمرّة، وكأنها لم تسمعْ سؤاله من الأصل!

- ماذا بكِ.. أمي «چبروتيا»؟ ألا تسمعينني؟!

سألها «ويليام» في حيرة..

فكّرت برهةً، ثمّ انفرجت شفتاها ببطء، وقالت مُتلعثمةً:

- لا يهُمّ الآن.. «ويليام» معنى تلك الكلمات، المهمّ أنّ هذا الخنجر جاءك بالوقتِ المناسب، وأنه أصبحَ لك منذُ تلك اللحظة، فهاكَ هو...

ثمّ مدّت يدَها إليه بالخنجر، فتناولَه وهو يرجوها بقوله:

- أمّي.. بحقّ الرّب، اقرئي إنِ استطعتِ تلك الكلمات، فلنْ أذهب قبل أنْ أقف على معناها، بينما تسمّرت «هيلدا» في حالٍ مِن الدهشة الطاغية على ملامح وجْهها المليح!!

رمقتْهُما العجوزُ بعينين حائرتين، وأردفتْ تقرأ الكلماتِ المحفورةَ فوق مِقبض الخنجر، في نبرةٍ هادئةٍ باردة.. فاقت برودةَ الطقس حينئذ.. قائلة:

(أيْنما تُوَجِهُني؛ سأقتنصُ الهدف، وسأنالُ من فريستك)

هُنا، ارتجف فؤادُ الشابّة اليافعة، وتغيَّرَ وجهُ الصيّاد المحترف الذي طالما جابهَ الوحوشَ الضواري، وعمَّ الصمتُ تارةً أخرى، وشعرتْ «هيلدا»، بأنّ حزنها قد تجدّد، وعادَ ليجثم فوقَ صدرها ثانيةً، وقد لاحظتِ العرّافة ما آلَ إليه حالُها، فآثرتْ تغْيير دفةَ الحديث حتى لا يُسهبَ «ويليام» في الحديث، ويحاصرها بأسئلتِه؛ كيفَ، ومِن أين حصلتْ على الخِنجر؟ فَتُجيبه مُذعِنة!

فسألت في جديةٍ، وحِنكة:

- أمَا قلِقتُما على ولديكما؟!

فيما كان «ويليام» يتفرّس في وجْه «چبروتيا»؛ مُحاولًا اكْتشاف ما تُخفيه عنه، وتحملُه جُعبتها التي لم تخلُ يومًا من الأسرار والخفايا، وكانت هي كذلك تبادلُه النظرات، ولكنْ كانت عيناها تتابع عينيْه في كرٍّ، وفرٍّ مُتواصلين!!

نعم.. إنها تخشى فراستَه، وتخشى مِن قلبها الذي لا يقوى على إغضابه منها؛ لو أطال «ويليام» حصار عينيها قليلًا؛ لَصرَّحتْ له بكلّ ما تحاول إخفاءه عنه، فهو أحبّ الناس إليها، والذي لن تتوانى عنْ بذل حياتِها مِن أجله لو تَطَلَّب الأمر؛ إنّه ابنها، والذي يحملُ صفاتِ، وملامحَ حبّ عمرها الذي أفنتْ أزهى سنواتِ عمرها على أملِ لقائه بالعالم الآخر!

رغمَ إدراكه مقدارَه لديها؛ إلّا أنه لم يُرِدْ أن يُثقلُ عليها الآن، فودَّعها، وزوجتَه، وهو يقول:

- أمُّنا «چبروتيا» على صوابٍ «.. «هيلدا»، هيّا عودا إلى الولديْن، وسأوافيكما بعدَ قليل.

هامَ على وجهه، حاملًا ذلكَ الخنجر العجيب، لا ينفكّ يفكّر في تلك العبارة التي حُفرتْ عليه، والتي كان يردّدها صدى صوتِ العرَّافه على أذنيه!

صار صوتُ العرَّافة يعلو شيئًا فشيئًا حتى خُيّل إليه أنّ كلّ شيء حوله يردّد الكلمات ذاتها مع صوتها؛ الأشجارُ في أرضها، والأطيارُ في أعشاشها، والزواحفُ في جحورها، والأسماكُ في بحارها، والحيواناتُ في قُطعانها.. كان الكونُ بما فيه يردّد في صوتٍ واحدٍ هادرٍ :

(أينما تُوَجِّهُني؛ سأقتنصُ الهدفَ، وسأنالُ مِن فريستك)!!!

كان «ويليام»على يقينٍ بأنّ «چبروتيا»، لم يكنْ لها طاقةٌ مادية بشراءِ مثل ذلك الخِنجر الثّمين، وكذلك كانَ على يقينٍ في أنها تريدُ التخلص من ذلك الخنجر؛ فلعلّ مجرد رؤيته أمامَها يثير في نفسها أمرًا مُحزنًا، وإلّا لما أعطته إيّاه؛ لترتاح مِن ذكرى مؤلمة ترهقها!!

ظلّ «ويليام»، يسير على تلك الحال ما بين شرودِه وشحذِ عقله، يساورُه القلق؛ بل الخوف على تلك الأمّ الرحيمة التي كما عهدَها خلال ثلاثين ربيعًا خلتْ؛ تتحمّل الكثييير عن كلّ مَنْ حولها، تبكي وحدَها، تحملُ من الأسرار والمشاقّ ما تنوء به عواتقُ الرجال؛ حتى لقيَه «آرميا» الذي انْدفع نحوه فرحًا بلقائه، ثمّ واصل السير بجواره، وأخذ يرمقه في حيرةٍ بالغة، ويسأله بدهشة:

- «ويليام».. ما لكَ تسيرُ كالنّائم.. يا صاح؟!

ماذا ألَمَّ بك؟!

وما هذا الخنجرُ الجميل الذي تحمله؟!

متى اشتريتَه يا صديقي؟!!

ما لبثَ الرجلُ يُلاحق «ويليام» بأسئلته، حتى امتقعَ وجهه، وشهق شهقةً كادتْ تشقّ صدره، فسأله بارْتعابٍ:

- مِن أينَ لك بخنجرٍ صنعته يدا زرادشتي.. «ويليام»؟!

كان سؤالُ «آرميا» هذا، بمثابة دواء شافٍ، وسُمّ ناقع بالوقت نفسه لِلشابّ الحائر؛ فها هو «ويليام» يُمسك بطرفِ الخيط، الذي أعْياه البحثُ عنه، ولكن ها هو قد ولجَ في لغزٍ جديد، وكأنّه يسير داخلَ متاهة ما لها مِن نهاية؛ كلّما خرج مِن حجرةٍ، أفضتْ به إلى أخرى، ولا سبيلَ له بالخروج منها، ولو بذل الجهدَ الجاهِد!!

تنبَّه «ويليام» لذلك السؤال الغريب العجيب، وسأل «آرميا»:

- ومِن أين لك أنْ تعرفَ مَنْ صنعه؟!!

ابتسم «آرميا»، وقال متفكّهًا:

- فراسة يا صاح.. ليس إلّا!!

ثار «ويليام»، وقال ونبرةُ الغضبِ تطغَى على صوتِه:

- «آرميا».. كُفّ عن المزاح الآنَ وأجبْني؛ فلا طاقةَ لي الآن بالتندُّر!!

فطِن «آرميا» إلى أنّ خلف هذا الخنجر أمرٌ يؤرّق صاحبه، وقال بصوتٍ رزين:

- معذرةً.. «ويلي»، لم أقصدْ إثارة غضبك البتة، كلّ ما في الأمر يا صاحبي، أني أعرفُ القليل مِن الحروف مِن لغاتٍ شتّى، منها اللّغة الزرادشتية.

خشى «ويليام» أنْ يكون «آرميا» قد قرأ العبارةَ المحفورة على يدِ الخنجر، ووعاها ولمْ يخبره، فقال بقلقٍ:

– وهل تستطيعُ قراءة تلك العبارة كاملة.. «آرميا»؟!

– أنا.. أقرأها كاملةً؟ أتسخرُ مني يا صاح؟ أنا بالكاد أعرفُ بعض الحروف كما أخبرتك؛وعندما علّمني أبي بعضَ الحروف الزرادشتية؛ كنت ابنَ ستّ سنوات فقط، إن لم تخنِّي ذاكرتي.

رغم الجليدِ الذي كسا أرضَ الغابة، ورغم برودةِ الطقس، إلّا أن «ويليام» بدا وجهُه مُتعرّقًا، وذلك ما لاحظَه «آرميا»؛ فسأله في هلعٍ:

– أتجدُ وجعًا.. «ويليام»؟ استرح قليلًا، ثمّ نواصلُ المُضيّ قُدمًا فيما بعد.

جلسَ «ويليام» أمامَ بحيرة صغيرة، مُسندًا رأسَه إلى جذعِ شجرة، وجلس «آرميا» إلى جواره، وإذْ بـ «ويليام» يسحبُ الخنجر مِن بين يديه، ويرمي به بقوّة على مرمى بصره، ممّا دفع «آرميا» إلى أن يهُبَّ واقفًا، والغضبُ يحتلّه مِن رأسه حتى أخمص قدمِه، يقول في حنقٍ:

– كيف تُضيِّع مثلَ ذلك الخنجر الثمين هكذا.. «ويليام»؟! قُل لي بربك لماذا فعلتَ ذلك؟!

لم يتحرّك لِـ«ويليام» ساكنٌ، بينما زمَّ «آرميا» شفتيْه في حنق، وقال وعيناه تجوسان حولَه:

– تُرى أين أجدُ ذلك الخنجر مجدّدًا؟!

قال «ويليام» بصوتٍ هادئٍ عميق:

- انظر خلفكَ جيدًا على مدى بصرك، فثمّة أيلٌ أحمرُ ينتظرك!!

استدار «آرميا»، وأرسل عينيه عبرَ الغابة الفسيحة خلفه، وإذْ به يصيح في دهشةٍ عارمة:

- صدقتَ «ويليام»، إنه أيلٌ أحمرُ سمين،

يااااالها مِن غنيمة!

ويا لَكَ من صيّاد مُحنَّكٍ يا رجل!

ثمّ ركض مُتهلّل الأسارير نحْو الأيْل الذي يلفظُ أنفاسَه الأخيرة، يتبعُه «ويليام» بخطواتٍ هادئة. أجْهز «آرميا» على الأيْل، ونَحَرَه، ومالبث أنْ سأل بصوتٍ عالٍ يصاحبه ذهولٍ جمّ:

- إنّه أيلٌ يبلغ عشرَ سنوات.

سأله «ويليام» في تعجُّبٍ:

- وكيف عرفتَ عُمره.. «آرميا»؟!

ضحكَ الرجل، وقال في ثقَة:

- انظرْ إلى قرونِه «ويليام»؛ تجدها عشرةَ قرون متفرّعة، فكلّ عامٍ ينبتُ للأيْلِ قرنٌ جديد!.

ثمّ تابعَ «آرميا» حديثَه قائلًا، وهو يضحك:

– تعرف «ويلي»؟! أنا لو كنتُ أيْلًا؛ لكان لديَّ الآنَ ثلاثة وأربعون قرنًا!.. فحمدًا للرَّبّ أنّه لم يجعلني أيْلًا.. هههههه.

ابتسم «ويليام» في دهْشةٍ، ورمقَ «آرميا» بنظرةٍ ملؤها الإعجاب الجَمّ، هنا سأله «آرميا» في دهشةٍ واضحة:

– كيف فعلتَها يا صاح؟! كيف وجدَ الخنجر طريقَه إلى أسفلِ عنق الأيْل؛ حيث قضى عليه في الحال هكذا، ومنذُ الرّميةِ الأولى؟

يااا لَكَ من قنَّاصٍ ماهر.. «ويليام»!

مالَ «ويليام» إلى حيثُ يتمدّد الأيْل الصريع، وقال بابتسامةٍ شاحبة، وهو يَسحبُ الخنجر الملطّخ بالدّماء مِن بين يدي «آرميا»:

– إلى اللقاء «آرميا».

ارتفعَ صوتُ «آرميا» يقول:

– خذْ مِن الأيْل ما شئت؛ فأنتَ صائده «ويليام»!!

رمقَه «ويليام» بنظرةٍ هادئة، فعادَ «آرميا» يرجوه ثانيةً:

– رجاءً؛ لنتقاسمَ الصيد على الأقلّ «ويليام»!

قال «ويليام»، بينما كان يزيلُ آثارَ دماء الأيْل عنِ الخنجر بغمْره بماء البحيرةِ:

- هنيئًا مريئًا لكَ ولأسرتك، هذه الشاة.. «آرميا».

مضى «ويليام» تاركًا «آرميا» خلفَه في سعادةٍ غامرة بأيْلِهِ الرّائع. وقطع الطريق، يمخرُ عُبابَ التفكير في أمرِ الخنجر مُجدّدًا.

شيَّعه «آرميا» بنظرةِ امتنانٍ حتى اختفى صديقُه الوفي عن ناظريه.

لفحةُ هواءٍ باردٍ لامستْ وجهَ «ويليام»، وداعبتْ تلك خصلاتِ شعره الناعمة المنْسدلة على جانبي وجهه، انتشى لها، وتوقّف يطالع المكان، وحلَّق بعيني صيادٍ مُخضرمٍ بأغصان الأشجار العملاقة مِن حوله. ودونَ تفكيرٍ، ألقى بخِنجره إلى أعلى ليسقطَ أمام قدميه نمرٌ مهيب!!

لم تهوله المفاجأة، بقدْر ما هالهُ ما فَعله دونَ أدنى رغبة؛ فتلك المرّةُ الثانية خلال دقائق قليلة يرمي بالخنجر، فيُصيبُ قلبَ الفريسة؛ فتخِّرُ على أثْر رميَته تحتضر!!!

انتثرتْ بعضٌ من دماءِ النّمر على ملابس «ويليام»، ثمّ فاضت روحُ النّمر، والتقط «ويليام» أنفاسَه، واستلّ خنجرَه مِن قلب النّمر، وجلس الصيادُ أمامه جاثيًا على رُكبتيه يتأمّل الخنجرَ للحظاتٍ، وهو يمسحُ بيديه الدماءَ عنه، يسألُ في ذهولٍ كما لو كانَ أمامه رجلٌ يُخاطبه:

- ما سِرُّك أيها الخِنجر؟! أيُّ سِحرٍ يسكُنك؟! تُصيب القلبَ في مقتلٍ، فماذا وراءك يا تُرى؟! وماذا تُخفين عني.. يا عرَّافة «إيبريا»؟!

صراخٌ شديدٌ جعل «ويليام» يخِفُّ مُهرولًا نحْو مصدر الصوتِ، حتى تبيَّن أنّ المستغيثَ هو «آرميا»!!

لقد كان قطيعٌ مِن الذئاب يحيطُ بالصياد المسكين، يريدون النيّلَ منه، ومِن الأيْل الذّبيح، بينما يصرخ «آرميا» عسى أن يأتي أحدُهم لنجدتِه قبلَ أن يكون، وأيْلُه، فرائسَ للذئاب!!

انطلق «ويليام» نحْو الرجل مُصوبًا خنجرَه نحو الذّئب الأقرب من «آرميا»، ذلك الذي قد أوشكَ على الانقضاض على الصيّاد البائس!!

سقطَ الذئب الجسورُ في الحال، ترتعدُ قوائمه في نزعٍ لم يستمرّ طويلًا، ممّا جعل بقيّة القطيع يولّون الأدبار !

رقَّ «ويليام» للرجل، وذرفتْ عيناه، وهو يلومُ نفسَه في ندمٍ طاغٍ:

– ماذا دهاني حتى أتركَك وحدك «آرميا»! كيف فعلتُ ذلك؟! أين كان عقلي عندما ذهبتُ تاركًا إيّاك وحيدًا في ذلك المكان الموحِش، وبهذا الطقس البارد؟!!

يااال لي مِن أحمق!!!

ثمّ قال في نفسِه مُستاءً:

– إنه الخنجر .. لا غيره، هو الذي سلبَ عقلي عنوةً، فلم أرَ، أو أسمع، أو أتكلم منذ أنْ أخذته مِن أمّي «چبروتيا».

ثمّ احتضنَ «آرميا» في تراحمٍ، وَوُدّ صادق، مُعتذرًا منه:

- سامحني يا صاح.. أرجوووووووك.

جاءه صوتُ «آرميا» مرتعدًا:

- لا عليك «ويليام»، إني مَدينٌ لك بالكثير، فهذه هي المرّة الثانية التي تُنقِذني بها مِن حتفٍ مَحْتوم.

قاطعه «ويليام» في جزعٍ:

- لقد عاهدتُ الرَّبّ على أنْ أبقى إلى جوارِكَ، وألّا أتخلّى عنك مادُمتُ حيًّا «آرميا».

سالتْ دموعُ «آرميا»، وهو يتأوّه، ولم يعقّب، فسأله «ويليام» في شفقةٍ:

- بمَ تشعر «آرميا»؟!

أشار الرجلُ في وهنٍ بالغ بذراعِه الوحيدة نحو ظهْره، فقام صاحبُه على الفور ليرى ما يؤلمه؛ فإذْ بخَمَشاتٍ نافذة قد أصابتْه مِن مخالب أحدِ الذئاب، وقد حفرت بظهره خطوطًا غائرةً تنزف دماءً غزيرة!!

قطع «ويليام» قطعةً مِن قميصه، وأخذَ يمسح بها الدّمَ عن جروح «آرميا» الغائرة، ثمّ طَفِق يأخذ حِفناتٍ مِن الجليد، ويضعُها فوق جراحِه، قائلًا بشفقة:

- تحمَّل قليلًا يا صديقي، أعلمُ أنّها مؤلمة، ولكنْ لا بدّ منها لوقف النزيف!

ثمّ واصلَ بصوتٍ مُختنقٍ:

– لن أسامح نفسي أبدًا!

ثمّ وضعَ وجهَه بين كفّيه، وظلّ يبكي ندمًا، ويقول:

– أنا السبب.. أنا السبب!!!!!!!!

تحاملَ «آرميا» على نفسِه، واقترب من «ويليام» قائلًا:

– أنتَ السبب في ماذا «ويليام»؟! لقد أنقذتَ حياتي للمرّة الثانية، إنكَ أوفي مَنْ التقيتُ بعمري يا صديقي!

رفع «ويليام» وجهَه، ناظرًا إلى «آرميا»، يقول في جدّيّة:

– هيّا «آرميا»، لا بدّ أن نذهبَ الآن لأنّ رائحة الدماء ستجتذبُ الحيوانات المفترسة إلى هُنا ثانيةً.

هزَّ المُصاب المسكينُ رأسَه مُوافقًا. حمل «ويليام» الشاةَ فوق كتفه مُمسكًا إيّاها بإحدى يديه؛ حتى لا تسقطَ عنْ كاهله، ومدّ يدَه الأخرى إلى «آرميا»، وأخذ يرفعُه حتى وقف، ثمّ قال في تواضعٍ:

– ضعْ ذراعكَ فوق كتفي «آرميا»، استنِدْ عليَّ!!

أوصلَ الرجلَ إلى كوخه، في حين أخذتْ زوجتُه، وأولاده يصرخون صرخاتٍ تختلطُ بالبكاءِ والنشيجِ في فزعٍ، حين رأوا الدّماءَ على ملابسيْهما!! طمأنَهم «ويليام»، وأدخلَ صديقه الكوخَ، وساعدَه حتى استلقى على بطنه فوقَ فراشه، وأخذ يُطهّر جراحه بمساعدةِ زوجة «آرميا» ببعضِ الماء

الدافئ، ثمّ أخذ يُجهز الأيْل للطهي، فقام بِسلخِه، وتقطيعِه، وأوقدَ النار لِـ زوجةِ صاحبِه، حتى تُعدّ لزوجها، ولأبنائها الستة الطعام، وقام بِتقديدِ ما تبقّى مِن اللّحم؛ حتى لا يفسدَ ببقائه عدّة أيامٍ لديهم.

طالَ غيابُ «ويليام» على أسرته، حتى أوشكتِ الشمس على المغيب، وبينما قفلَ عائدًا إلى أسرته؛ إذْ بِـــصوتِ «آرميا» ينطلقُ مناديًا إيّاه، فيدخل «ويليام» الكوخَ حيث «آرميا» ليصعقه سؤاله:

- أينَ خِنجرُك «ويليام»؟! أخشى أنْ تكون فقدتَه فتقطعَ الغابةَ أعزلَ بين المخاطر بحثًا عنه!

هالَهُ سؤال صديقِه المُباغت؛ فهو بالفعل لم يكنْ يدري أين ذهبَ ذلك الخنجر، لعلّه سقط في غفلةٍ منه بينما كان يحملُ الأيْل، ويُعينُ «آرميا»، على المُضي قُدُمًا حتى كوخه، يتساءل في نفسه، ويزُمّ شفتيه في حيرةٍ:

- أيــن ذهبَ ذلك الخنجر اللّعين؟!

ولكنْ سُرعان ما تظاهر» ويليام» بعدمِ القلق؛ مُراعاةً لحال صديقه، وقال في بساطةٍ:

- لا تقلق عليَّ يا صاح، سأعود للاطمئنان عليْك بالصباح الباكر، طابتْ ليلتُك.

***

بعد ذهاب «ويليام» إلى الغابة صباحًا ..

جلست العرَّافة و»هيلدا» فوق بِساطٍ مُمزقٍ من القش؛ تتبادلان النظرات، وتحملُ العيون ما تعجزُ ألسنتُهما عن الإفصاحِ عنه.. حتى حين!!

– ها نحن عُدنا للكوخ، وها هُم «ساموِيل، وروبرت» ينعَمان بنومٍ هادئ، وها أنتِ قد أرضعتِ صغيرَكِ حتى نام مُطمئنًا؛ أمَا آن الأوان أنْ تخبريني ماذا بك.. «هيلدا»؟!

وما أنْ تحرّكت شفتاها بالإجابة؛ حتى نهضَ «ساموِيل» جالسًا في مكانه، فوق الفراش، يصرخ فزِعًا:

– أنتُنّ ثانيةً.. أيتها المشاغبات؟! أنا لا أريدُ اللّعب معكُنَّ الآن، دعوني أنام، ما كان ينبغي لي أنْ أدعوكُنَّ لزيارة كوخنا الهادئ!

امتقعَ وجْه أمّه، وهي تراه على تلك الحال، ومالتْ شفتاها إلى الزّرقة، وجحظتْ عيناها، بينما لم تتأثّر العرَّافة بما يحدث، بل إنّ كلّ ما طرأ عليها أنْ تعلّقت عيناها بسقفِ الكوخ، حيث ينظر الصبيّ تمامًا، وسألتْ في هدوءٍ:

– أنتُنّ إذن!! ما الذي جاء بِكنَّ إلى هنا يا تُرى؟! لعلّه أمرٌ جدّ هام؟!!

كلّ ذلك يحدث على مسمعٍ ومرأى من «هيلدا»، وهي تجلس مشدوووهةً مرتعبةً لا تقوى على الكلام، كانت كمَنَ أصابها بُكمٌ مفاجِئ!

تحرّكتْ رأس العجوز قليلًا، كما لو كانت تُنصتُ لصوتٍ مِن وراء الحُجُبِ، ثمّ قالت بعد بُرهة:

– فهمتُ الآن.. اذهبنَ في الحال، واتركنَ «ساموئيل» لينام؛ ولحَديثنا بقية فيما بعد!

لمْ تمضِ لحظةٌ واحدةٌ؛ إلّا وتراخى جسدُ الفتى، وتمدّد في فراشه مُغمَض العينين، مُستسلمًا لسُباته العميق!

التفتتْ العجوزُ إلى «هيلدا» التي كانت تجلسُ أمامَها، قائلة:

– أحالُ «ساموئيل» هو ما يؤرّقك يا ابنتي؟!

ولكنّ «هيلدا» كانت حاضرةَ الجسد.. مسلوبةَ اللّب.. لا ترُدّ.. تحملِقُ في وجْه العجوز وحسب!

واصلتِ العرَّافة حديثَها في تؤدةٍ:

– ولدُك بخير؛ اطمئنّي.. أهذا ما أبكاكِ حتى تقرَّحَ جفناكِ؟!!!

لم تقوَ « الأمّ الشابة» على الردّ، وانفجرتْ باكية!!

اقتربتْ منها العرّافة، وضمّتها إلى صدرها.. وأخذتْ تُربتُ برفقٍ فوقَ ظهرها، و تسألها في حنوّ:

– ألم تخبريني ماذا يقلقُكِ قبل أن يأتي «ويليام»؟!

رفعتْ «هيلدا» رأسَها في بطءٍ، وأشارتْ بسبّابةٍ مُرتعشة نحوَ ولدها «ساموِيل»!!

– لا تقْلقي.. صغيرتي، قلتُ لكِ؛ ولدُك بخير.. الرَّبّ حافِظُه لكِ!

طمْأنتها العرّافة..

سألتْها «هيلدا» مُتعثّرةَ الكلام في فزعٍ:

– أمّي.. إنّ «ساموِيل» يقول إنّ فتياتٍ مِن السماء قدْ شكرْنَه لأنّه...

– لأنّه ماذا.. حبيبتي؟! ألأنّهُ سيرعَى مَبتورَ ساقٍ، وكفيفةً، ورضيعًا، أليسَ كذلك؟!

امْتقعَ وجهُ «هيلدا»، وانتابتْ جسدَها رعشةٌ قويّة، وحرّكت رأسَها مُجيبةً، فقالتِ العرَّافة بابتسامةٍ مُطمئِنةٍ:

– اطمئنّي.. حبيبتي؛ لستِ أنتِ تلك الكفيفة التي ذكَرها، وليس «ويليام» هو مَبتورَ السّاق.. ألا يكفيكِ أني لا أكذبُك القول؟!

تهلّلَ وجهُ «هيلدا»، ولكنْ سرعان ماعادتْ عيناها تمتلئُ بالدّموع، تسألُ في ارتعابٍ:

– والرّضيع؟! أليسَ هو «إيڤ».. هو يا عرّافة إيبريا.. أليسَ كذلك؟! أرجوكِ تكلّمي!!

اغْتمَّ وجْهُ العرّافة، وشرعتْ في النهوض تريدُ الخروج مِن الكوخ، فتعلّقت «هيلدا» بطرفِ مِرطها، تبكي مُتوسّلةً:

- أرجووووكِ.. أمي، سامحيني لانْفعالي، ولكنْ أنا أُمّ قدْ يحرمها القدرُ مِن أحد أبنائها، طمْئنيني، وإلّا سأموتُ مُحترقة القلب!!

عادتِ العرَّافة لتجلسَ أمامَها في صمتٍ مُطْبق، حتى رطنَت هامسة:

- أيُّ مأزقٍ هذا الذي أنتِ فيه «چبروتيا»؟! بمَ تستطيعين أنْ تُطمئنينها؟!

أنقذَها مِن ذلك الموقفِ العصيب، اقترابُ خطواتٍ تعرفها جيدًا، إنه «ويليام» قد عاد!!

قالتِ العرّافة في لهجةٍ جادّةٍ آمِرةٍ، بصوتٍ خَفيض:

- «هيلدا».. إنّ زوجَك على مقربةٍ من الكوخ.. قومي، وانْضحي بعضَ الماء في وجْهكِ، وكفْكفي دموعَكِ بسرعة، كي لا يلحظَ شيئًا، ولحدِيثنا بقيّة بمشيئة الرَّب، ولا تُخبري زوجك بشيءٍ ممّا حدث مهْما حاصَرك بأسئلته. إيّااااااااااااااكِ أنْ تفعلي.

ثمّ هبَّت العجوز واقفةً، تتقدّم نحو الباب، وما أنْ فتحته تريدُ الخروج، إلّا ووجدتْه ماثلًا أمامها مباشرةً، عيناه تخترقُ عينيها في نظرةٍ فاحصةٍ ملؤها الحيرة!

حاولتِ العرَّافة أنْ تخرج، تارةً عن يمينه، وتارةً عن يساره، ولكنّه أخذ يسدُّ الطريقَ دونها، أمّا هي فالارتباكُ قد احْتلها، والتوجّس ملأها، كانت

تخشى لقاءه، تخشى مجرّد النظر إلى وجهه، تخشى أن يسألها عنْ أمر ذلكَ الخنجرِ الغامض!!

باغتها بسؤاله:

- إلى أين.. أمّي!؟ ظننتُ أنكِ بانتظاري!

- دعْني أذهبُ الآن.. «ويلي».

قالتها في توتّرٍ بالغ، وهي تحاول صرفَ نظرها عنه قدْر استطاعتها، بينما كانت زوجتُه توليه ظهرَها مُنهمكةً في تجْفيف وجهها من الماء، والدّموع.

- اجلسي.. أمي، رجاءً؛ فإني بحاجةٍ ماااااسّة للحديث معكِ.

جلستْ وهي على حالها، تُصوّب عينيها نحوَ الأرض، وإذْ بـــ «هيلدا» تصرخُ فزعةً، حتى انتفض صغارُها فزعين يبكون، وكذلك العرّافة التي رفعت رأسَها لترى الدّماءَ منتشرةً فوقَ قميصه الباهت:

- «ويليام».. ماذا أصابكَ؟!

وأقبلت هي والعجوز تتحسّسان جسدَه عسى أنْ تعثرا على موضع جِراحه، ولكنه تركَهما، وراح يُربتُ فوقَ صدور صغارِه عسى أن يكفّوا عن البكاء، وظلّ هكذا حتى هدؤوا تمامًا. عاد كلٌّ من«روبرت» لنومِه مرةً أخرى، وحمل «ويليام» صغيرَه «إيڤ » ووضعَه بين يدي أُمّه، بينما كان «سامويل» ينظرُ لآثار الدماء على ملابس أبيه في خوفٍ، فنظرَ والدُه إليه برفقٍ، وقال:

– تلك ليست دماءَ أبيك.. «ساموِيل»؛ فاطمئنّ، وإنّما هي دماءُ نمرٍ شرسٍ كاد ينقضَّ عليَّ مِن فوق شجرةٍ بالغابة.

ثمّ التفتَ نحو «چبروتيا» وقال، وهو يتفرّسُ وجهها بنظرةٍ حائرة جامدَة:

– لقد صوّبتُ خِنجرًا أعطتني إيّاه جدّتكَ «چبروتيا» نحو النّمر القوي، فاقتنصَ الهدفَ، ونال مِن الفريسةِ في لَمْح البصر، ومِن قبله حدثَ الشيء ذاتُه مع أيلٍ يافع، وأخيرًا مع ذئبٍ كاسر!!

ثمّ استطردَ قائلًا:

– على ما يبْدو يا صغيري أنَّه خنجرٌ مسحورٌ، أوْ وراءه سِرٌّ كبير لا يعرفُه سوى جدّتكَ، ولا بدّ أنْ تخبرنا بما وراءه الآن، أليسَ كذلك يا أمي؟!

ارتعشتْ يدا العرّافة، وازدردتْ ريقَها بصعوبةٍ بالغة، وقالتْ مُتَلعثمة:

– لا بدّ أنْ أذهب الآن.. أحبائي، أراكم لاحقًا.

حاولت «هيلدا» أنْ تمنعها راجيةً إيّاها أن تبقى، ولكن بلا جدوى!

لم يحاولْ «ويليام» منعَها بالمرّة، بينما صاح «ساموِيل»:

– جدّتي «چبروتيا»، ألنْ تُكملي لي حكايةَ الصيّاد الوسيم «ويليام سيلور»؟!

نظرتِ العرّافة نحوه، وابتسمتِ ابتسامةً شاحبة، وقالت:

– يومًا ما سأكملُ لكم حكايتي معه.. «ساموبل»، ولكنْ لا بدّ أنْ أذهب الآن.

قال «ويليام» في صوتٍ قوي، جعل دماءها تتجمّد في عروقها:

– سأرافقكِ.. أمي، انتظري.

خرج يتبعُها، وهي تخشى حديثَه أيّما خشية!!

ابتعدا قليلًا عنْ كوخ «ويليام».. فسألَ الشابّ العرّافة:

– اصْدقيني القولَ يا أمي، مِن أين أتيتِ بذلك الخنجرِ العجيب؟!

عاجلتْه بقولها:

– «ويلي»، ليس لي طاقةٌ بالحديث الآن يا ولدي.

ثمّ استطردتْ:

– أعدُكَ أنْ أجيب على كلّ أسئلتِكَ غدًا.. عُدْ إلى أطفالك، وتعالَ إلى صومعتي بالصباح.

لم ينمِ الصيَّاد الماهرُ ليلته.. وباتَ يترقّب بزوغَ ضوء النهار.

***

قصر «خوان الثاني».. قشتالة..

اسْتيقظت الملكة «إيزابيل» شاحبةَ الوجه، وهنَةَ الجسد، خَدِرة الأوْصال، سارت بخطواتٍ وئيدة نحو جناحِ زوجها الملك «خوان الثانى»، فقدْ لاحظتْ إنه لم يسألْ عنها، ولم يدخلْ جناحها منذ أكثرَ من أسبوعيْن مُتتاليين، وكلّما سألت وصيفاتِها عنه، أو أرسلتْ في طلبه لِـوهَنِها الشديد الذي يحُول دونَ نُهوضها مِن الفراش لرؤيته؛ جئنَ لها بذاتِ الردّ كلّ مرّة:

- إنّ فخامة الملك «خوان» يقول لجلالتك: إنّه مشغولٌ للغاية في إدارةِ شئون المملكة، ومتى واتَتْه الفرصة لرؤية جلالتك؛ فسوف يأتي.

اليومَ، قرّرت الملكةُ الذهاب إليه بنفسها، رغمَ تحذير الأطباء لها بعدمِ التحرّك من الفراش إلّا للضرورة القصوى، فقد بلغَ الضعفُ، والوَهنُ مِن جسدها الضعيف مَداهُما، وما كانَ لها أن تحمل بهذه السنّ مجدّدًا..

ولكنّها آمنت بمطامعِ «خوان»، وأحبّتهُ رغم حمقِه، وصلَفِه، حتى آثرت الإنجابَ مرة أخرى؛ عسى أن تجلبَ له بطنُها فارسًا يحمل رايةَ اليسوعيّين، ويشنّ الحملاتِ الشعواءَ للقضاءِ على كلّ مسلم ومُسلمة ببلادِ القوط. فتلكَ هي الحربُ المقدّسة، التي قرّرت أن تخوضها معه.

ما أن رآها حرّاسُ جناح الملك إلّا وفتحوا أمامَها بابَ الجناح لتدلفَ في الحال، فلقد أنْستْ الخمرُ زوجَها «خوان» أنْ يأمرَ حُرّاس جناحه بمنْعها مِن الدخول عليه أثناءَ وجوده بالجناح.

وجدتْه يقف بشرفةِ جناحه، وإحدى الجواري تقدّم له شرابًا، بينما كان الملكُ يجتذب تلكَ الجارية إلى صدره؛ مُراودًا إيّاها عنْ نفسها، والجاريةُ تتوسّل إليه أن يتركها؛ حين رأتِ الملكةَ ماثلةً أمامهما، فقد كان موقفُها حرجًا أمامَ الملكة، بينما الملكُ لم يلحظ وجودَ «إيزابيل» على مقربةٍ منهما.

هرولتِ الجارية تاركةً جناح الملك بعد أنِ انْحنت تحيّيهما في خجلٍ طاغٍ.

سألته «إيزابيل» في انكسارٍ، وبصوتٍ يغمره الحزن، ومُقلتاها حُبلى بدموعها:

- إلى متى.. «خوان»؟!

حدجَها بنظرةِ احتقار، وقال في اسْتعلاء مُمتزجٍ بالتلعْثم:

- إلى متى ماذا؟! ثمّ مَنْ تظنّين نفسك حتى تحاسبينني على شهواتي؟!

رمقتْه بعينين تملؤهُما دموعُ الندم، ولم تُعقِّب، بينما رجَّت قهقهتُه أرجاءَ الجناح، ثمّ قال في كبرٍ:

- أتتوَهّمين أنّ مثلكِ يليقُ بها لقبُ ملكة «قشتالة، وقشتالة»؟! أفيقي أيّتها الغافلة! لوْلا أني أنتظرُ وضعَ ما تحْملين بأحشائك ماأبْقيتُ عليكِ، ولأطَحتُ بكِ خارج القصر.

شعرتْ برأسها يدور، وهي لا تكادُ تصدّق ما تسمعه أذناها، فقالتْ بصوتٍ مُنكسرٍ مُختنق:

– ومَنْ أكون إذن يا أيّها الملك!! ألستُ زوجتك؟!

جحظتْ عيناه، واقتربَ منها، وصرخَ بوجهها مزلزلًا أوْصالها:

– أنتِ خطيئتي التي ما ندمتُ على شيءٍ أكثرَ منها.

كادتْ تموتُ كمدًا، ولكنها أرادتْ أنْ تعرف ماذا في جُعبة الملك؛ فسألتْه مُستنكرةً:

– خطيئتُك؟! لماذا؟! ألم تُبدِ رغبتَك في الزواج مني بمحْضِ إرادتك؟ ماذا فعلتُ أنا حتى ألقى منك ما ألقى مِن ازدراءٍ، وإهمال؟!

أجابَ، والشرُّ يتطايرُ مِن عيْنيه:

– لأنني لم أحبّكُ يومًا.

– أعلمُ أنك مازلت تحبّها.

نزلتْ كلماتها على مَسامعه كالصّاعقة، وقال مُتلعثمًا:

– مَنْ تقْصدين؟!

قالتْ في صوتٍ تملؤه الثّقة:

– «هـيلدا».. زوجة أخيك «ويلـيام»!

تغيّر لونُه، وشعرَ ببرودة تسري بأطرافه، وتفصّد جبينُه عرقًا، وهرْولَ نحْو أريكةٍ قريبةٍ، وألقى بجسدِه فوقَها مُنهزمًا، وجاهَدَ، وهو يَسألها في حروفٍ تفصلُ بينها مسافاتٌ شاسعة مِن التلعثم، والارْتباك:

- مـــا ذا ... ت- قُ- و لــ ي- نَ؟!

بينما كان ذهنُه تائهًا بين دهاليز الماضي، وأرْوقة الحقيقة مُتسائلًا في نفسه:

- تُرَى كيف علمتْ تلك الملعونةُ «إيزابيل» بهذا الأمر؟!

إنّ وَلَهي بـــ «هيلدا» أكادُ أخفيه حتى عنْ نفسي، ولم أخبرْ أحدًا بمَكنون عشقي لها مِن قبل، لا بدّ وأنّها العجوزُ الخبيثة «چبروتيا» هي التي أخبرتْها.. لِمَ لا؟!

ومَنْ سواها تستطيعُ أن تعرف مخبوءَ نفسي، رغم أنّي أُنكرُ دائمًا ما تقولُه تلك العرَّافة؛ إلّا أنّها دائمًا تجيدُ الرّمية، وتُصيب كبدَ الحقيقة، ليتَها لو أرِمتْ، وإلّا لقضيت عليها قريبًا جدًّا.

- ماذا بكَ يا ملكَ «قشتالة» المُعظَّم؟! ألمْ تكنْ تعلمُ بأني أعرف؟!

قالتها «إيزابيل»، والألُم يعتصر قلبَها العليل، قالتْها، والروحُ منها تنزفُ وجعًا،

ثمّ ذرفتْ عيناها دموعًا حارّة، حرّ فؤادها، ثمّ قالت في نفسها:

- أكادُ أجزم أنّه رجلٌ بلا قلب، رجلٌ تغلّف قلبَه الشهوات.

ولِمَ لا!؟ وهو الذي يقضي حياته ما بينَ قدحِ النبيذِ، ومُواقَعَة الجواري والغانيات؟!

رغمَ ما رأتْه «إيزابيل» مِن خيانات «خوان» المتكرّرة، إلّا أنها لم تُضمرْ كراهيةً لتلك الجارية، ولا لسواها مِن الجواري اللّواتي غرّر بهنّ الملكُ قبْلها،

واتّخذهُنّ مَحْظيات له؛ لأنّ الجارية التي تتمنّع على الملك؛ لا تطلعُ عليها شمسُ النهار؛ تُقتلُ، ولا يُعلَمُ عنها شيئًا بعدَ ذلك، كما لو صارتْ خيطَ دخانٍ ضئيلٍ، واختفى، وزادَ مِن جنونه ومُجونِه أنّه يطمعُ بزوجةِ أخيه الأكبر!!

– أتوصمينَ الملكَ بتلك الرّذيلة «إيزابيل»؟! سألها مُستنكرًا غاضبًا، ثمّ قال:

– لوْلا حملكِ؛ لفتكتُ بكِ.

تماسكتْ الملكة، وقالتْ في تؤدةٍ، واستسلامٍ:

– أنا لا أتّهمك يا ملكَ «قشتالة»، بل أنتَ الذي اعترفتَ بحُبّكَ إيّاها مرَّاتٍ لا تُحصى.

– أ.. أ.. أ.. أ.. ناااااا؟! كيفَ، ومتى حدثَ ذلك أيتها الكاذبة؟!. سألَ مُتلعثمًا.

– أرى أنّ الخمر التي تحتسيها يا فخامةَ الملك ليسَ لها فائدة تُرجَى؛ سوى أنّها تُطلق لسانَك بما لا تستطيعُ الاعترافَ به حال يقظةِ عقلك!!

بُهتَ الملك، وكادتْ عيناه تخْرجا مِن محْجريْهما، وقال في تعثّرٍ:

– أوَ ذكرتُها وأنا ثملٌ؟! ماذا قُلتُ حينئذٍ؟!

– ما أكثرَ ما ناديْتها، وما أكثرَ ما بُحتَ بمشاعرك لها، وما أكثرَ ما أبكاكَ الشوقُ إليها.

استنكرَ قولَها، فقالَ في رُعونة:

– أنا الملكُ «خوان»، أبكي لأجلِ امْرأة؟! خسئتِ «إيزابيل»، كفاكِ هُراءً، وإلّا قتلتُك.

– تعلمُ جيدًا أنّي لا أكذب، تلك هي الحقيقةُ التي مازلتَ تُنكرها حتّى عن نفسِك يا ملكَ «قشتالة».. وقد تساوتْ عندي حياتي، ومماتي؛ لأنّكَ قدْ جعلتني جسدًا بلا روح؛ ها أنا ذا يا ملكَ قشتالة المُعظّم؛ لتأمرَ بقتلي حتى أُريحَكَ، وأستريحُ ممّا أنا فيه.

قالتها في ثباتٍ، وقوّة رغمَ ما ألّم بها مِن وهنٍ وكمدٍ!!

– اغْرُبي عن وجهي أيّتها اللعينة. صرخَ «خوان» كالمجنون.

فما كانَ منها إلّا أنْ حيَّت الملكَ في انحناءةٍ هادئة، وخرجتْ مِن الجناح.

انطلقَ صوتُ الملك هادرًا:

– أيّها الحُرّاس الملاعين!!

هرولَ حارسا الجناحِ مُلبّين نداءَ الملكِ الغاضب، مُنْحَنيا الرّقاب، راجفا الأفئدة، فنظرَ الملك إليهما، والشررُ يتطاير مِن عينيه، وصاح في رُعونة:

– إيّاكما أن تُدْخلا جناحي تلك الحمقاءَ مرّة أخرى، وإلّا نحَرْتكما كالخنازير!!

– بأمرِكَ مولاي، كما تريد.

أجابهُ أحدُ الحُراس في هلعٍ..

بينما قال الآخر:

- العفوَ مولانا الملك، لنْ يتكرّر الأمرُ ثانيةً.

سمعتِ الملكة ذلك التهديدَ الصريح مِن زوجها للحرّاس، ولن تجدَ ما تدفعُ به عنْ نفسها عارَ المذلّة، وشؤم الإهانة؛ سوى العودةِ إلى جناحها، كعودةِ طائرٍ مَهيض الجناح، لم يجدْ ملاذن يأويه سوى سجنِه المعتاد!

الفصلُ الثّامنُ

(المجد للشهداء!!)

بعدَ أن ألقى «موردخاي» التحيةَ على رُهبان المجلس الكنسي، شرعَ في محْو علاماتِ الاسْتفهام الكثيرة التي ارتسمتْ على وجوه الرّهبان الحضور، فلقدِ اقتضبَ جبينُ البعض، بينما تناقلتْ عيونُ البعض الآخر نظراتِ الحيرةِ والقلق؛ فمثلُ تلك الاجتماعاتِ لم تكن لِتُعقد إلّا لحسم الأمور الجسيمة التي تداهم البلاد، أوْ لإعلام رُهبان المملكة بجديدِ قرارات الملك ومناقشتِها فيما بينهم.

جلس جميعُ الرهبان ساكنين، يفكرون فيما سيلقيه سيادة الكاردينال على مَسامعهم، ذهبت بهم الأفكارُ والظنون، وأخذَ بهم التوجّس كلّ مأخذ، ولكنْ على كلّ حال كانت الفكرةُ المسيطرة على أذهان الجميع واحدةً، وهي:

«إنّه لا محالة أمرٌ جلل، هو ذلك الذي دعا كبيرَ رهبان المملكة لعقدِ ذلك الاجتماع الطارئ»

تفرَّس «موردخاي» في وجوه الحضور مليًّا، حيث اصطفّ جميعُ القساوسة جالسين على مقاعدهم المخصّصة لهم أمامَ منصة راعي الكنيسة، يليهم القُرّاء والدّعاة، ثمّ كبيرات الرّاهبات. وأخيرًا، جلست فتياتُ الكنيسة من الراهبات حديثاتِ العهد بالرهبنة.

الصمتُ يخيّم على القاعة الفسيحة، الجميعُ يتوقُون إلى تلك اللحظةِ التي تتحرك فيها شفتا الكاردينال بالكلام. بينما كانت إحْدى الراهبات الجديدات تجلسُ بين نظيراتها مِن صغيرات الراهبات زائغةَ العينين، يشغل خلدَها أمرٌ ما، حتى لاحظتْ حالها فتاةٌ تُجاورها، فهمستْ لها:

– هيـه.. أنتِ، ماذا بك؟! أراكِ شاردةً بدلًا مِن أن تُرهفين السمعَ لما سيقوله سيادة الكاردينال.

التفتتِ الرّاهبة الأمّ «لوريت» نحْو تلك الفتاة، ونظرتْ إليها نظرةً مُحذّرة، ونصبتْ سبّابتها أمام فمِها تحثّها على الصمت، فقالتْ بصوتٍ خاااااافت:

– شششششش.

انتبهتِ الفتاةُ الشاردة، واعتدلتِ الفتاةُ المجاورة لها في جِلستها، وتعلّقت أعيُنُ الجميع براعي الكنيسة الذي اعتلى درجاتِ منصّة الخطاب وتهيأ لإلقاء كلمتِه عليهم، حيث قال:

– سلام الرَّبّ على المؤمنين في كلّ مكان، وبركات الرَّبّ على المخلصين حيثما ساروا، أفعالهم لا تُمحى بمرورِ الأعوام، وتظلّ تُذكَرُ بعالمِ الملكوت الأعلى، أحبّاء المسيح و أحفاد المؤمنين الذين صدَّقوه وأيَّدوه، وحملوا رسالته؛ إنّ أرضنا الحبيبة «قشتالة»، تلك المملكةُ التي ترعْرعنا فيها، والتي لن يألُ أيٌّ منّا جهدًا لإغاثتها بالغالي والنفيس إذا ما كانت في حاجته....

حدجَه الراهبُ «بليدي» بنظرةٍ ناقمة، وقاطعَهُ، وقال في صوتٍ جَهْوَري محاولًا إحراجَه أمام المجلس الكنسي:

- ومتى استغاثتِ البلادُ ولم تجِدْنا؟! أتتّهمنا بالتخاذل يا راعي الكنيسة؟!

كظمَ «موردخاى» غضبَه، وتنبَّه إلى بُغية «بليدي» الخفيّة، فلمْ يُمكنه مِن النيْلِ منه طرفة عينٍ، لذا انتقى كلماتِه، وتحلّى بالهدوء، وقال مستنكرًا في رشادٍ:

- ومتى وجدت في حديثي اتّهامًا لشخصك، أو لغيْرك بالتخاذل عنْ تلبية نداءِ البلاد يا سيادةَ الأسقف «بليدي»؟! أليس مِن الواجبِ أن تحكمَ على حديثي ككُلّ بعدَ انتهائي منه؟! ولقد شرعتُ للتوّ في عرضِ المشكلةِ الطارئة التي أدّت بي لدعوتكم لحضورِ هذا الاجتماع العاجل.. ألا ترى أنّني لم أقفْ بكم على أصل المشكلةِ بعْد؟!

بُهِتَ «بليدي»، وامتقعَ وجهه، وجلس مكانَه دونَ حراكٍ، داهمته عاصفةٌ ثلجيّة عنيفة أعجزته عنْ مجرّد التنفّس، وقد لاذَ بالصمت حين لم يجدْ ما يردّ به على كلام «موردخاي».

بينما سَرتِ الهمهماتُ، والهمسات ما بيْن مؤيّدٍ، ومُعارض لموقفِ الأسقف «بليدي».

فانطلق صوتُ الرّاهب «بودلير» قائلًا:

- أرجو مِن الجميع عدمَ مُقاطعة سيادةِ الكاردينال حتى يُتمّ حديثه، ثمّ نناقش الأمرَ بما نراه خيرًا للبلاد وأهلها، وإذا ما قاطعَ أحدُ الحضور

سيادةَ «الكاردينال» مرةً أخرى؛ فليترك المجلسَ في الحال، نرجو الهدوءَ من فضلكم.

تردّدت الكلماتُ المؤيّدة لرأي الراهب «بودلير»:

- ونِعمَ الرأي.

- موافقون.

- نعم.. نعم.. لا لمقاطعةِ حديث راعي الكاتدرائية.

- أكمِل يا سيادةَ «الكاردينال».

- وماذا بعدُ أيها الأبُ الصالح «موردخاي» ؟!

بينما فارتِ الدماءُ بوجْه الراهب «بليدي»، وكادَ ينفجرُ غضبًا، وشجبًا، ولكنه كان يعلمُ جيدًا أنه سيخسرُ تأييد الجميع له في حالِ تنفيسه عنْ غضبه المخزون؛ لذا بالكاد استطاعَ كبحَ جماح لسانه!!

عاود «موردخاي» مواصلةَ حديثه قائلًا، ونبرةُ شجنٍ تعتري صوته الرخيم:

- إنّ عامة الشعبِ يرزحون تحتَ وطأة فقرٍ مُدقع، والضرائبُ التي أضحتْ فوقَ طاقة الباعة البسطاء، فلاااااابدّ من مناقشة تلك الحال، والوصول إلى حلّ جذري لها؛ وإلّا غاصت البلاد في مستنقع ثورة جياعٍ لا يعلمُ مَداها سوى الرَّبّ وحده.

لَمْ يتمالكِ الأسقف «بليدي» بركانَ غضبه، وهبَّ مِن فوره غاضبًا مصوّبًا نظراته نحو «موردخاي»، وقال في حِدّة:

– إنّ فرضَ الضرائب لَـهُوَ مِن شأن جلالة الملك المُعظّم «خوان الثاني»، وليس لنا كرُهبان بالمملكة أن نتدخّل في قرارات مليكنا، أو حتى نُراجعه فيها، فمَن نكونُ نحن لنعترض على ما يراه الملكُ في صالح المملكة؟! أراكَ قدْ تجاوزتَ حدود منصبِكَ يا راعي الكنيسة، ولتعلم من هذه اللحظة؛ أنّ هذا الأمر لن يمرّ بسلام، ولقدْ حذّرتكَ من تلك الهاوية، فلا تستهِنْ بتحذيري هذا!

ثمّ مضى تاركًا القاعة، يتبعه ثمانيةُ قساوسة، غير مكترثين ببقيّة الحضور!

نكس «موردخاي» رأسَه، والأسى يُلجمُ لسانه، ويشتّت أفكاره، في حين كانت تدور برأسه أسئلةٌ شتى.. فظلّ يتساءل في نفسه:

– ماذا ستفعل الآن «موردخاي»؟!

هل سيقفُ بقية القساوسة معك في مُجابهة الظلم والاستبداد؟! وماذا لو تخلّيت عن مناصرة فقراء، ومساكين «قشتالة»؟! وماذا لو تخلّى المجمعُ الكنسيّ برُمّته عنهم؟! أتُضيّع الرسالة التي أفنيت عمرَك من أجلها؟! هل سَتصمُّ أذنيْك دون آهاتِ المعذبين، ودموع المُعدمين؟! ويحكَ لو فعلت يا كبيرَ الكهنة!!

انتشل الكاردينال مِن شروده صوتُ الراهب «بودلير»، حين قال مُطمئنًا إيّاه:

- إني أُقدِّر لسيادتكم حرصَكم البالغ على حياةٍ تليقُ بآدمية شعبِ المملكة، ولا سيّما البسطاء من ذلك الشعب، كما أُقدّر لسيادتكم عملَكم الدؤوب مِن أجل الارتقاء بإنسانيّة جميع طوائف الشعب دونَ استثناء، كما أنّه لا يخفَى على الكثير منّا متابعتكم ومراقبتكم للحال الاقتصادية للمملكة، تلك الحالُ التي يرى البعض أنّها ليست مِن اختصاص الرّهبان، والدّعاة، ولذلك فإني أعْترف لكم، وللجميع بأمرٍ لطالما جثمَ على صدري، واليومَ قد حان الوقت للإفصاح عنه.

ثمّ دارت مقلتاه بجَنبات المجلس، واستطرد قائلًا:

- «أيّها السادة الرهبان، لتعلموا أنّه إن لم يكنِ الراهب يحمل هَمَّ أحوالِ الناس، فلم يؤدّ رسالته على الوجْه الذي يُرضي الرَّبّ، فكلّنا أبناءُ تلك الأرض، وجُزءٌ لا يتجزّأ من ذلك الشعب، فهلْ منكم مَنْ يرى غيرَ ذلك؟!

ارتجّتِ القاعةُ بالتصفيق تحيةً لكلمةِ الراهب «بودلير»، الذي اتّضح لـ «موردخاي» اليوم أنه كان يتتبّعه، ويراقب تفانيه في خدمة شعب المملكة، وتَفَقُّد أحوال الناس، ممّا أدى الى تصفيقه مع الحضور للرّاهب «بودلير»، بينما كان يرمقه بعين الإكبار، والتقدير.

وقتَها، أدرك «موردخاي» مدى إخلاص «بودلير» له، وللمملكة، فاندفعَ قائلًا في حفاوة:

- كلّ التحية والتّقدير لسيادة الراهب المخلص «بودلير»، فالشدائدُ يا سادة تُسفر عن ذوي المبادئ التي لا تُبدِّلُها حوداث الدُّهُور، والآن أظنّ

أننا بصددِ أمرٍ لا يُستهان به، فإنْ لم نُسرع، ونقنعُ الملك بالعدول عنْ إلغاء الضرائب المفروضة على الفقراء، أو على الأقل تخفيفِها عليهم؛ لذاقَ الشعبُ كله- حاكمًا، ومحكومين- العلقم جرَّاء غضبةِ الشعب، فماذا ترون؟!

رفعَ جميع الحضور بالقاعةِ أيديهم مُعْربين عن موافقتهم.

تأمّلهم «موردخاي» قبل أنْ يواصل حديثَه إليهم؛ ليتأكّد أنها موافقةٌ بالإجماع، أمْ هناك منْ لايزال معترضًا. وصدقَ حدْس الكاردينال؛ فقد وقعتْ عيناه على إحدى الراهبات التي لم ترفع يدَها معهم، وقدْ بدا على وجهها الحزن، والوجوم!!

لم يتبيَّن كبيرُ الرهبان ملامحَ وجهها في بادئ الأمر؛ حيث كانت تجلسُ بالصف الأخير من صفوف مقاعد القاعة.

فحدَّثَ الراهبُ الحكيم نفسه قائلًا:

- لعلّ تلك الفتاة مِن مؤيدات توجّهات الراهب «بليدي»، ولكنها ربما تكون قدْ تحرَّجت من مغادرة القاعة خلفَه مع عددٍ من القساوسة المعترضين.

ورغمَ عدم مشاركةِ تلك الفتاة في الموافقة الجماعية إلّا أن «موردخاي» أسرَّ تعجّبَه من موقفها الغريب هذا في نفسه، ولم يوجّه إليها أيّ سؤالٍ حول موقفِها مما طُرح بالاجتماع.

- أراها موافقةً جماعيةً إذن يا رهبانَ المملكة، إذن لنحدّد الآن موعدًا للقاءِ الملك لطرح الأمر بين يديه، ولننظر بمَ سيجيبُ مطلبنا هذا.

انتبهت الفتاةُ التي لم تشاركهم الموافقة، ورفعت يدَها اليمنى على الفور، فاحتار الكاردينال في أمرها، وانتوى أنْ يسألها فيما بعدُ عن سرّ حالها. ولماذا تغيَّر موقفُها من المشاركة في الاستفتاء؟!

ثمّ أتتْه إجاباتٌ عِدّة من بعض القساوسة:

– ماذا لو كان لقاؤنا بالملك بالكريسماس القادمِ بنهاية كانون الأول؟!

قال «موردخاي» شاخصًا ببصره نحو صورةٍ للملك «خوان الثاني»، التي عُلقت على الحائط المقابل له، ولم يرَها قبل اليوم بهذا المكان:

– ماذا لو ذهبنا إلى قصر الملك الآاااان؟!

جحظتْ أعين البعض، وزاغت أعينُ البعض، بينما غزا الذّهولُ قسماتِ وجوه آخرين.

فقال مُتابعًا:

– الأمرُ لا يحتمل التسويفَ يا سادة، سيخرج طوفانُ الغضب بين ليلةٍ وضُحاها، فبادروا بما اعتزمْتُموه.

رفعَ الجميعُ أيديهم مُعْلنين موافقتهم، ولاحظَ «موردخاي» أنّ الفتاة قد عادت إلى شرودها مطأطئة رأسَها ثانيةً.

ثمّ حسمَ نهاية ذلك الاجتماع بقوله:

– إذن، هيّا بنا الآن إلى قصرِ الملك، وليقضِ الرَّبّ ما هو قاضٍ.

هبَّ القساوسة واقفين، وهمَّ الرجالُ بالذهاب إلى ملاقاةِ الملك يتقدّمهم الكاردينال «موردخاي»، وإذ بالفتاةِ الشاردة تسقط مغشيًّا عليها، فتعمّ الجلبة القاعة.

يدنو «موردخاي» مِن جسد الفتاة المسجّى، لتهولَه المفاجأة، فيصيح مِن فوْره:

- بُـولخـــاريـــا؟!!!!

إنها «بولخاريا»، حبيبةُ «نيكولاس»، وجارته التي لطالما حلمَ بالزواج بها، ولكنّ والديها رفضا طلبَه مِرارًا لبساطةِ حاله، ولظروفه الماديّة المتواضعة، ممّا دفعه للالتحاق بالكاتدرائيّة، بعد أن أطلَع «موردخاي» بما كان.

و سرعانَ ما لحقتْ الفتاةُ بنيكولاس، زاهدةً في حياة العامة التي تقمعُ الحبّ، و تنكر المشاعر!

- ولكن.. أين «نيكولاس» إذن؟! همس «موردخاي» لنفسه!

كادتْ أنفاسُ كبير القساوسة تتوقّف، فقدِ انتبه إلى عدم حضور «نيكولاس» بالاجتماع، وتساءل في نفسِه ثانيةً في اضطرابٍ بادٍ:

- تُرى أين «نيكولاس»؟!!

تلك المرّةُ الأولى التي يتخلّف فيها عن حضور اجتماعٍ بالكاتدرائية، فقد كان أولَ الحضور بقاعة الاجتماعات!

ولكنْ، سرعانَ ما طردَ تلك الهواجس المخيفة عن رأسه.

لكنّ الموقف الآن لا يسمحُ بالانتظار دقيقةً واحدة لِتبَيُّن الأمر؛ لذا أصدر «موردخاي» أمره لبعض شباب الكنيسة بحمل «بولخاريا» إلى جناح الراهبات حيثُ تقيم، ثمّ التفتَ الى عددٍ من كبيرات الراهبات اللواتي كُنّ قد تحلّقن حول الفتاة المُسجاة أمامهن، و أمرهُنَّ بالاعتناءِ بالفتاة حتى تستفيق.

تقدّمت الأمّ «ڤيولا» حاملي الفتاة إلى الجناح.

ثمّ نظر «موردخاي» إلى «رافي» آمِرًا في جديةٍ:

– أسرع.. واستدعِ طبيبَ الكاتدرائية على الفور لفحصِ الفتاة.

أجاب الفتى في طاعةٍ جمّة:

– بالطبع سيدي الكاردينال.. في الحال.

ثمّ تذكّر «موردخاي» أمرًا آخر، فقال:

– «رافي».

عاد الفتى مُلبّيًا نداءه، قائلًا في صوتٍ هادئ:

– أجل.. سيدي الكاردينال.

تجهّم وجهُ «موردخاي»، وقال هامسًا له في رباطةِ جأشٍ:

– بعد أنْ تستدعي الطبيب، وتُنفّذ تعليماته بدقّة؛ اذهب، وابحثْ عن «نيكولاس» بكلّ مكانٍ حتى تجده، وانتظراني حتى أعودَ من قصر الملك. لاااااابدّ وأن تجد «نيكولاس» .

– بأمرك سيادةَ الكاردينال، لا تحمل همًّا، كلّ ما أمرت به يُنفَّذ في الحال.

ثمّ أشار «موردخاي» بيده لموكب القساوسة؛ أنْ هلمّوا صوب وِجهتنا، فانطلقوا قاصدين قصرَ الملك «خوان الثاني»، بينما كان يتقدّمهم، ومازالت بعضُ علامات الاستفهام تقفُ عائقًا أمام إدراك البعض منهم حقيقةَ الموقف وأسبابَ ما حدث بالقاعة، وما الذي ستُسفرُ عنه الساعات القادمة من تطورٍ ملحوظٍ في تلك العلاقةِ المتوتّرة، التي كشَّرت عنْ أنيابها بين الأسقف «بليدي»، وكاردينال المملكة الفرنسية؟!

طوى الجميعُ الطريقَ مِن المملكة إلى قصر الملك، ولم يعدْ بينهم وبين بابِ القصر المهيب سوى عدّة خطواتٍ فقط، إذْ رأوا ما لم يتوقّعونه بالمرّة!!!

لقد رأوا الأسقف «بليدي» والرهبان الثمانية الذين تَبِعوه إلى خارج المجلس الكنسي قبل قليل، خارجين من بوابة القصر!!

تساءل الكاردينالُ «موردخاي» في نفسه:

– لماذ سبقَنا «بليدي» إلى قصرِ الملك؟ وماذا أضمرَ لي اليوم؟ وماذا دارَ بينه وبين الملك قبل قدومنا؟ ولماذا لا يكفّ عنْ مناصبتي العَداء هكذا؟!

ثمّ تساءل الكاردينال «موردخاي » في نفسِه مرة أخرى:

– وأينَ ذهب «نيكولاس» بعدَ انتهاء محادثته مع «بولخاريا»؟! وما الذي أدّى إلى إغماء الفتاة؟! هل أغضبَها «نيكولاس» إلى حدّ فقدِها الوعي؟!

حدَّثَ نفسه نافيًا:

- لا.. لا.. إنّ «نيكولاس» مازال يحبّها رغم فراقهما، أنا أعرفُه جيدًا، ولكنْ لماذا تدهور حالُها إلى هذا الحدِّ؟!! والأهمّ من هذا، وذاك، هل سأعودُ إلى الكنيسة لأجدَ «رافي» قد وجدَ «نيكولاس»؟! هل سأرى «نيكولاس» بانتظاري في ردْهة الكنيسة، على مقربةٍ من حجرتي كعادته؟!!

كادت كلّ تلك الأسئلة، أنْ تطيح برأس كبير القساوسة حتّى قال في نفسه، في محاولةٍ لدحْرِ القلق الجارف عنْ عقله:

- إني موقِن إجابةَ كلّ تلك الأسئلة لنْ تكون إلّا لدى شخصين اثنين فقط؛ « بليدي، وبولخاريا».

وجدَ نفسه وجهًا لوجهٍ أمام الأسقف «بليدي» مباشرة، وحديثٌ صامت قد باحت بِه أعينهما، دون أن يسمعَه المحيطون بهما، بينما وضعتِ ابتسامة «بليدي» التي كانت تحملُ من الشماتة بـ «موردخاي» الكثيرَ والكثير؛ نهاية تلك الحربِ الباردة التي شنَّها الراهبُ «بليدي» على راعي الكنيسة، فما كان مِن «موردخاي» إلّا إيثاره للصمت، والتَّريث حتى تضع تلك الأحداثُ أوزارَها.

مضى «بليدي» يسير كَطاووسٍ مزهوّ بِريشه بيْن مؤيديه مِن القساوسة عائدين إلى الكنيسة!

دلف جميعُ القساوسة إلى جناحِ الملك؛ حيث كان الملك ينتظرهم متجهّمَ الوجه، عاقدَ الحاجبين، مقتضبَ الجبين.

بدأ «موردخاي» الحديثَ بإلقاء التحيةِ على الملك «خوان الثاني» في نبرةٍ يشوبها بعضُ الشجن:

- عِمتَ صباحًا يا ملكَ « قشتالة »، لقد جئنا اليوم للقائكم من أجل.....

سرعانَ ما قاطعَه الملكُ في ثورةٍ عارمة:

- جئتكم مِن أجل ماذا.. «موردخاي»؟! ألا يكفيكَ أنْ أخذتَ تؤلِّب القساوسة والباعة الجائلين عليَّ، وعلى قراراتي؟! مَنْ تظنّ نفسك؟!!

بُهتَ القساوسةُ جميعًا، وأدركوا سِرَّ وجود الراهب «بليدي» عند بوابة القصر، حتى أنّ «موردخاي» ضمّ قبضةِ يده، وزمَّ شفتيه، ثمّ همسَ في غضبٍ:

- لقد فعلتها إذن يا «بليدي»!!

هنا، راح الراهبُ «بودلير» يتكلّم في شجاعةٍ مُنقطعةِ النظير:

- سيدي الملك، إنّ سيادة الكاردينال لا يعْنيه سوى مصلحةِ الشعب، وهدوء الناس، وعدم ثورتهم ضدّ قراراتِكم الملكية، وجميع أهلِ المملكة يعرفون أنه يسعى في الخير للجميع، فما عهدْنا عليه سوى العطاء دون انتظار الجزاء.

همْهمَ جمعُ القساوسة:

– حقًّا؟!

– نعم.. نعم.

– أجلْ هو كذلك.

– أيّها الراهب.. «بودلير»، ماذا قُلت؟! أقُلتَ سيادة الكاردينال؟!

سأل الملك في استياء..

فقال «بودلير» في تعجُّبٍ:

– نعم.. سيدي الملك، وهل فيما قلته ثمّة خطأ؟!!

عاد الملكُ إلى صمته مرةً أخرى، وإذْ بـ«موردخاي» يقول في تؤدَة، كاظمًا غيظه:

– بِمَ تحبّ إذن أن يُلقّبني الناس يا ملك «قشتالة»؟!

قهْقهَ الملك كالمجذوب لعدّة دقائق متواصلة، والجميعُ مشْدوهون، ينظرون لبعضهم البعض في حيرة، حتى توقّفَ فجأةً عنْ ضحكاته المُجلجلة، ثمّ اقترب مِن «موردخاي»، وضاقت عيناه، وقال في صوتٍ شيطاني أجشّ:

– لقدْ عزلتُكَ مِن منصب الكاردينال يا «موردخاي»، وها أنتَ قدْ عُدت مجرد راهبٍ، خالٍ من أقل المميزات.

ما بينَ شهقاتٍ، ونظراتٍ مُتعجبة، وتساؤلاتٍ خافتة، وكلماتٍ خفيضة؛ كان حالُ الحضور من القساوسة، فيما عدا «موردخاي» الذي بدا كما لو لمْ يسمعْ بذلك القرار الجائر.

حتى سأل أحدُ القساوسة قائلًا في صوتٍ مرتعشٍ:

– ولكن، معذرةً يا فخامةَ الملك، منْ يكون سيادة الكاردينال الجديد؟!

حدجَه «بودلير» بنظرةٍ غاضبة، فطأطأ هذا القِسّ رأسَه خجلًا لسؤالِه.. هذا السؤالُ الذي يحمل في طيّاته خدشًا لحياء، ومقام «موردخاي»!

وعلى حين غِرّةٍ، وقبل أن يجيبَ الملك، قال «موردخاي»:

– إنّ فخامةَ الكاردينال الجديد، والذي وقعَ عليه اختيارُ مليكِكم المُعظَّم هو، الأسقف «بليدي».

فَغَرتْ أفواهُ أكثرِ القساوسة، ودارتْ رؤوسهم، وأخذت الأفكارُ تتلاطم داخلَ عقولهم كالأمواج الهائجة، وحدثت جلبة، ولغطٌ كثيييير، اختلطتِ الأصوات، بينما كان «موردخاي» يقفُ ساكنًا لا يلوي على شيء!!

انتفخَ صدرُ الملك كالطاووس المُعجب بنفسه، وهبّ واقفًا يصيحُ في غضبٍ:

– صَهٍ. أنسيتم أنّكم أمام الملك؟! والذي عمّا قريبٍ سيكون، بل ملك «إيبريا » بأسرها!!

خيَّم الصمتُ على الجميع، ولكنْ مالبثَ أنْ قال «بودلير» في كمدٍ:

– ولكنْ يا سيادة «الملك»، إنّ الأسقف «بليدي» شخصيةٌ غير محبوبة من فئةٍ عريضة من الشعب، حتى أنّ الكثير من القساوسة لا تروقُ لهم أفعالُه،

وتوجهاتُه، أمّا سيادة الكاردينال «موردخاي»، فالجميعُ يحبّونه، ويوقّرونه؛ لأنّ التفاهم، ولينَ الجانب، وسعةَ الصدرِ والأفقِ منْ سيمائه، فما الداعي لِأن يُعزلَ مِن منصبه، إني لا أراجعُ سيادتكم في قراركم هذا، ولكنْ من حقّنا كقساوسة بالمملكة أنْ نعرف السبب!!

حدجَ الملك «موردخاي» بنظرةٍ كراهية مُشمئزّة، وقال:

- كُلّ ما قُلتَ أيها الراهب «بودلير»، لَهي أسبابٌ كافيةٌ لأن أعزلَه من منصبه، إنّ أي منصبٍ قيادي هامّ بالمملكة؛ لا بدّ وأن يتقلّده رجلٌ ذو شكيمةٍ، وبأس، و لا يهمّني أن يحبّه الناس، كلّ ما يعنيني هو أن يضربَ بقبضةٍ فولاذيةٍ على أيدي مُعارضيه، ولو كانوا أصحابَ حقوقٍ.

ظلّ «موردخاي» ينصتُ للملك دونَ أن يعترض؛ خشيةَ أن يظنّون أنه يستجدي مَنصبه السابق ممّن يراه ليس أهلًا لأنْ يكون ملكًا على عرش مملكة «قشتالة».

ولكنْ كان هناك أمرٌ قد غابَ عن ذهن «خوان»، ولا بدّ وأنْ يفصحَ «موردخاي» له عنْه، فقال في رباطة جأشٍ:

- ولكنّكم تخْترقون القوانينَ الرّاسخةَ منذُ عشرات السنين يا ملك «قشتالة»؟!

قاطعَه الملك في غضبٍ شديد:

- ويحكَ.. «موردخاي»، أتتّهم الملك باختراق القوانين؟!

- ليس اتهامًا، بل حقيقة مؤكدة.

اقتربَ الراهب «بودلير» من «موردخاي»، وأخذ يشدُّ على يده حتى يصمت، فقد كان يخشى عليه من عقابِ الملك غير المتوقّع، ولكنْ لم تهتز لــ «موردخاي» شعرةٌ واحدة.

قُذف الرعبُ في قلب الملك، وإذا به يقول بصوتٍ متهدّج:

- وكيفَ ترى «موردخاي» أنّني قد اخترقتُ القوانين الثابتة؟!

أجاب «موردخاي» وهو مُنتصبُ القامة، واثقًا ممّا يقول:

- إنَّ اختيار «الكاردينال» لَهوَ من اختصاصِ المجمع الكنسي، الذي يتكوّن من قساوسة المملكة دونَ حضور الملك، ومن ثمّة يقوم المجلس الكنسي بإبلاغ الملك باسْمِ الكاهن الذي وقع عليه الاختيار، فيحدّد الملك- بعد ذلك- موعدًا للحُضور إلى الكاتدرائية الكبرى للتوقيع على قرار اعتمادِه كاردينالًا للمملكة، هكذا كان يفعل والدُكم ياجلالةَ الملك.

امتقعَ وجهُ الملك، وهرولَ صوْب عرشه، و تهاوى فوقَه متراخيًا، ولم يقوَ على مجادلة «موردخاي» الذي كان يقفُ كالطود الثابت فوقَ أرضٍ صُلبة؛ لأنّ حُجة الجاهل دومًا واهيةٌ ما لها من ثبات!!

ولكن الملكُ صمتَ قليلًا، ثمّ هدر مهدّدًا:

- مَنْ لن ينصاع لقراري؛ فسوف يُقتل شرَّ قتلة.

تبادل الرّهْبان نظراتِ التعجّب ممّا سمعوا دون حديث.. وإذ بالملك يعلنُ انتهاء ذلك اللقاء.

رغمَ مخالفة «خوان» للقوانين الثابتة؛ إلّا أنّ تهديده قد وجدَ طريقه إلى معظم الرهبان، فانفضّوا من حول «موردخاي»، فيما عدا الراهب «بودلير»، وستّة رهبان لا غير.

***

قفلَ «موردخاي» عائدًا إلى الكاتدرائية، وقد أطرقَ مُترقّبًا ما ستسفرُ عنه الأحداث التالية. فإذْ بكلّ مَن بالكاتدرائية تقريبًا يحيطون بأحدهم، والصّخب يعمّ باحة الكنيسة، فقد عثرَ «رافي»، وبعضُ رفاقه على «نيكولاس».

ولكنّه كان سابحًا في دمائه، وخنجرٌ ذو نصلٍ لامع، ومقبض قدْ حُفرتْ فوقه كلماتٍ باللغة الزرادشتية، التي استطاع «موردخاي» وحدَه أن يقرأها هامسًا:

- (أينما تُوَجّهني؛ سأقتنصُ الهدف، وسأنالُ مِن فريستك!).

***

تحتَّم الآن على «موردخاي» لقاءُ «بولخاريا»، تلك الفتاة التي همسَ إليها «نيكولاس» بحديثٍ خافت قبل عقد الاجتماع الفائت.

وبسؤال الكاردينال «موردخاي» الفتاةَ عمّا كان يحدّثها به «نيكولاس»؛ إذ انتابتها موجةٌ عارمة من البكاء والارتعاد، ولكنّها استعادت هدوءها تدريجيًّا، وأخبرتْ «موردخاي» بكلّ ما أسرَّ إليها به «نيكولاس» قبل أنْ يختفي عن الأنظار !

لقد عثر «رافي»، ورفاقُه على «نيكولاس» بمرأبِ الكنيسة، حيث كان الخنجر مخترقًا عنقَه!

وبقي السؤال؛ أينَ يمكن أن يكونَ الفاعل الغريب الآن؟!

وحان موعدُ الحلقة الأعقد.. ألا وهي؛ ضرورةُ لقاء الكاردينال «موردخاي» بالعرَّافة «چِـبروتْـيـا»، فلربما تستطيعُ أن تخبره شيئًا عن قاتل «نيكولاس» !!

وبالفعل، توجَّهَ «موردخاي» إلى كوخ «ويليام»، واصْطحبه حتى صومعة العرَّافة، فهبطتْ إليهما، وقد غطَّاها الارتباك.. رغم أنها تدركُ جيِّدًا أنّ لدى «موردخاي» ما يريدُ أن تُجَلّيه، وتفسّره له..

عاجَلها «موردخاي» بسؤاله:

- «چِـبروتْـيـا».. ماذا تعرفين عن «نيكولاس» ؟!

- ....

لم تتفوّه العرَّافة بكلمة، فقال «موردخاي» في جديّة:

- إنّ «نيكولاس» قد قُتلَ اليوم يا عرَّافة إيبريا.. ساعديني حتى أعثرَ على قاتله، وأُقدمه للمحاكمة!!

ذرفتْ عينا العرَّافة، وطأطأت رأسها.. وقالت:

- المجدُ للشهداء في كلّ زمان، ومكان.

ثمّ قصَّتْ عليهما كيفَ التقتْ «نيكولاس» أمسَ للمرّة الأولى، عندما جثا على ركبتيه بالشاطئ على مقربةٍ مِن مجلسها دونَ أن يراها، وكيف انسابتْ دموعُه مِن هول ما ينتظره مِن مصيرٍ مرعب.. فهناك وافدٌ غريب يتربّص به، ولم يخرجْ بعدُ من الكاتدرائية!

وقصَّ الشابُّ عليها كذلك، كيف أحبّ جارته «بولخاريا»، ولكنّ والديها رفضَا خطبتها له، وكيف احتواه «موردخاي» آنذاكَ، وكيف التحق بِكاتدرائية قشتالة الكبرى عسى أنْ يتناسى ما ألَّم به من وجدٍ!

قاطعها «موردخاي»:

- مَنْ ذلك القاتل؟ أفصِحي رجاءً!

تدخَّل «ويليام» يرجوها:

- قولي يا أمي.. مَن يكون ذلك الشخص؟!

تلعثَمتْ «چِـبروتْـيــا»، وقالت بشفتيْن مُرتعشتين:

- إنَّه «بِلتَـــــــازار» الزرادشتي الفارسي.

ثمّ أردفتْ:

– قاتلٌ مأجورٌ وافدٌ مِن بلاد فارس.. وهو الذراعُ الأيمن للملِك، وللراهب «بليدي» على حدّ سواء. أيْنما حلَّ سُفِكَت الدّماء.. يتخفّى كالأشباح.. ويُنجز ما أُوكِلَ إليه من مَهمّات الاغتيال بسرعة البرق الخاطف.

تنهَّدَ الكاردينال «موردخاي»، بينما اتّسعت حدقتا «ويليام»، ولم يعقب.

فقالت العرّافة:

– دعْهُ للربّ.. يا «موردخاي». لا تبحثْ عنه.. وإلّا فالملِك بنفسِه سوف يناصبكَ العداء!

مضى «موردخاي» مُبتعدًا، ولكنّ «ويليام» لم يتبعه، وهمس في عُجالةٍ للعرّافة متسائلًا:

– أتَعلمين أنّي فقدت خِنجرَكِ المسحور؟!

انْقبضَ قلبها، وقالت فزِعة:

– حقًّا؟!!

– ألا تعْلمين؟!!

– أوَ تظنّ أني أعرف، وأدّعي الجهل بالأمر «ويليام»؟!

قالتها غاضبةً مُستاءة؛ فلم تعهدْه سوى نقيّ النيّة، واضح القصد.

نكّس رأسَه في أسفٍ، وقال:

- اقْبلي معذرَتي.. أمي، فقد رأيتُ اليوم عجبًا مِن ذلك الخنجر، الذي أعطيتني إيّاه؛ لقد كان ينطلقُ نحو الفريسة كسهم منطلقٍ من غِماده، لا يُخطئ وِجهته.. كما لو كانت تُحركه «تعويذة» سحرٍ لعينة!!

جحظتْ عيناها، وقالت:

- انتبِه لحالك يا ولدي!

ثمّ شردتْ هُنيهة، ورفعت رأسَها نحو السماء، وهمْهَمت في صوتٍ خفيضٍ استطاع «ويليام» أنْ يسمعه لِقُربهِ منها:

- لقد باتَ اللقاءُ وشيكًا.. «بلتازار»!!!

قال «ويليام» في حزم:

- أخبريني أينَ أجدُ هذا الــ «بلتازار» حتى أقتصّ منه، وينتهي تهديدُه لحياة الأبرياء!

تلعثمَتْ، والخوفُ يحتلّ أوصالها:

- دعْكَ منه «ويلي»، ابتعدْ عن طريقه.. رجاءً!

- وكيف أبتعدُ عن شخصٍ مجهولٍ لا أعلم عنه شيئًا؟!!

لمْ تُجب سؤاله، واستطردتْ هامسةً وهي تضعُ سبّابتها بين فكّيها، وتعضّ عليها:

- ليتني ما أعطيتُكَ الخنجر!! ليتني ما أعطيتُكَ الخِنجر !!

***

غرناطة.. حانوت «راجح» الخيّاط**

- تعالي يا «مُروج».. ماذا هناك؟!

- لا شيء عمّي «راجح»، إنّ الخالة «صفية» قد طلبتْ إليَّ أنْ أحمل إليكَ هذا الطبق.

- وماذا أعدّتْ «أمّ عامر» من أجلي، يا مروج؟!

ابتسمتِ الفتاةُ السمراء ابتسامةً طفولية، وقالت:

- إنَّها حلوى الـ«مازابان» الشهية، التي تُفضِّلها يا أبا عامرٍ .

- كمْ أنتِ مخلصةً وفيّةً لكلّ جاراتك يا مروج، وكذلك كانت والدتُك شفاها الله وعافاها، فقد كانت امرأةً خدومةً طيبة، حقًّا إنّ مَنبتكم طيبٌ، وأصلَكم كريم.

- أشكركَ عمّاه، هل لك خدمة أسْديها لك قبل أنْ أعود؟!

- جزاكِ الله خيرًا.. ابنتي الطيبة.

بعدَ مرور يومٍ مِن العمل الدؤوب، عاد «راجح» إلى داره ليجدَ زوجته تُعدُّ طعامَ العشاء، فقال:

- السلام عليكِ يا أُمّ عامر.

- وعليكَ السلام والرّحمة يا أبا عامر ، دقائق وسأُحضر لك العشاء.

- أين ولدُنا «عامر»؟! ما لي لا أسمعُ له صوتًا بالبيت؟!

قالتِ الزوجة في سرورٍ:

- هو عند أمّه الثانية!

- أيُّ أُمّ تلكَ يا «صفية»؟! ماذا تقولين يا امْرأة؟!

- إني أمزحُ يا زوجي. وهل يفارق طفلُكَ «مروجَ» إذا ما عادت إلى دارها بعد أن تفرغَ من عملها ببيت السيد «بهي الدين» وزوجته؟!

- أهو متعلقٌ بها إلى ذلك الحدِّ؟!

ضحكتْ، وقالت:

- وكيف لا يتعلّق بها، وهي تظلّ تحكي له «الحواديت»، وتحثّه على إنجاز فروضِه التي يعطيها له مُعلّمه الشيخ «عبد الباري» بالمدرسة، وتساعدُه في فهم ما صَعُب عليه مِن فروضه، وتقوم بمراجعة ما حفظَ من القرآن، مِن دون أن تأخذ أجرًا على جميلِ صنيعها معه، ومعنا؟!!

وضعَ «راجح» عِمامتَه عن رأسِه في هدوءٍ، وقال وهو يشخص ببصره أمامه:

- الآنَ فقط، أدركت سرَّ مديح الشيخ بطفلنا؛ فقد مرّ بي بالحانوت اليوم، وأشاد بمدى تقدُّم الصبي، وتميُّزه على أقرانه بالمدرسة، وبالمقرأة!

سكتَ «راجح» بُرهةً، ثمّ سألها:

- وماذا طهوتِ لنا اليوم يا «أمّ عامرٍ»؟!

تهلّلَ وجهها، وقالتْ:

- ثريدٌ، ولحم، وحساء.. الخير كثير، والحمدُ لله يا زوجي الحبيب.

قاطعها:

- قبل أنْ تضعي لنا العشاء، عليكِ أن تحملي العَشاء للسيدة « زُبيدة» وابنتها «مروج» أولًا.

- لا تقلقْ عليهما؛ فالسيد «بهي الدين» والسيدة «العلياء» لن يتركاهما بلا عشاء. كنتُ سأُعدّ لهما عشاءَهما بعد أن تتناولَ طعامكَ، أراك مُتعبًا يا أبا عامر.

قال «راجح» في صرامةٍ:

- قُلت أعدِّى عشاءَهما أولًا، ألا تعلمين أنّ خادم القومِ سيدُهم يا «صفية»؟! إني لم أرَ أوفى منهما للناس، و«مروج» الآن لا تتأخّر عن تلبية ما تطلبينَ منها متى كنتِ بحاجتها، أليس كذلك؟!

أذعَنتْ «صفيَّة» قائلة:

- صدقتَ والله يا «راجح»، أسأل الله العلي العظيم أنْ يشفي «زُبيدة»، وأنْ يرزق «مروجَ» بالزوجِ الصالح الذي تتمنّاه.

– ومَنْ هو ذلك الرجل الذي تتمنّاهُ يا «صفية»؟!

قالتْ زوجتُه في تلعثُم:

– لقد أسرَّت إليّ الفتاةُ باسمه، وما يجبُ أن أفشي سرّها بعد!!

– إذن، لن تخبريني مَنْ هو؛ فربّما كنت على وشكِ أنْ أزوِّجها بشخصٍ آخر لا تريده.

قالتْ «صفية» في فرحةٍ غامرة:

– أوَ كنتَ سترشّح لها زوجًا يا «راجح»؟!

– نعم، إنه «سعد».

– «سعدٌ» صبيُّك، ومساعدُكَ بحانوتك؟!

– أجل، فحالُه تُشبه حالَ «مروج»، فهو شابّ يتيم.. مجتهد، وسيكون له مستقبلٌ في حياكة الثيابِ ذات يومٍ.

– إذن، أرجوكَ ألّا تُحدثه عنها، فقلبُها مع غيره، وأخشى أنْ ينكسر قلبها، عندما توافق عليه مضطرةً حياءً منّا!

– فلتُخبريني باسْمِ الرجل الذي تريده، عسى أن أكون واسطةَ خيرٍ بينهما، فكمْ خدَمَتنا بإخلاصٍ دونَ أن تطلب المقابل.

– إنه.......

– تكلّمي يا صفية، منْ هو؟!

– سأخبركَ يا أبا عامر، ولكن لا بدّ أن تعلمَ جيدًا أنها تعمل بخدمةِ كبير الصاغة السيد «بهي الدين» وزوجته السيدة «العلياء» طيلة اليوم تقريبًا، لذلك فأمرُ زواجها مِن عدمه يعود إلى السيد «بهي» قبلنا، كما أنَّ خدمتها لنا تطوّعية عابرة، أمّا خدمتها لهما فدائمةٌ ومُتواصلة، كما أنها تربّتْ، ونشأتْ ببيت السيدة «العلياء» منذُ كانت العلياء طفلةً صغيرة، ثمّ جاءتْ لخدمتها بعد زواج «العلياء» من «بهي الدين» منذ ما يربو على عشْر سنواتٍ، لذلك همْ بمثابة أهلها تمامًا.

– أعرفُ ذلك جيدًا، لذلك لنْ أتدخل إلّا من باب تقديم الخير والمعروف ليس إلّا، وتبقى الكلمة الأولى، والأخيرة لكبير الصاغةِ وزوجته، هلّا أخبرتني إذن بذلك المحظوظ الذي تمنّاه قلبها؟!

– مِن حيث أنه محظوظٌ.. فهو محظوظٌ بلا شكّ، فهي فتاةٌ هادئة.. مهذبة. كلّ أهل الحي يحبّونها رغمَ أنها لم تحظَ بحظّ وافرٍ مِن الجمال، ولكنْ وهبها الله جمالَ الروح والأخلاق.

ضاقَ «راحج» ذرعًا بقولها، وقال:

– يا امْرأة، إني أعرفُ ذلك كله، قولي الآن مَنْ تريده زوجًا لها؟!

– إنّهُ «خاطِــر».

– أهوَ «خاطِــر» خادمُ السيد «بهي الدين»؟!

قالتْ، وعيناها تشعّان سعادةً:

– نعم.. هو بعينِه يا زوجي.

قال «راجح» بصوتٍ خفيضٍ، وعلاماتُ الدهشة تعلو قسماتِ وجهه:

– يااا اللـه!!!!! أَخاطرُ، هو مَنْ تتمنّينَ يا مروج؟!

– وماذا به يا أبا عامرٍ؟!

قال مُبتسمًا في رضا:

– والله إنّها حقًّا طيبةٌ، والطيبون للطيّباتِ، و يااا لخاطر من شابّ خلوق.. محبوبٍ من كلّ الناس مثلها، غير ذي مالٍ، وإنْ دلّ هذا على شيء؛ فهو دليلٌ على أنها غير طامعة بمتاعٍ من مُتع الدنيا.

– أستحدّثهُ في أمرها يا «راجح»؟!

– بلا شكّ يا «صفية»، ولكن، هيّا أسرعي الآن، وأرسلي العشاء لتلكما المسكينتيْن، أخشى أنْ تناما دونهما عشاءٍ.. فنحنُ مدينون لهما بالكثيـر!!

– في الحال يا زوجي الكريم.. أدامَ الله عزَّك، وزادَ رزقك.

– اللّهمّ آميــــن.

***

الفصلُ التّاسع

«بُـــورَان» و «حـِنْـزَاب»

طافَ بمخيلة «مروج»، مشهد «خاطرٍ»، ببنيتِه القوية، ووجهه المشرق بمسحةٍ جلية من الوسامة الرجولية الطاغية رغم الشقاء، بينما هو واقفَ أسفل شُرفة «ريناده» ابنة « رفيق الزَّجَّاج»، أشهر صانع زجاج بغرناطة، كانت الشُّرفة مغلقة، و إذ بها تُشرعُ، و تُطل منها «رِينادة» ساحرة الطلعة، كأُقحوانة، تفتحتْ تستقبل بشائر الربيع،

كانت تسقي زهور الخُزامى التي تُزين شرفتَها، وتميل بوجْهها كالبدر، تشمّ الزهر، وتنتشي مُغمضة العينين، بينما «خاطر» سابحٌ في شروده، و»مروج» بمحيّاها المتواضع تراقبُ هيامَ محبوبها بـ «ريناده»، يكادُ فؤادُها يتصدّع على أثر ما ترى.. وتذرف عيناها دمعًا حارًّا، حرَّ القلب الولْهان!

بينما ترفعُ «ريناده» رأسَها، وتلقي بناظريها مِن عليائها، فتلمحُ «خاطر» فلا تُعيره اهتمامًا، ثمّ تختفي داخلَ غرفتها، بينما مازال «خاطر»، يقف حيث هو محزونًا، كسيرَ الخاطر.

سرعانَ ما تهرولُ «رِينادة»، صوبَ الشُّرفة تارةً أخرى، بوجهٍ مشرقٍ، متهلّل.. بعدما سمعتْ صوت «عصام الدين»، ابنِ أحد وزراء حكومة «بني الأحمر»، وأحد مستشاري الأمير «عبد الله الصغير » ينادي:

- يا أهلَ الدَّار.

لقد أذاب «عصام الدين» قلبها حبًّا، وأذابتْ «رينادة» روحَه عشقًا، وها هو الشابُّ الوسيم قد أتى يوفي بوعدِه له، طالبًا يدَها.

❋❋❋

- «رينادة» مثلُ أبيها تنشدُ الثراءَ، وحياةَ الدّعَة، لذلك هي لن تقبل بصهرٍ مثلَكَ يا «خاطر».

صارحهُ بذلك القولِ المباشر «راجح الخياط». ممّا دفع «خاطر» إلى أنْ يحدجَه بنظرةٍ لائمة.. فأسرع «راجح» يقول:

- أنا لا أنتقصُ مِن قدرِك يا «خاطر»، حاشا لله.. فوالله لَإنّكَ مِن أخلص الرجال الذين الْتقيتُهم طوال حياتي.. ولكن!!!

رماهُ «خاطر» بعينيْن واسعتين صافيتيْن، يمتزجُ بهما الغضب والتحسّر معًا. فاستدركَ «راجح» يقول:

- ثمّ إنها فتاة مدلّلة.. لن ترضى عنك مهْما قدّمتَ لها.. صدِّقني. إنّ عروسكَ عندي يا «خاطر»، وإذا لم تعجبْك؛ فهناك مَن يتمنّى ثرى قدمَيْها!

قالها «راجح» فيما يُلقي نظرةً جانبية صوْب «سعد» مساعدِه بالحانوت، الذي انْهمك في طيّ الأقمشة، وترتيبها فوقَ الأرفف.

لم يسمعْ «سعد» حديثَ «راجح»، فلم تكنِ المسافة الشاسعة الفاصلة بينهما لتسمحَ بذلك.. كما أنّ «راجح» قد حرصَ على خفضِ صوته أثناء حديثه إلى «خاطر» .

مكثَ «خاطر» على وجومه.. فعاجَلَه «راجح» بسؤاله:

– ما رأيكَ في عروسٍ طيّبة الأصل.. طائعة.. عابدة.. حاملة لكتاب الله؟!

غمْغمَ «خاطر»:

– ومَن هذه التي أجدُ بها كلّ تلك الميزات، ومع ذلك، تقبل بظروفي، وحالي البائسة؟!

– حالُها لا يختلفُ عن حالِكَ كثيرًا.. فاطمئنّ!

ثمّ استدركَ «راجح»:

– إنَّها «مُروج»!

اعترتِ المفاجأةُ قسماتِ وجه «خاطر»؛ حيث لم يفكّر مطلقًا في «مروج»، خاصةً وأنّ قلبه مازال يهوى «رينادة» رغم كوْنها حلمًا بعيدَ المنال منه!

ربتَ «راجح» فوق كتفِ الشاب قائلًا:

– عندَ الحبّ تعمى البصائرُ يا «خاطر»، ولن تناسبك فتاةٌ أكثر من تلك الوديعة المخلصة «مروج»!

أومأ «خاطر» علامةً على الاقتناع المبدئي بما قال «أبو عامر»..

فتهلّل وجْه الخيَّاط، وقال:

- إذن، فقدْ حان الوقتُ المناسب لِكي أُفاتحَ السيد «بهي الدين» في أمرِ زواجكما!

بمضْيَفة «بهي الدين» الواسعة، وثيرة الفُرش والوسائد؛ حيث يجتمع كبارُ التجار، والصانعين، ووجَهاء «غرناطة». كان «راجح» يتحيّن الفرصة لمحادثة «بهي الدين» في أمْر زواج «خاطر» و«مروج».. ولكنّ المجلسَ كان يشتعلُ بقضيةٍ مصيرية، كمْ شغلت الرأي العام، وأطارتِ النومَ من العيون!

بدا الهمّ جليًّا على وجوه سادةِ المجلس كافّة، وفيما يحملُ «خاطر» طاولاتِ العصائر، ويدور بها على الحضور، إذْ قال السيدُ «بهيّ الدين» كبيرُ الصاغة بالمملكة كافّة:

- ماذا لو هاجَمَتْ جحافلُ ملوك أوروبا غرناطة؟ فلمْ تبقَ سواها مِن حواضر المسلمين ببلادِ القوط لم تسقطْ بين أيديهم!

ثمّ اسْتطرد:

- علينا أنْ نُجمعَ أمرنا.. فالأمرُ بات خطِرًا، وحكومة «بني الأحمر» تكاد ترضخُ لتهديدات المتربّصين الرّابضين حولنا كالذئاب مِن ملوك أوروبا!

عقَّبَ «نُصير الأشبيلي»، وقد كان مِن كبار تجار المفروشات بإشبيلية قبْلَ أن تسقطَ بين يدي القِشتاليين، وقد اسْتقرّ به المقام في «غرناطة» قبل عقديْن من الزمان:

- علينا أنْ نحمل ما نستطيعُ من أموالنا، ومَتاعنا، ونرحل قبل أنْ يقع ما نخشى وقوعَه!

عمَّتِ الجلبة أرجاءَ المجلس اعتراضًا على ذلك الرأي، فرفع السيد «بهي الدين» كلتا ذراعيه، وهو يقول:

- أرجو الهدوء.. لا بُدّ أن نجد حلًّا سريعًا، فإنّ الغزو باتَ وشيكًا، والخلافاتُ بين «بني الأحمر» قد بلغتْ أوْجَها.. وما أراهم إلّا سيرضخون عاجلًا أم آجلًا.

في هدوءٍ، ورباطة جأشٍ، قال «شاهين الزريقي»، شيخ الصيَّادين:

- فلنؤمّنْ سواحلَنا، فلنْ تخترق مملكتَنا جيوشُهم إلّا من خلالها.

أجمعَ القوم، مؤيّدين مقولته:

- نِعمَ الرأي.

سألَ «راجح الخيَّاط» مُستنكرًا:

- ولكنْ هل تعتقدون أنّنا يمكننا أنْ نتخذ قرارًا، وننفّذه دون أن يعترض «بنو الأحمر»؟!

هزَّ «بهي الدين» رأسَه، وهو يقول:

- نعم.. نعم.. صدقتَ يا «أباعامر»، لا بُدّ أن نناقش الأمرَ مع ولاة الأمر!

مرَّتْ ساعات، وانقضى المجلس، فوجدَها «راجح» فرصةً سانحة للحديثِ إلى السيد «بهي الدين» في أمر زواج «خاطر» و«مروج».

ابتهجَ «بهي الدين» رغمَ قلقه الجارف بشأنِ غرناطة، وما يُحيط بها من مخاطر، وقال:

- لكأنَّكَ كنتَ ثالثنا أمس.

لمْ يفهمْ «راجح» ما يرمي إليه «بهي الدين».. فأوضحَ الأخير:

- كنتُ و زوجتي نتحدّث بذلك الشأن أمس، فلكأنّكَ كنت تشاركنا الرأي ذاته.

تهلّلتْ أسارير «راجح»، وقال:

- الحمد لله.. الحمد لله.. الطيبون للطيّبات.

ثمّ وعد «بهي الدين» «راجحًا» بإتمام تلك الزيجة، وتعهّد بتكفُّله كافّةَ نفقاتها بالصيف القادم.

بلغَ الخبرُ مسامعَ «مروج» التي باتت ليلتَها تلهجُ بحمد ربّها على أنْ حقّق لها أمنيتها الأثيرة، أمّا «خاطر» فقد استقبلَ الخبرَ دونَ اكتراثٍ، فمازال حبّ «رينادة يسري بدمائه!

ولكنّ الفرحة قد أبَتْ أنْ تزورَ قلبَ «مروج»، فقد توفّيتْ والدتها «زُبيدة» قبل حلول صيف عام ١٤٥١م.. ممّا أوجبَ على السيد «بهي»، إرجاءَ زواجها من «خاطر» حينًا، حتى يهدأ حزنُها لرحيل أمها.

***

الحادي، والعشرين من إبريل عام ١٤٥١م..

استهوتْ «ويليام» تلك الرحلةُ البحرية إلى مَملكة البهاء، فقصَدَها مِرارًا، واليوم قد أتى مِن أجل «هيلدا».

بسوقِ غرناطة الكبير، وفي حانوتِ كبير الصاغة «بهي الدين»، وقف «ويليام» وإلى جانبه ابنه «ساموِيل» يتأمّلا المشغولاتِ الذهبيةَ، والمرصّعة بالجواهر الثمينة، وتلك المطعَّمة بالأحجار الكريمة!

كلّها رائعة، ولكنْ ثمّة قلادة تفوق كلّ ما رأى روعةً، وجمالًا..

إنّها قلادة ذهبية يتدلّى منها فصّ فيروزي، تُحيطه ورداتٌ صغيرة من الماس البرَّاق، قد انْهمكَ السيد «بهي الدين»، في تشكيلِ تصميمها النادر البديع.

في لغةٍ قشتالية يعيَها الطرفان، قال «ويليام» بعد أنْ دنا من الصائغ:

- إحممم.. مِن فضلك، أريد تلك القلادة.

رفعَ الصائغ المحترفُ وجهَه المتناسق، ناظرًا إلى الشابّ الوسيم بعينين واسعتين، وابتسم قائلًا:

- ولكنّها ليست للبيع يا سيِّدي!

زمَّ «ويليام» شفتيه، ثمّ قال:

- اطلبِ الثمن الذي تريد، فلنْ أشتري سوى تلك القلادة.

اتّسعتْ ابتسامةُ الصائغ، وأشارَ للشابّ بالجلوس، قائلًا:

- تفضَّل.

ثمّ قال:

- معذرةً.. لقد صنعتُ هذه القلادة مِن أجل زوجتي.

سكتَ هنيهةً، ثمّ تابعَ «بهي الدين» حديثَه، وهو يلقي نظرةً تشعّ سعادة نحو «ساموئيل»:

- فنحنُ متزوجان منذ اثني عشْرة سنة، ولمْ نُرزق بالأطفال، وأمس فقط؛ علمتُ بحمْل زوجتي بطفلنا الأوّل، لذلك اعتزمتُ أنْ أهديها هدية مميزة بهذه المناسبة السعيدة التي لطالما حلمنا بها!

- أهنِّؤكَ سيِّد........

- اسمي «بَهي الدين» يا سيِّد.....

- «ويليام» يا سيِّد «بهي الدين». وهذا ابني البكري «ساموئيل». لقد جئنا من «قشتالة».

- بُورِكَ لكَ به يا سيِّد «ويليام».. ومرحبًا بكما دائمًا.

تحمَّس «ويليام» لِأن يقول:

- سيِّد «بهي»، هل يمكنكَ....؟!

كان «بهي الدين» شخصًا متّقدَ الذكاء حتى يمكنه أنْ يقرأ أفكارَ مُحدثه دون عناء.. رغمَ أنه لا يكبر «ويليام» سوى بعاميْن أو ثلاثة كحدٍّ أقصى، ولكنْ بحكم خبرته الواسعة بالتعاملِ مع الناس قدْ أدرك ما يتردّد «ويليام» في قوله.. فأومأ الصائغُ مؤكدًا:

- نعم.. يمكنني أنْ أصنع لكَ قلادةً مماثلة لتلك القلادة تمامًا.

أسرعَ «ويليام» يسأل في فرحةٍ:

- متى؟!

ثمّ غمْغَم:

- أعني أنني سوفَ أعود الليلة إلى «قشتالة»، فهلْ يمكنك أنْ تنتهي من صنعها اليوم؟!

- بكلّ تأكيدٍ!

قالها «بهي الدين» مُبتسمًا.

قدَّم «ويليام» للصائغ صرّةً من النقود.. وهو يقول:

- أعلمُ أنّ هذا المال لا يُعادل نصفَ ثمنها، ولكني أعدُكَ بأنْ أعود قريبًا، ومعي باقي المبلغ، فهي هدية لزوجتي «هيلدا»، تلك المرأة التي لم تألُ جهدًا في إسعادي، وأبنائي.

شدَّ «بهي الدين» على يدِ «ويليام»، وهو يقول:

- وأنا لنْ آخُذ منكَ شيئًا مِن ثمنها حتى تعودَ إلى غِرناطة مرةً أخرى.

الْتمعت دموعُ الامتنان بمُقلتي «ويليام» الخضراوين، وشكرَ الصَّائغ، ووعدَه بالمرور عليه قبل الغروب، حتى يتسلَّم القلادة.

رُغمَ أحزان «مُروج» التي لم تلتئمْ بعدُ لرحيل والدتها «زُبيدة»، إلّا أنَّها ابتهجتْ أيّما ابتهاج، حالما أخبرتها سيدتُها «العلياء» بتأكُّد خبرِ حملها.. فأعدّتْ «مروج» الحلوى، ووزّعتها على بيوت الجيران، والمارة.

في تلكَ الأثناء، أمرَ السيد «بهي الدين»، بذبح الذبائح، وبسط الموائد، وإطعام الناس، خاصة الفقراء، والمساكين منهم...

ثم سرعان ما عادَ «بهي الدين» إلى بيته الفاره، يحمل قلادةَ زوجته «العلياء»، فقد انْتهى مِن صُنْعها على نحوٍ ساحرٍ فريد، وقدْ كانت العلياء ثلاثينيّة العُمر، هاجعةً بمخدعها، كنجمةٍ تتوسّط السماء، فائقةَ الحُسن، فارعةَ القدّ، مليحةً كعروسٍ بليلة زفافها.

قبَّل الزوجُ المُحبّ جبينها، وأنْهضَها برفق، فاستوتْ جالسة تبتسمُ في حبور، فضمّها إليه، وهو يلهجُ بالحمْد للعاطي الوهّاب، فيما تنسابُ دموعها فرِحةً بحمْلها، وبرؤياه قادمًا على غير موعدِه المعتاد، يُطوِّقُ عنقَها بقلادةٍ رائعة أدركتْ في الحال، أنَّه هو مَنْ صنعها بيديه، فليس بغرناطة بأسرها مَن يفوقُه براعة، وخبرةً بمجالِ صناعة الحُلي، وتشكيل المجوهرات الثمينة!

ثمّ أمر الصائغ الخبيرُ بنحرِ العجول والجَزور- (ما يصلح للذبح من الإبل)- وتوزيع لحومِها على الناس جميعًا بالأسواق، وبِحي «البيّازين»

خاصةً حيث يقع منزله، وصاغتُه الشهيرة، احتفالًا بحمْل زوجته «العلياء»..

ثمّ عاد إلى حانوته كي يصنع قلادةً أخرى من أجل «ويليام»، كما وعده.

مِن بين المارّة، توقفتْ امرأةٌ نحيلة الجسد، يقف إلى جوارها زوجُها القصير عريضُ المنكبين، تتجلّى على حالهما وعثاءُ السفر، وآثارُ النَّصَبِ، والجوعِ، والظمأ.

قالتِ المرأة، وهي تشهقُ في دهشة:

- أترى ما أرى يا «حِنْزاب»؟ أترى كلّ هذه الذَّبائح؟!

بفم فاغرٍ، وعينين كادتا تخْرجا مِن محجريْهما، حملقَ الرَّجُل حملَقةَ ثعلبٍ يفتك به الجوع، فيخال النباتاتِ الشائكةَ، أرانب، وغزلانًا بصحراءٍ مُترامية الأطراف.

وقالت «بوران» وهي تتحسّس بقرةً من بيْن الأبقار التي لم تُنحَر بعد:

- خُذ هذه، لعلّ لحمَها شهي، ورائع كما جسدها السمين!

فإذا بالحوذي- « أي الجزار»- مِن دون وعي، ينحرُ البقرة السمينة التي أشارت عليه «بوران» بذبْحها!

ولكنّه سرعان ما اغتمّ الرَّجُل عندما بقر بطنها، فإذْ ببطن البقرة عجلٌ صغير، فماتَ الجنين بعد أن حرَّكَ قوائمَه ببطء، وكادَ الجزار يُجنّ، فلمْ يسبق له أنْ ذبح بقرةً حاملًا!

لقدْ ذبح الرجلُ البقرةَ التي استبعدَها بنفسه قبلَ قليل؛ لأنّه أيقن بخبرته بأنه «عِشارٌ».. فكيفَ فعل ذلك؟!

لا يدري!!!!!!!!!

لم تأبَه «بوران» بما حدث بسببها، وسألتْ أحدَ المارة عنْ تلك المناسبة التي نُحرتْ لِأجلها كلّ تلك الذبائح، فأجابها؛ بأنَّ زوجةَ كبير الصاغة قد بُشِّرت بحمْلها الأولِ أمس، بعد زواجٍ دام لأكثرَ من عشر سنوات بلا إنجاب!

فقالت «بُوران» هامسةً لزوجها «حِنْزاب» في لهجةٍ آمِرة:

- هيّا أيها المعتوه.. سِرْ، وافعل مِثلما أفعل تمامًا.

تبِعَها «حِنزابُ» في بلاهة، وطاعةٍ عمياء، حتى توقّفتْ «بوران» ذاتُ الوجه المجدب، والجسد الأعجف، أمام دار «بهي الدين»؛ حيث تُنحر الذبائِح، وهتفت تنادي:

- يا أهلَ الخير.. يا كرماءَ البلاد.

ثمّ صاحتْ بصوتٍ مُفزِع:

- غريبان.. ضائعان.. جائعان.. بائسان.. فهل مِن مُغيث؟!

خرجتْ «مروج» على إثْر ما سمعت، تقول ناهيةً:

- كُفّي عن الصياح يا امْرأة، ماذا بكِ؟!

عاودتْ «بُوران» الصراخ، والتباكي الماكر، يشاركُها زوجُها اللئيم في تسوّلٍ رخيص:

- سنموتُ يا قوم، وليس لنا بأرضكم دارٌ، ولا عَشاء.. فمَن لنا سوى أثرياء العباد أمثالكم؟!

نهضتِ «العلياء» تستطلعُ الأمر مِن خلال شرفتها بالطابق العلوي من المنزل، وعندما تيقّنت مِن كوْنهما سائليْن غريبين، أمرتْ «مروجَ»، بأنْ تدع المرأةَ تدخل للقائها.

دلفتْ «بوران» في سرعةٍ إلى داخل بيت «العلياء»، يتبعها «حنزاب»..

فنهرته «مروج»:

- المرأة فقط.

مكثَ «حنزاب» أمام الباب في انتظار زوجته، عسى أنْ تأتي له بغنيمةٍ ثمينة، هكذا اعتادا أيْنما حلّا منذ خروجهما، مُتستّرين تحت جُنح الظلام من شبه الجزيرة العربية، خائفين..

- ما كلّ ذلك الثراء؟!!!!

قالتها «بوران» وهي تشهقُ دهشةً ممّا ترى أمامها مِن إمارات النعيم ببيت «بهي الدين»، حيث الفُرُش الثمينة، والزخارف، والأعمدة الرّخامية اللامعة، وروائح المسك والعنبر التي تملأ الأرجاء، فإذْ بِفُسيفساء[1] رائعةٍ شكّلتْ منظرَ حديقةٍ غنّاء، معلقة على أحد الجدران؛ تسقط مُفتّتة!

- أنتِ يا قدمَ الشؤم، قولي ما شاء الله.

قالتها «مروج» غاضبة.

(١)الفُسَيْفِسَاءُ : قِطَعٌ صغارٌ ملوَّنةٌ من الرخامِ أَو الحصباءِ أَو الخَرَزِ أَو نحوها يُضَمُّ بعضُها إلى بعض فيكوّن منها صور ورسوم تزين أَرضَ البيتِ أو جُدرانَ وَتُؤَلِّفُ أَشْكَالاً هَنْدَسِيَّةً جَمِيلَةً.

على إثْر سقوط الفُسيفساء، وتناثر جزيّئاتها؛ هلعتِ «العلياء»، وعندما رأتْ ما حدث قالت:

– قدَّرَ الله، وما شاء فعل.

فمالتْ «مروج» على أذنِ سيّدتها «العلياء» التي جلستْ فوقَ مقعدٍ ناعم وثير، وقالت هامِسة:

– سيّدتي.. أرجوكِ أخْرِجي تلك المرأةَ الحاسدة من البيت، فمنذ حلتْ بنا، والكوارث تلاحقنا.

أشارتِ «العلياء» لـ «مروج» أنِ اصْمتي، ثمّ سألتِ المرأة التي لم تفتأ تحملقُ في كل شيءٍ حولها في تعجبٍ، واندهاش شديد:

– مَنْ أنتِ، وماذا تُريدين؟!

ازدردتِ المرأةُ ريقَها، وهي تُحملق بالقلادةِ الساحرة التي تتدلّى مِن عنق العلياء، ثمّ قالت في صوتٍ مُرتعش:

– أنا امْرأةٌ بائسة يا سيدتي، قادمةٌ في رحلة سفرٍ شاقة من جزيرة العرب؛ حيث عمَّ الجفاف أرضنا، ونفدَ الكلأ، ونفقتِ الماشية، وقد سمعْنا بغرناطة، وما بها من خيرٍ وفير، فقدمتُ، وزوجي.. عسى أنْ نجد هنا ما يعْيننا على البقاء.

كانت «بوران» تتحدّث دونَ أن تُبعدَ ناظريها عنْ قلادة «العلياء».. فما أنِ انتهت مِن مقولتها، حتى انقطع طوق القلادة، وسقطتْ أرضًا.

اعترى الغضبُ قسماتِ «مروج»، فقالتْ في حدّة، فيما تلتقط القلادة، وتعطيها إلى سيّدتها:

– اغْربي عنْ وجْهي يا ذاتَ العين الثاقبة.. هيّا اخرجي ولا تعودي إلى هنا ثانيةً!

كظمتِ «العلياء» تأثّرها بما جرى، وقالت، وهي تنظرُ إلى القلادة بين يديْها بأسًى:

– ما اعتدتُ ولا زوجي أنْ نردّ سائلًا، فأخبريني ما اسْمُك؟ ما تريدين مباشرةً؟ وبوضوح.

فقالتِ المرأة وعيناها تشعّان طمعًا:

– اسْمي «جُذوة»، ويقال لي؛ «بوران».

فقالت «مروج» في فزع:

– «جُذوة» مِن النار.. و»بوران» مِن البَوارِ، والقحط.. أعوذ بالله منكِ!

فقالت «بوران» موضّحة:

– لقدْ قالتْ لي أمّي إنّها سمّتني «جُذوة»؛ لأنني وُلدتُ بظهيرةٍ قائظة مامرّ عليها مثلها منذُ جاءت إلى الدنيا.

أمّا «بوران»، فهو لقبٌ أطلقه عليَّ الناس؛ لأنني تزوّجت بسبعةِ رجال، ما حملتُ من أيٍّ منهم يومًا، وقد طلّقني الستة الغابرون تِباعًا، وتزوّجتُ قبل خمسِ سنواتٍ مِن هذا الـ «حِنزاب» الأبْلَه، ولم أنجبْ منه كذلك!!

كانت السيدة «العلياء» تُخفي امْتعاضَها ممّا تسمع مِن هذه الـ «بوران»، ولم تعقب، فقالت «مروج»، وانْقباض صدرها يزداد، متوسّلة لسيدتها:

– أتوسلُ إليكِ سيدتي.. اطردي تلك المرأة في الحال.. فوالله لَهِـيَ نذير شؤم لعين!!

نهضتِ «العلياء» من مجلسها، وهي تقول قبل أنْ تختفي عن ناظريهما:

– أعطِها طعامًا يا «مروج»، ودعيها تذهب.

– سأذهب لكي أُحضرَ لكِ الطعام، إيّاكِ أن تتحركي مِن موضعك، وإيّاكِ ثمّ إياكِ أنْ تحملقي في شيء آخر بعينيكِ المخربتين.

– اجْعليني خادمةً لديكِ سيدتي بهذا البيت!

توسّلتْ «بوران».

ولكنّ العلياء لم تُعرْها اهتمامًا.. واكتفتْ بالصمت، ومواصلة المسير نحو غرفتها.

سرعانَ ما عادت «مروج» بالطعام، وهي تقول:

– لا ترينا وجْهَكِ مرةً أخرى.

ثمّ شرعتْ بِحذرٍ في جمْع أجزاء الفُسيفساء المتناثرة كالزّجاج هنا، وهناك قبل أن يعود السيد «بهي الدين»، ويرى تلك الكارثة!

انتبَذتْ «بوران» و«حِنزاب» ركنًا قصيًّا عنِ الأنظار بالطريق، وراحا يلْتهمان الطعام الشهي في نَهَم، بينما يسألها «حِنزاب»:

– ويحكِ يا «بوران»! أمَا طلبتِ مِن السيِّدة أن توفر لنا مبيتًا؟!

فقالت «بوران» مِن بين أسنانها، في حقدٍ سافر:

– إنّ سيدة البيت ترفلُ في ثراءٍ لم يخطرْ لي يومًا على بال.. ولعلّها كانت ستعطيني المزيد، ولكنّ خادمتها السمراء اللعينة أرادتْ طردي من كلّ ذلك النعيم بأقصى سرعة.

يا ويْلها مِنّي!!

– لماذا تقولي يا ويْلها؟! هل أرادتْ سيدة الدار طردَكِ كذلك؟!

سألها «حِنزاب» متعجبًا..

فقالت «بوران» في غلّ حارق:

– لا.. لم تطردْني السيدة.. بل خادمتها فقط.. ولكنّ السيدة لم تقبل بي للعمل في دارها، ثمّ لماذا تحوذَ هذه السيدة كلّ ذلك الحُسن، والنعيم، والدّعة، وتُرزقُ بالذرية كذلك؟ بينما لم أحصد أنا من الدنيا سوى الفقر، وذُلّ الحاجة، والعقم، وأنتَ– بقصرِكَ، ودمامتكَ– معًا؟!

ضحكَ «حِنزاب» فيما تتناثرُ بقايا الطعام من فمِه الواسع، وقال:

– ولِمَ تعضينَ يدًا مُدّتْ إلينا، ونحن نكاد أنْ نموت جوعًا أيتها الناكرة؟!

أرْعدتْ زوجته، وأزبدت، وهي تقول في صوتٍ هادر:

– وأنتَ أيها المُخلِص الوَرِع.. ماذا فعلتَ بسيدكَ مالكِ الماشية، بأرضِ العرب؟!

ألَمْ تسرق ماشيته، وتبيعها، ثمّ تجعلنا نهربُ في عتمة الليل خشيةَ عقابه؟!

– ولكنّ لصوص الصحراء، قدْ سرقوا كلّ ما سرقتُ من مال!

تلعْثَم الزوج الخبيث «حنزاب»..

– لأنّها لم تكنْ سرِقَتكَ الأولى.. يا لِصّ الماشية.. لكم اعتادتْ بطونُنا أن تمتلئ بلحوم الماشية المسروقة!

ردّتْ «بوران» ساخرة منه..

تمْتمَ الزوج في خِسَّة:

– إنّ السرقة تجعلني أحصلُ على الطعام في يسرٍ .. وسأظلّ أسرق حتى أصبح ثريًّا ذات يوم!

ضحكتْ «بوران»:

– هيهاااااااات.. ثمّ هيهاااااااااات.. ستبقى معدمًا، وستظلّ نيران الغِّل تستعرُ بصدري كلّما رأيتُ مَن هُم أفضل منّا حالًا!

ظلَّ الزوجان يتلاوَمان هكذا حتى غربتِ الشمس، وإلى أنْ عاد السيد «بهي الدين» إلى داره بعدَ أن سلَّمَ «ويليام» القلادةَ المماثلة لقلادة زوجته.. وما أنِ اقْترب من داره حتى اعترضَ «حِنزاب» بمكره المعهود طريقَه يتوسّل، ويتزلّف إليه حتى يمنحَه بيتًا يأوي إليه و زوجته «بوران» حتى حين.

فأمر «بهي الدين» مساعدَه «خاطرًا» بأنْ يصحبهما حتى بيتٍ خالٍ يملكه، فيمْكثا به حتى يجِدا منزلًا!

عاد «خاطر» إلى غرفته المجاورة لحانوتِ السيد «بهي الدين»، فيما يتحسّس جيبَ قميصِه، ولكن يبدو أنّ أحدهم قد سرقَ ما كان بحوزته مِن نقود!

قبلَ أن تغمضَ عينا «بوران»، همستْ بصوتٍ كالفَحيح، بينما تصرّ على أسنانها في حقْد:

- يومًا ما، سأنتقمُ منكِ أيتها «العلياء» المُنَعَّمَة، ومن خادمتكِ اللعينة كذلك.. أقسمُ لكما!!

ليلة العودة إلى «قشتالة».. فوق ظهر الباخرة..

فوقَ ظهر الباخرة العائدة إلى «قشتالة»، استوى «ويليام»، وطِفلُه «ساموِيل» الذي كان يتأمّل قلادةَ والدته «هيلدا»، التي صنعها السيد «بهي الدين»، في إعجابٍ طفولي بالغ..

ثمّ راح يقول:

– أبي....!!!

– ماذا يا «سامو» ؟!

– أريد أن أعطي القلادة لأمي بنفسي!

– لكَ ذلك يا حبيبي.. ولكن احذرْ من أن تُضيِّعها، فأنا لمْ أسدّد ثمنها بعد.

قالها «ويليام» مُداعبًا..

ابتهج الصغير قائلًا:

– لا تخف يا أبتِ.. ها أنا أضعُها بحقيبتي الصغيرة.

أخفى «ساموِيل» قلادةَ أمّه بالحقيبة التي يُعلِّق ذراعَها بعنقه أينما ذهب، ثمّ ضمَّ الحقيبة بين ذراعيه كما لو كان يحتضنُ هِرَّه الأبيض «أرنولد»، ثمّ بدأ النعاس يداعب جفنيه، فإذْ به يقول:

– أجلْ.. سأفعل.. أريدُ أن أراها سعيدةً دائمًا!

– ماذا تقول.. « سامووو » ؟! سألهُ أبوه.

قال «ساموِيل» بصوتٍ يغالبه النوم:

– إنّهُنّ بنات السماء يا أبي.. تقلْنَ لي: أعطِ القلادة لأمِّكَ قبلَ أن تذهب.

في اضطرابٍ قال «ويليام»:

– قبل أن تذهب إلى أينَ يا «ساموِيل»؟!

ولكنّ الصغير كان قد غطَّ في نومٍ عميييييق، ولمْ يُجب سؤال أبيه!

كاتدرائية قشتالة الكبرى.. عقب مقتل «نيكولاس»

مازالت فاجعةُ مقتل «نيكولاس» الغامضة، وعدمُ العثور على قاتلِه بعد؛ تثير الهلعَ في نفوس الجميع، ولكنْ لا بدّ من إجراء الاقتراع لاختيار راعٍ للكاتدرائية قبل شروق شمس الغد بأمْر «خوان الثاني» ملِك قشتالة.

جرى الاقتراع على قدم وساق، وقام الراهب «بودلير» بجمع بطاقات الاقتراع، وفرْزها، فإذْ بملامحه تتهلّل، ولكنه تكتَّم إعلانَ النتيجة حتى يطَّلعَ «خوان» الملِك عليها بنفسِه تجنبًا للصدام بينه وبين «موردخاي»!

لقد صبَّ اختيارُ المجلس الكهَنوتي في معين «موردخاي»، وما سوى عددٍ ضئيل من الرهبان، قدْ أعطوا صوتَهم للأسقف «بليدي»!

بصباح الغد، كانت بطاقاتُ الاقتراع كلها بين يدي الملك «خوان الثاني»، وبحضور كافة طاقم الرهبان، وقدِ ارتسمتْ على وجه «بليدي» ابتسامةُ الواثق، ممّا أثارَ الحيرةَ والتساؤل في صدور أكثر الرهبان!

وإذْ بالملك يُعلن ترقيةَ الأسقف «بليدي» لمنصب الراعي الأكبر لكاتدرائية قشتالة الكُبرى!!

سرتْ الهمْهَمات، والهمساتُ بين الجميع..

معظمُ الرهبان في حالٍ بادية من الحيرةِ والمفاجأة!!

ولكنّ «خوان» لم يدعِ الفرصة لأيّ منهم للاعتراض!!

سواء المناصرين لموردخاي، أو للأسقف بليدي؛ كلّهم على يقين، بأنّ نتيجة الاقتراع قد زُوِّرتْ.. والموتُ سيكون مصيرَ كلّ مَن يريد الوقوف ضدّ رغبة ملِك «قشتالة»!!

اسْتشعرَ «بودلير»، بحكمةِ رجلٍ أشيب، أنّ ثمّة خطرٍ يحوم حول «موردخاي»، وحول كلّ منْ مازالَ يؤازِره؛ فقال خلالَ طريق العودة من قصر الملك إلى الكاتدرائية، بينما يشدّ على يدِ «موردخاي»، ويهمسُ له:

- «موردخاي»، أنتَ في خطرٍ.. لا بُدّ أن تغادر الكاتدرائية بأسرع ما يمكن!!

رمقه «موردخاي» بنظرةٍ معاتبة.. فاستطردَ الصديق الوفي «بودلير»:

- لو تركَكَ الملكُ و شأنكَ كراهبٍ بيننا، فلنْ يدعكَ «بليدي».. فأنتَ أدرى بما يعتملُ بنفسه حيالك منذ سنوات!

أومأ «موردخاي» مؤكدًا، ثمّ قال:

- أعلمُ يا «بودلير». ولكن......!!

ربتَ «بودلير» فوقَ كتفِ «موردخاي».. وقاطعهُ قائلًا:

- أعرفُ يا صديقي بأنكَ قدْ وهبتكَ حياتك للكاتدرائية، وللناس، ولكنْ قد حان موعد المغادرة.

ثمّ تابعَ:

- لي مزرعةٌ صغيرة كما تعرف بشرقِ قشتالة.. هي لكَ من الآن.. اجمعْ أغراضك فوْر وصولنا للكنيسة، وسأوصلك بنفسي حتى هناك، حيثُ لن تصل إليكَ أيادي الغدر !

وجدَ «موردخاي» الحياة الهادئة بمزرعة «بودلير»، بعد أنْ ودَّعَ «وِيليام» و»چِـبروتْـيـا»، وصُحبتَه من الرّهبان الأوفياء لهم، والذين قد آلمهم فراقه.

ولكنّه باتَ يفتقدُ أحبابه، ورفاقه، وذكرياتِه، وسنواتِه الفائتة!

- لعلَّكَ ستعودَ قريبًا، يا «موردخاي»!

لطالما همسَ بها إلى نفسه، يراودُه الأمل البعيد للقيا الأحِبَّة ثانيةً!!!!!!

الفصلُ العاشر

(إذا ما هبَّتِ الرياحُ العاتية؛ فلنْ تُبقي، ولن تَذَر!!)

الثاني والعشرون من أبريل ١٤٥١م.. مملكة «قشتالة».

كادتِ الرياحُ العاتية أن تقتلعَ صومعة العرَّافة، وكذلك أكواخَ الصيادين حول الغابة، واعترى الفزع العامّةَ، فقد كانتْ ليلة مشهودة، زمجرتْ بها الرياح، وكشَّرت بعضُ وحوش الدّغل عن أنيابها، وهاجمتْ بيوتَ البسطاء، وسقط عددٌ من الضحايا.

ضمَّتْ «هيلدا» طفليْها «روبرت، وإيڤ» بين ذراعيها، مُرتعبة، تتمتمُ بالدعاء، يكاد فؤادها يتمزّق ما بين الخوفِ على طفليْها الهاجعين بين يديْها، وزوجها وطفلها «ساموييل» الغائبيْن!

راقبتْ «چِـبروتْـيـا» الغابة، والسماءَ المعتمة التي اختفى قمرُها خلف الغيوم من خلال نافذتها المتهالكة، وأخذت تغمغمُ بكلماتٍ غير مفهومة، بعد أنْ انطفأ مصباحها الزيتي من أثر الهواء المندفع في قوّة إلى داخل الصَّومعة.

لقد استشعرتْ خطرًا وشيكًا قابَ قوسين منها، ومن «ويليام»، وأسرته!!

بل ومِن كلّ مُخالف لغايات «خوان»!

ما أن هدأتِ العاصفة، حتى تسلّلتْ خيوط الشفق بالأفق، وقدْ تغيَّر وجهُ الحياة حول الصومعة، حيث تطايرتْ أسقفُ بعض الأكواخ، وسقطتْ أخرى فوق رؤوس ساكنيها!!

طوتِ العجوز ملابسَها الضئيلة، تأهّبًا للرحيل!!

ولكنْ إلى أين؟!

هي نفسُها لا تدري إلى أين ستذهب؟!!

لا تريدُ أن يولدَ لهذا الــ «خوان» طفلٌ يحملُ أفكاره العدائية، وجنونَه اللانهائي!

لا تريدُ أن يكون ميلادُ الجحيم على يديها!!

***

أمّا الملكة «إيزابيل أفيس»، فقد أوشكتْ على الهلاك، فمنذُ ليلة أمس، وآلامُ الولادة تداهمُها، وقد عجزَ أطباء القصر عنْ فعل شيء حيالها.

اهتاجَ الملك «خوان الثاني»، وراح يهدر، ويصيح هذا الصباح:

- اجْلبوا لي اللعينة «چِـبروتْـيــا» على الفور!!

أرسلَ قائدُ الحرس الملكي الحارسَ «لورجوا» في طلب العرَّافة، ولكنّ الحارس «باترسون» تطوَّعَ لإحضار العرَّافة نيابةً عن «لورجوا»؛ لأنه- أي «باترسون»- يعرف الطريقَ إلى صومعتها جيدًا، ممّا جعل قائد الحرس يوافقُ في الحال، فالملك في ذُروةِ غضبه!

تناهى إلى مسامع «باترسون» صوتُ الملك مجلجلًا.. يتوعّد «چِـبروتْـيـا» بالقتل بساحة عامة على مرأى ومسمعٍ مِن الرائح والغادي، إذا لم تسعفِ الملكةَ وما بأحشائها!

في فزع، هرعَ «باترسون» إلى «چبروتيا»، وأخبرها بما علمَهُ قبل قليل.. ثمّ قال لها متوسّلًا:

- هلُمِّي يا أماه.

أنصتتِ العرَّافة إلى «باترسون»، ثمّ حزمت أمرَها قائلة:

- لنْ أذهب معك يا «باترسون»!

في ارتعابٍ قال الحارسُ في توسلٍ:

- ولكنّ الملك لن يكفَّ عن البحث عنكِ، سيظلّ يطاردكِ حيثما كنتِ حتى........

بثباتٍ، وجديةٍ قالت العرَّافة:

- حتى ماذا يا وَلَدي؟!

حتى يقطعَ رأسي أمامَ جموعِ الشعب!!

لا يهمّ يا «باترسون»؛ فإنّ الثبات على المبدأ لَجِهادٌ لو علمتَ عظيمٌ..

و لو خِفتُ بطشَ «خوان»؛ لتنازلتُ عن كلّ صوابٍ تعلمته في حياتي!!

- إذن فلتأتِي معي إلى منزلي؛ حيث لن يفكر أحدٌ بوجودك هناك. أرجوكِ وافقي.. حياتُكِ باتتْ على المحكّ.. وليس أمامنا وقتٌ للتفكير!!

قبِلتْ العرَّافة بعرضِ الحارس الوفي، بينما عادَ هو إلى القصر ليخبرَ قائد الحرس الملكي بعدم عثوره على أثرٍ للعرَّافة بكافة الأنحاء!!

بعدها مرَّ بكوخ «ويليام» مُتحسّسًا أخبار أسرته، ثمّ عاد إلى بيته الخشبي البائس عند قرب الظهيرة، بعدما انتهت مناوبتُه ليخبرَ العرّافة بأنَّه قد تيقَّن مِن أن زوجة «ويليام» و طفليْه بخير؛ حيث رأى الزوجةَ الشابة أمامَ الكوخ وقد بدا أنها تترقّب عودة زوجها!

ثمّ أكَّدَ على العرَّافة ألَّا تخرج من البيت مهْما حدث؛ لأنّ جنود الملك ينقّبون عنها في كل مكان!

ومن ثمّ انطلق «باترسون» ليُضلّل الجنود الباحثين عن العرَّافة فلا يهتدوا إلى مكانها الحالي.

توسّطتِ الشمس كبدَ السماء، وها هو «ويليام» عائدًا إلى كوخه، يحمل أغراضه، وابنه «ساموئيل» الذي بدأت الحمّى تزحف نحو جسده الصغير، فقد نالتْ منه برودةُ الليل فوق ظهر الباخرة.

استوقفَ «ويليام» مشهدُ عددٍ كثيفٍ من جنود القصر يجول بالأنحاء، يسأل المارة عن شيء لا يعرفه!

فاستوضح «ويليام» الأمرَ من بعض الناس، فيعلم على الفور، بأنّ الملك قد جُنّ جنونه، ومنذ الصباح الباكرِ وجنودُه يفتشون هنا وهناك عن عرَّافة «إيبريا»، وإذا عثر عليها قبل أن تضعَ الملكة حملها؛ فلسوف يقطع رأسَها بساحة قشتالة الكبرى!!

هرعَ «ويليام» نحو كوخه، وأسْلمَ «ساموئيل» إلى أمِّه «هيلدا»، ووضع أغراضه، وركضَ صوب صومعة العرَّافة، علَّهُ يستطيع إنقاذَها من وعيد «خوان»!!

ولكنّ «روبرت»- ابنه الأوسط- ركضَ في أثره باكيًا، يريد أن يصحبَه معه، فحملهُ «ويليام»، واختفى عن ناظري «هيلدا» التي مكثتْ تطبّب طفلها «ساموئيل»، الذي راح يهذي من أثر الحمي.. قائلًا:

- أجَل.. سأفعل.. اليوم.. حسنًا.. سأنجزُ الأمر كما طلبتُنّ!!

انتابَ «ويليام» الفزعُ الجارف، وظنَّ أن جنود القصر قد عثروا على «چِـبروتْـيــا» عندما ضرب باب الصومعة بركلةِ قدمٍ عنيفة، فانفتحَ، ولم يجدْ للعرّافةِ أثرًا بالصومعة!!

راح يفتّش بالأرجاء، ويسأل كلَّ مَن يلتقي عنها، ولكن لم يرها أيٌّ منهم!!

ثمّ عادَ إلى الصومعة تارةً أخرى، ليجدَ النيران تلتهمها، وثمّة جَرذ صغير يفرّ من خلال فتحةٍ بمحاذاة بابها المشتعل..

فيما أرسل قائدُ الكتيبة الباحثةِ عن العرّافة إلى الملك خبرًا أجّجَ ثورته، حيث أخبره الرسول بأنّ العرَّافة كأنما تبخَّرتْ، فلم يترك الجنود شبرًا بالمملكة لم يبحثوا به!!

أمرَ «خوان» بإضرام النيرانِ بأكواخ السّكان حول الغابة، فلعلَّ العرّافة مختبئةٌ بواحدٍ منها، وهو يهدر في غضب:

- الجُرذان تغادر الجُحور عندما تهدّدها النار !

أحْرقوا كافّة الأكواخ حول الغابة!

ولتأتونني بالعرَّافة الخبيثة حيّةً، أو جثةً هامدة!!!

صرخاتُ النسوة، وأصواتُ سكان الأكواخ تصمّ الأذان، يركضون هنا وهناك، منهم مَن يحمل زادًا.. ومنهم مَن يحمل طفلًا، ومنهم من يبكي في فزع؛ فقد نالتْ مشاعلُ جنود «خوان» من حيث يأوون، و»ويليام» يحملُ ابنه الأوسط «روبرت»، ويهرع صوبَ كوخه الذي التهمت النارُ معظمَ أجزائه!!

صرخ «ويليام» بصوتٍ يشقّ الآفاق:

- «هيلدااااااا».. «سااااااموييييييل».. « إيييييييييييييف»!!!

استدار على إثْر سنابك خيول الجنود خلفَه، فأنزلَ طفلهُ «روبرت» وهجمَ في غضبٍ على أقربهم إليه، وإذْ بجنديّ من جنود القصر فوق ظهر فرسٍ يضربه فوق رأسِه ضربةً بقضيبِ رمحه، قد أسقطتْه مغشيًّا عليه!!

انتبهَ إليه «دانييل» قائدُ كتيبة الحراس، بينما هو مسجّى غائب عن الوعي، وابنُه «روبرت» يصرخ في فزع بجواره.. فغمغم «دانييل»:

- أنتَ ثانيةً؟!!!

ثمّ أمرَ جنوده في قوّة:

- احملوه معنا حتى ينظرَ جلالة الملك في أمره!!

فإذْ بالحارس المُخلص «باترسون» يتقدّم مُهرولًا بأنفاسٍ متقطعة، يرجو قائد الكتيبة أن يتركهُ له قائلًا:

- سيِّدي قائدَ الحرس.. اتركْه لي لو تكرّمت.. فأنا أعرفُ بعضَ أقاربه، وسوف أوصله إليهم.. فهو شخصٌ مختلّ يا سيِّدي، ويستحق الشفقة!!

صمتَ «دانييل» هنيهةً، ثمّ هددَ:

- لو رأيته بطريقي مرةً أخرى؛ سأقتله.. عليكَ أيها الحارس أن تخبرَ أقاربه بذلك.

قال «باترسون»، وهو يزدردُ ريقَه في هلع:

- كما تريد يا سيِّدي.. أعدُكَ بألا تراه ثانيةً.

لم يعقّب القائدُ قوي البنية، وأومأ برأسه لجنوده أنْ «هلمّوا لنذهب لمواصلة عملنا»، فثارَ الغبار، عندما ركضت الخيول مبتعدةً بفرسانها.

سعلَ «باترسون»، وأنهضَ «ويليام» في عناء؛ حيث كان ذا قامةٍ فارعة، وجسد قوي، يفوق قدرةَ الجندي على حمله..

تبعَهما الصغير «روبرت» يبكي، ويردّد:

- أبيييييي.. أبيييييي!!

عاونَ بعضُ المارة «باترسون» في حمل «ويليام» إلى بيته الخشبي، ثمّ غادروا آسفين لما آل إليه حالُ رجل في ريعان شبابه!!

وجفَ فؤاد «چِـبروتْـيــا» حالما رأتْ ما به!! وكأنّ وجهَ الحياة على حوافّ الغابة يبدلُ قِناعه؛ فالصيادون، والبسطاء، ما بين قتيل، ومصاب، ومفقود!!

لم يذكرْ أيّ من الناجين- مِن ويلات الحريق- أنْ رأى زوجة «ويليام»، ولا طفليْهِ «ساموئيل، وإيف»!! فأين هُم؟!

وقدْ أخذتِ الشمسُ تلملِمُ ما بقي مِن أشعّتها، وتغوصُ تاركةً الغابةَ ترقدُ أسفل غطاءٍ أسود من الظلام الدامس.. لولا بريقُ اللهب الذي أخذَ يقفز فوق رؤوس الأشجار، كشيطانٍ ماجنٍ يشتت شملَ البشر، والطير، والحيوانات، وحتى الزواحف، والهَوام!!

كوخ «آرميا» قد أصابه ما أصابَ أكواخ جيرانه، ولا أثرَ له، ولأسرته!!

تُرى هل نجا؟!

أمْ تراهُ قدْ هلكَ بين الهالكين؟!!!

***

الفصلُ الحادي عشر

(بَـــراجـيـــس!!)

٢٢ أبريل ١٤٥١م.. مملكة قشتالة.. قصر «خوان الثاني»

اقترب الغروب، ولم تُسفر جهودُ حملة كتيبة القصر عن شيء..

العرّافةُ، وكأنما انشقّ اليَمّ وابْتلعها كما ابتلعَ محبوبها «ويليام سيلور» قبل عقود!

ولكنّ جنود الملك مازالوا يفتّشون عنها بِكلّ شبرٍ بالأدغال.. لا يمكنهم العودة دونها، وإلّا فقدْ يعدمهم الملك!!

والملكة «إيزابيل أفيس» مازالت تتوجّع، وأشهرُ أطباء «قشتالة»، لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئًا حيالها!!

« خوان» الملك ثائرٌ، يتطاير شررُ الغضب من عينيه، وأوداجُه تنتفخ غيظًا.

يغمغم، ويتمْتِم في غيظ:

- لكمِ انتظرتُ قدومَ مَن يأتي مِن صُلبي، ويحمل رايةَ الحرب المقدسة على ممالك المسلمين!!

لَكمْ تحيّنتُ فرصة الانقضاضِ على آخر حصونهم، والظفر بثرواتهم، وإبادة كلّ مَن لا يعتنقون مذهبي، ومذهب آبائي العظماء!!

ثمّ راح يرعد، ويزْبد:

- أحينَ تريدُ خليفتي الخروجَ إلى الدنيا يعجزُ أبرع الأطباء عن استقبالها؟!!!

قطعَ حبلَ أفكاره المستعرةِ صوتُ رئيس حراس البلاط، يخبره برغبة كبير أطباء المملكة «ريكاردو دي فوجا» في محادثته، فيوافق «خوان» على الفور.

- مولاي.........

- ماذا هناكَ.. «ريكاردو»؟!

سأل الملكُ في غضب.

- لربما علينا أن..........

هكذا قال الطبيب المُسنّ بعد تردّدٍ!

- هاتِ ما عندك أيها الطبيب!!

- لربما علينا أن نضحي بِـ................

قالها الطبيبُ مضطربًا.

أحسّ «خوان» ببرودةٍ جارفة تجتاحُ كامل جسده الممتلئ، فأسرع يقاوم مخاوفه، قائلًا:

- افعلوا أي شيء.. ولكنِ احذروا أن تمسُّوا الوليد بسوء!!

قال «خوان» كلمةَ «الوليد».. لا «المولودة» مِن دون وعي.. فمازال الأملُ يراوده بأنّه سينجب الولد مجدّدًا.. لا أنثى كما تنبّأت العرَّافة «چِـبروتْـيا»!!

ابتلعَ الطبيب العجوزُ كلامَه الذي لم يقو على مصارحة الملك به.. فتابع «خوان»:

- ضحّوا بالملكة لو استلزمَ الأمر.. وليّ العهد هو مَنْ يعنيني وحسب!!

حيَّاه الطبيبُ «ريكاردو» بانحناءةٍ ضئيلة حيث لم يقوَ الرجل على انحناءِ جذعه أكثر لكبرِ سِنِّه، ثمّ قصدَ جناح الملكة المتألمة منذ ليلة أمس.

وتمرّ ساعاتٌ ثِقال، وينتصف الليل، ومازالت ولادةُ الملكة متعثرة، والرياح تعود وتصفر بأنحاء الغابة، وتزكي من اشتعال الشجر، والجنودُ يقتلون كلّ حيوانٍ كاسرٍ يهاجمهم، ولكنْ رغم بسالتهم؛ فقد قُتل مِن كتيبتهم الفتيَّة ثلاثةُ فرسانٍ، من أقوى فرسان المملكة!

وهكذا ظلّ الحال، إلى أنِ انْقشع الظلام، فاستبانَ الفرسان طريقًا آمنة بأعماق الغابة، تحيطها الأشجار السامقة، ويظلّلها الهدوء.

وبينما هُم يغذّون السير بخيولهم، متوغّلين بهاتِ الطريق؛ إذْ عثروا على جثةٍ ممدّدة!!

يا لهولِ ما رأوْا!!

أَنَجْمةٌ تلك الغافية أمامهم، قدْ سقطتْ من السماء للتوّ؟!

أمْ هي ملكة مِن ملوك الجان التي لطالما سمعوا عنهنّ بحكايا أمهاتهم عندما كانوا صغارًا؟!

فغرتْ أفواه الرجالِ الأشدّاء، ونزل أحدُهم من فوق صهوة جوادِه، بعدما أثاره جمالُها الفاتن، ونقاء بشرتها الثلجيّة، وشَعرها الحريري الفاحم المسترسل عن يسارها!!

ولكنّه قد استعادَ وعيه، واسْتفاق من شرودِه على صوت «دانييل» قائد الكتيبة يزجُره:

- إيّاكَ أن تقترب منها.. فما أراها إلّا سليلة أسرةٍ ملكيةٍ عريقة!!

صبيحةُ يوم الثاني والعشرين من أبريل عام ١٤٥١م

أرسلَ «بهي الدين» كبيرُ صاغة غرناطة خادمَه الأمين «خاطرًا» لتسليم بعض المصوغات لبيتِ رجلٍ من أعيان المملكة، فخاطرُ وحده، الذي يستطيع أنْ يأتمنه على مثلِ تلك المشغولات باهظة الثمن.. ثمينة القيمة.

ذهب «خاطر» بِوجهٍ، وعادَ بآخر!! بدا مُمتقعَ الوجه.. لاهثَ الأنفاس.. متعرّقَ الجبين!!

راعَتْ هيئةُ «خاطر» سيدَه «بهي الدين» الذي يعرفه جيدًا بنظرةٍ واحدة نحوه..

فعاجله كبيرُ الصائغين بسؤاله:

– ماذا حدثَ يا «خاطر» ؟! أأوْصلتَ الأمانةَ بسلام؟!

عينا «خاطر» الزائغتان تؤكّدان بأن هناك ثمّة خطبٍ ما.. فقال «بهي الدين»:

– هل أصابك مكروه؟! هل سُرقتْ المشغولات؟!

ثمّ قال الرجل الكريم.. يريد طمأنة الشاب:

– لا عليكَ يا «خاطر»، لو كنتَ قد فقدتَ المصوغات.. المهمّ أنَّكَ بخير .. لا تخف!!

ولكنّ «خاطر» قال في بطءٍ، وقد غشي ملامحَه الإجهادُ:

- هناكَ أنباءٌ عن حدثٍ من الخطورةِ بمكانٍ قد وقع بمملكة «قشتالة»، ويقال بأن النازحين نحو «غرناطة»، وماحولها مِن ممالك؛ كُثر!!

في سرعةٍ سألهُ «بهي الدين»:

- ماذا حدثَ بالضبط؟ ومِن أين لكَ بهذه الأخبار؟!

تنفَّس «خاطر» في صعوبة، كما لو جثمَ فوقَ صدره همٌّ ثقيل، ثمّ قال:

- لا أعلم ماذا حدثَ بالضبط.. ولكنّ كلّ ما عرفتُه هو أنّ عددًا غفيرًا من عامة شعب «قشتالة» يتأهّبون منذُ يوم أمس للرحيل إلى «غرناطة»، وقد يَصِلونَ على متْنِ البواخر البحرية بعد بضع ساعات!!

همسَ «بهي الدين» لنفسه في قلقٍ بالغ:

- هل هذه بوادر غزوِ غرناطة؟!

ثمّ شردَ قليلًا.. وغمغمَ طاردًا ذلك الهاجسَ البغيض عن رأسه:

- ولكن لو كانت تلك بادرةَ غزوٍ ما؛ فلماذا ترسلُ إلينا «قشتالة» بالعامة لا بالجيوش؟! لا.. هذا ليس غزوًا.. وإنما شيء آخر لا أستطيع إدراكَه بعد!!

وسرعانَ ما قال «بهي الدين» لخادمه الشاب:

- «خاطِر».. اذهبْ وتحسّس أخبار ما حدثَ مِن هؤلاء القادمين من «قشتالة»، وتوخّ الحذرَ فلا يصيبنّكَ أذى.

في التوّ، استجاب «خاطر» لأمرِ سيدهِ الوَرِع «بهي الدين»، وقبعَ ينتظرُ وصول بواخر المرتحلين من «قشتالة» نحو «غرناطة»!!

***

عاد الطبيبُ العجوز «ريكاردو دي فوجا» بعد ساعاتٍ للقاءِ الملك «خوان» ليخبره بأنّ الملكة «إيزابيل» قد نجتْ، ومولودتُها. والمولودةُ بصحة جيدة، ولكنّ الملكة قد نالَ منها الكثيرُ من الوهن والإعياء، ولا بُدّ مِن جلبِ مُرضعةٍ مِن أجل المولودة على أوج السرعة!

أرسلَ «خوان» بعضَ الخدم بالأنحاء بحثًا عنْ تلك المُرضع، ولكنّ «بلتازار»- الذي ظهر يرافق الملك كظِلّه بعدما كان يختبئ كأشباح الظلام- قد واتتْه الفرصة الذهبية التي لطالما انْتظرها، فقال للملك:

- المُرضِع رهنُ إشارتكم يا جلالة الملك!!

سارع «خوان» يقول في لهفة:

- هلمّ، واجْلبها.. ماذا تنتظر؟!

لم يلبثْ «بلتازار» بعضَ الوقت، حتى عادَ تتبعه امرأة ذاتُ جذع شديد النحولة، ووجهٍ كوجْه المومياء، وأنف معقوف[1].. تكاد تنخلعُ لمطلعها القلوبُ من الصدور!!

حملقَ بها «خوان» بعينيْن يغمرُهما الهلع، وسأل في عُجالة:

(١)الأنفُ المعقوف: هو الأنفُ المُعوج مِن أرنبته. وهو علامةٌ من علامات القُبح وقد تميزتْ به رسومُ وجوه الساحرات الشريرات بالقصص الخيالية والأساطير .

- أهذه العجفاء مَن سترضعُ الأميرة؟!!!!

- مولاي، إنها امرأةٌ غزيرة الحليب.. يمكنها أن تُرضع عشرَ مواليد بالوقت ذاته، وكمْ أرضعتْ من أبناء الملوك والأعيان!

هكذا همسَ «بلتازار» إلى «خوان» بمبالغته التي صدَّقها الأخير، أوْ لعلّه تظاهر بتصديقها تحت ذريعة الحاجة الماسّة إلى مثل هذه المرأة.

تقدَّم «بلتازار» المرأة، وما أنْ مرّا بردهةٍ خالية من الخدمِ، والحرّاس، حتى همسَ لها في خبثٍ:

- ها قدِ استتبّ لكِ الأمر يا « برَاجِيس»!!

انفرجتْ شفتاها المشقّقتان عن ابتسامةٍ صفراء، وقالت:

- يا لكَ مِن داهية يا زوجي!!

فقال «بلتازار» بصوتٍ خفيض:

- مَن كان يُصدِّقُ أنْ نحظى بِكُلّ هذا يا «أمّ ميرزا».

لقد رتَّبَ «بلتازار» لكلّ شيء مسبقًا.. فاستقدمَ زوجتَه من بلاد فارس قبلَ أن تلد الملكة «إيزابيل أفيس» بشهرٍ تقريبًا.. حتى إذا ما أرسلَ «خوان» في طلب مُرضعةٍ لِولي عهده الجديد، كانت فرصة «برَاجيس» سانحة.. بينما جعل «بلتازار» زوجتَه تترك طفلَها الرضيع «مِيرزا»، والوحيد لدى بعض أقاربها ببلاد فارس؛ حتى يتمكّن الزوجان الخبيثان مِن تحقيق مآربهما في ظلّ رعاية ملك قشتالة!

***

الفصل الثاني عشر
(أسيرةٌ.. حتى حين)

في أعقاب الحريق..

- استفقْ يا «ويليام».. إنّي هنا بجوارك!

قالتها «چِـبروتْـيــا» بصوتٍ متحشرجٍ من أثر البكاء، بينما الشابّ ممدّد أمامها فوق أريكة خشبية بمنزل «باترسون» الذي وقف ساكنًا على أملٍ أنْ يفتح «ويليام» عينيه ثانيةً.

فقد كان يتنفّس في بطء بالغ، والعرَّافة تمسح وجهَ «ويليام» بمنشفةٍ مبلّلة بالماء، بين الفينة والأخرى!!

بالكاد فتحَ الشاب عينيه، حيث الرؤيةُ مازالت مغبرة، وكلّ شيء حوله ليست له معالمُ واضحة!!

مرَّت دقائق، حتى استبانَ المكان، واستوضحَ الوجوه، فإذْ بجدار روحِه يتصدّع، ويصرخ باكيًا، فيما يُقلِّب النظرَ بين وجهي العرَّافة، والحارس «باترسون»:

- أينَ أنتِ يا «هيلدا»؟!

أينَ أنتَ يا «ساموِيل»؟!

أينَ أنتَ يا «إيڤ»؟!

أمَـا رأى أحدٌ منكما زوجتي، وطِفلَيَّ؟!

طأطأتْ العرافةُ رأسها، تبِعها كذلك «باترسون»..

ولكنّ «ويليام» هبَّ واقفًا، يريد الركضَ صوْب باب المنزل الخشبي، ومِن ثمّ أراد الخروج بحثًا عن زوجته وطفليْه المفقودين، ولكنّ «باترسون» استجمع كلّ ما لديه من قوّة حتى يعيده إلى داخل المنزل، ثمّ أغلقَ الباب، وهو يقول:

- لقد هدّدَ «دانييل» قائدُ كتيبة الحرس الملكي بقتلكَ متى رآكَ سيِّدي «ويليام»!!

ولكنّ ما قاله «باترسون» لنْ يُثني الشابَّ المفجوع في مُصابه عنِ العدول عمّا اعتزم، حتى جاءه صوتُ العجوز في لهجةٍ آمرة:

- عُد يا «ويليام»، فلئنْ نالَ الجنود منك، فلنْ نعثرَ على «هيلدا»، والطفلين أبدًا!!

استدارَ «ويليام»، وصاح غاضبًا:

- وإلى متى الانتظارُ يا عرّافة إيبريا؟!

قالت العجوز- في تسليم- وهي تحملقُ بسقف المنزل، كما لو كانت تُنصتُ إلى صوتٍ يأتيها من بعيد:

- لا بُدّ أن نغادر «قشتالة» قبل بزوغ الفجر!!

هاجَ «ويليام»، وثار، قائلًا:

- هُراء.. إنّ ما تفكّرين به لَهُوَ الجنون نفسه.. كيف أغادرُ دون «هيلدا» والصغيرين؟! كيفَ أعيش بدونهم؟!

قبلَ أن تجيبَه العرَّافة على سؤاله، رفعتْ وجهها ثانيةً نحْو سقف المنزل، ثمّ قالت بجدية:

- افتحِ البابَ يا «باترسون»، واستقبل الضيف!!

حدَّقَ بها كلٌّ مِن الشابّين.. ولكنّ حيرتهما قد بلغتْ ذُروتها، لما سمعا دقاتٍ هادئة على الباب!!

تردّدَ «باترسون» قليلًا قبل أنْ يسحب مِزلاج الباب، ويرى القادمَ الذي ارتدى قلنسوةً ذات غطاء رأسٍ لا يُظهِرُ من وجه الرجل سوى شاربه، وذقنه الأشيبيْن!!

دلفَ الضيفُ إلى داخل المنزل، وكشفَ الغطاءَ عن رأسه، ووجهه، فإذْ بِه «مُوردخاي»!!

فقال «موردخاي» مباشرةً:

– لم يعدْ أمامَنا وقتٌ كافٍ يا «ويليام»، هيّا بنا، هناكَ قاربٌ غرب الشاطئ، سيُقِلُّكَ حتى «أندورا»!

دارتْ عشراتٌ من علامات الاستفهام، والتعجّبِ بمقلتي الشاب، فاستطردَ العجوز قائلًا:

– كُنْ مُطمئنًا.. سوف أبحثُ في كلّ مكان عن زوجتكَ وطفليكَ. ومتى عثرتُ عليهم؛ سأرسلُهم إليكَ حتى تكونوا جميعًا بمأمنٍ مِن بطشِ «خوان»، وزبانيته!

مساء يوم الثاني، والعشرين من أبريل، عام ١٤٥١م.

في بلاط ملِك «قشتالة»..

في صوتٍ تغشاه الحِدَّة، قال الملك «خوان الثاني» مخاطبًا قائدَ فريق الحرس الملكي:

- ماذا هناك يا «دانييل ألوركا»؟!

برأسٍ مطأطئ، وصوتٍ مُفعم بالتوقير، قال «دانييل»:

- بينما نحنُ نبحث عن العرَّافة بأطراف الغابة، إذْ عثرنا على امرأةٍ، تبدو عليها سيماءُ الأميرات.. مولاي!

- أين هي تلك المرأة؟! سأل «خوان».

أعطى «دانييل» الإشارةَ إلى جنوده بالمجيء بالسيدةِ المغشي عليها، والممدّدة فوق كواهِلهم، بعدما حملوها مِن فوق صهوة الجواد الذي كان يحملها!

ثمّ أنزلوها برفقٍ فوق مقعدٍ عريض، كأريكة مُخصّصة للاسترخاء، مُبطنة بالقطيفة الناعمة، المزخرفة بالنقوش الذهبية.

كانت ترتدي ثوبًا قرمزيًّا باهتًا، ذا ياقة ذاتِ أزرار تغطي عنقَها بكامله، وكان شعرُ السيدة الأملس الفاحم يغطي وجهَها، فإذْ بالملك يدنو منها ببطءٍ،

ويزيحُ شعرها عنْ وجهها، فيشهق، ويمتقع وجهُه الأشهب، ويقول بصوتٍ خفيض في دهشة:

- مَنْ؟ «هِـيـلْـداااااااا؟!

ثمّ أمرَ الخدم بنقل السيدةِ إلى جناحٍ خاصّ!

مرَّت ساعاتٌ و»هيلدا» مازالتْ غائبةً عن الوعي، وقدْ لاحظتْ إحدى وصيفات القصر بأنّ الشابة تتعرّق، وتهذي بكلماتٍ مُبهمة، فأسرعتْ تخبرُ الملك الذي استدعى الطبيب العجوز «ريكاردو دي فوجا»، الذي فرغَ بمعاناةٍ من ولادة الملكة «إيزابيل»؛ لكي يفحص السيدة.

فإذْ بالطبيب العجوز يفزعُ، وترتعد فرائصه، وهو يخبر الملك بنتيجة الفحص الطبي:

- مولاي.. إنّ تلك المرأةَ، مسمومة!!

شاطئ «غرناطة».. مساء يوم الثاني، والعشرين من أبريل ١٤٥١م.

مكثَ «خاطر» بالشاطئ يراقب السفنَ، والبواخر، والقوارب القادمةَ نحو «غرناطة، يتحسّس أخبار النازحين من بسطاء «قشتالة» كما طلبَ إليه السيِّد «بهي الدين»، فلم يرَ ما يستحقّ عناء الانتظار أكثر عبر الساحل.. فما كان القادمون سوى بعض الصيَّادين، وبعض التجار الوافدين ببعض البضائع، وجميعُهم كانوا من أهل غرناطة، وليسوا بغرباء، ممّا دفع «خاطر» إلى الاعتقاد ببطلان الخبر الذي سمع به صباحًا، من حيث نزوحِ بعض سكان «قشتالة»، وتقدّمهم عبر البحر ناحية غرناطة!!

فما أنْ همَّ بمغادرة الشاطئ، حتى تناهى إلى مسامعه تصايح، وجلبةٌ، فقفلَ عائدًا إلى حيث كان يقف بالشاطئ، فإذْ بها باخرةٌ كبيرة تحمل مئاتِ الركاب من البسطاء، والمُعدمين، الذين همُّوا بالنزول، والقفز على شاطئ غرناطة في لهفٍ، وقدْ نال منهُم الإعياء، والجوع، والظمأ.

سأل «خاطر» بعضَهم حتى علمَ بأمْر ملك «قشتالة»، بإحراق الأكواخ، وبحثِه الدؤوب منذ ليلة أمس عن عرَّافةٍ تُدعى «چِـبروتْـيـــا»!!

فاعتزمَ العودة إلى سيِّده «بهي الدين» بما يحملُه بِجُعبته من أخبار!

وقد كان «خاطر» هو آآآآخِر مَن يغادر الشاطئ!!

فإذْ بِـــ رُبَّان الباخرة، يهتف مناديًا:

– أنتَ.. يا رَجُل.. على رِسلك!!

لم يكنْ لخاطر من سابق معرفةٍ بقائد الباخرة هذا.. إذن فلماذا يناديه؟ وماذا يريد منه؟!

توقَّفَ «خاطر» قُربَ الباخرة، فإذْ بقائد الباخرة، يناولُه طفلًا بالسابعة من عمره تقريبًا!!

لم يمدّ «خاطر» ذراعيْه كي يحملَ الطفل النائم، وسأل الرجلَ في تعجّب:

– هل جُننتَ يا هذا؟! أتدعوني حتى تلقي إليَّ بطفلٍ لا أعرفه؟!

فقال قائدُ الباخرة، بِغِلظة:

– لو لَمْ تأخذه؛ لألقيتُ به في عُرض البحر، فيكون طعامًا للأسماك!!

لم يُعقِّب «خاطر» على ما تفوّهَ به الرجُل، وهمَّ بالمغادرة، فإذْ ببكاء طفلٍ رضيع يملأ الأجواء، ويشقّ هدأة الشاطئ!!

جحظتْ عينا قائدِ الباخرة.. والْتفتَ خلفه، ليهولهُ ما يرى!!

لقد كان الصوتُ لِطفلٍ رضيع، لم يبلغْ عامه الأوّل بعد، يصرخ باكيًا، بينما يلعقُ يديه جوعًا.

تسلَّقَ «خاطر» سُلمَ الباخرة المجدول مِن أحبال النخيل الليفيّة الخشنة، ليرى الرضيع وحيدًا، وليس على ظهر الباخرة سواه، وقائدُ الباخرة، ورجلان مِن مساعديه في سُبات عميق!!

فقال قائدُ الباخرة في غضبٍ، ووجهُه يشتعل احمرارًا:

- أيّ أمّ هذه التي تترك طفليْن على ظهر باخرة ليلًا، وتذهب؟!

أيقنَ «خاطر» بأنّ مكوثه بالشاطئ حتى تلك الساعة ليس سوى تقديرٍ من الله جلّ وعلا، حيث لم يكن لهذيْن الولدين من أحدٍ بعد الله سواه!!

حملَ «خاطر» الطفلين، وحثَّ الخطا نحو دار السَّيد «بهي الدين».

وما وقعتْ عينا السيدة «العلياء» على الصغيرين، وسمعتْ بقصّتهما من «خاطر» بحضور زوجها «بهي الدين» وخادمتها المقربة «مروج»، وقدِ استسلم الطفلان للنوم مُنهكينِ، حتى ذرفتْ عيناها، وقالتْ:

- يا «بهي»، اتركهما لي.. سأعتني بهما، حتى نعثرَ على ذويهما!!

ولكنّ «بهي الدين» لم يُعقِّب، حيث بقيَ شاردًا هنيهة.. يشغله أمرٌ آخر!!

- «بهي الدين».. «بهي الدين»، ماذا بكَ يا زوجي؟!!!

سألتهُ «العلياء» في قلق.

فقال ما تجمّدتْ له دماءُ زوجته و«مروج» و«خاطر» كذلك.. حيث قال:

– إنّني أعرف والدَ هذا الولد!!

قالها «بهي الدين»، وهوَ يطالع وجه «ساموئيل»!!!!!!!!!!

❋❋❋

زوَّدَ «موردخاي» القارب الذي سيُقِل «ويليام» و«چِـبروتْـيــا» ببعض الأطعمة، والماء للشرب، وأعطى صاحبَ القارب بعض المال، وأوصاه بإيصال الراكبينِ إلى «أندورا»، والإسراع قدرَ استطاعته بالتجديف قبل أن يكشفَ ضوء النهار صفحة الماء،

كما طمأنَ «ويليام»، بقرب لقائه بزوجته، وولديه، ثمّ عاد «موردخاي» إلى حيث يقبع بعيدًا عن أعين الملك، وكذلك بعيدًا عنْ أعين الراهب «بليدي»، وساعدِه المجهول «بلتازار»، بالمزرعة الصغيرة التي يملكها الراهب «بودلير»، وهو يفكر.. مِن أين يجدرُ به أن يبدأ رحلةَ بحثه عن «هيلدا»، وصغيريها.. دونَ أن يشعر بذلك مُبْغضوه المتأهّبون للقضاء عليه؟!!

لم يكن «ويليام» مُقتنعًا بضرورة الفرار نحْو «أندورا»، ولكن «چِـبروتْـيــا» كانت، ومازالت تبشّره بجمع شملِ أسرته مرةً أخرى، وهي التي لم تَكذبُه قولًا منذُ أن رآها!!

التزم «ويليام» الصمتَ فوقَ ظهر القارب، وزهدَ الطعام الذي قدّمته له العرَّافة، وغامتْ مُقلتاه الخضراوان أسفلَ غلالة رقيقة من الدموع!!

مضى اليومُ الأول لهما فوقَ سطح الماء، دون أنْ يتحادثا بكلمة.. حتى خرجَ الشابّ عن صمته، بينما يضمّ ابنه الأوسط «روبرت» بذراعيه:

- أينَ «هيلدا»، والولديْنِ يا عرَّافة إيبريا؟!

كانت «چِـبروتْـيــا» تعرفه كما لم يعرفْ نفسه، فمنذ فقدَ زوجته، وابنيهِ، ولم يتفوّه بكلمة «أمي» التي لطالما كان يدعوها بها في حنوّ!!

إنَّه غاضبٌ.. ويشعر بأنّ للعرافة يدًا مِن وراء اختفاء هيلد، والطفلين!!

لأول مرةٍ بحياته يظنّ بها سوءًا..

يظنّها تقسو عليه، بينما كانت تدرأ عنه الاغتيال، حتى تهدأ العاصفة الهوجاء التي أفشتْ الشتات بينه وبين أسرته.. حتى يلقاهُم وقد زال خطر تربّص «خوان» و»بليدي» و»بلتازار» به!!

لم تكنِ العرَّافة تخشى على حياتها مِن «خوان»، ولا مِن غيره.. وإنَّما وهبتْ حياتها مِن أجل سعادته، وحمايته هو وأسرته الصغيرة الغالية!!

لم تُجبْهُ العرَّافة، وإنما آثرتِ الصمت، فيما راحت تقولُ في نفسها:

- لو علمتَ ما أعلمُ يا بُني لأشفقتَ عليَّ، وما سامحتَ نفسكَ لما رحتَ تظنّ بي.

هكذا هُنَّ الأمهات، تعفونَ، وتتجاوزنَ، ولا تَكُفَّنّ عن الدعاء للأبناء، ولو أساءوا إليهن..

فطوبى لذواتِ الأفئدة الملائكيّة.

طوبى لِكُلّ أُمّ على ظهر الأرض!!

وطوبى لكلّ أمّ رحيمة، لقيت ربها يومًا.

أثناءَ حريق الغابة..

اندلعتِ النيران جائعة.. نَهِمة.. كلّما التهمتْ كوخًا أطلقتْ أحدَ ألسنتها نحو كوخٍ مجاور، أوْ صوب شجرةٍ قريبة، تقافَزتْ ألسنةُ النيران في لهوٍ صاخب، تدمّر، وتحرق، وتُذيب، وتخنق.

حتى امتدّتْ إلى كوخ «ويليام» فالْتهمتْ أكثرَ السّقف، الذي بدأ يتساقطُ قِطعًا مُحترقة إلى أسفل، ممّا جعل «هيلدا» توقظُ «ساموئيل» الذي عادَ لِتوِّه مِن رحلته إلى غرناطة بصحبةِ أبيه، وتحمل طفلها الرضيع «إيڤ»، وتفرّ من موتٍ محقّق.. غير مُستبينة طريقَها وسط دخان الحريق الكثيف، تبتعد قدْر اسْتطاعتها، مُمسكة بيدِ «ساموئيل» الذي كان- رغم صغر سِنِّه- مُرشدَها الأوحد وسطَ ذلك الفزع الرهيب، والصراخ، والعويل في كلّ مكان!!

بدأتْ وطأة الدّخان تقلّ تدريجيًّا كلّما ابتعدا!!

- مِن هُنا يا أمي.. فثمّة طريقٍ آمنة.

صاحَ بها «ساموئيل» يشيرُ بيده الصغيرة إلى طريقٍ ضيقة بين صفّين من الأشجار الملتفّة الأغصان. يهرْولان حافيا الأقدام، يريدان بلوغ الشاطئ.. فثمّة نسيم رائق، لا أثرَ به لدخانٍ خانق، أو جنودٍ يحرقون كلّ ما بطريقهم لأمرٍ لا يدركانه!

ولكنْ سرعانَ ما سقطتْ «هيلدا» صارخة.. دون أن يتأذّى الرضيع.

– أمّي.. هل أنتِ بخير؟! (سألَ «ساموَيل» في هلع)

– لا أدري.. «سامو». شيءٌ ما قدْ وخزني!!

– أين هذه الوخزة يا أمي؟! (سأل الطفل في قلقٍ وبراءة)

– بِكاحلي يا بُني.. لعلّه عود خشبي مُسنّن!

كانت الطريقُ حيث توغّلا وَعِرة.. مُضْنية، شبه معْتمة، فالأغصان الملتفّة لا تسمحُ بعبور سوى ضوء ضئيل، لذلك لم يستطعْ «ساموَيل» رؤية موضعِ الألم بساق أمّه.. فحمل أخاه مِن بين ذراعيها، ومدّ يده محاولًا إعانتَها على النهوض، فيما كان صوتُ دبيبِ سنابكِ الخيل تدبّ فوق أرض الغابة قريبًا منهما.. فقال الصغير:

– انهضي يا أمّي.. وإلّا سيجدنا الجنود!

ولكنّ الخِدر بدأ يسري بجسَد «هيلدا»، وشعرتُ بضَربات قلبها تتسارع.. وزاغتْ عيناها، فلم تستطعِ الرؤية بوضوح، فقالت في وهن:

– أسرِع، واركُض نحو الشاطئ، وسأوافيكَ هناك!

ثمّ استطردتْ تقول بصعوبة:

– اعتنِ بأخيكَ، فهذا هو الرضيع الذي عليكَ أن تعتني به.

ثمّ قالتْ في همس قبل أنْ تغيب عن الوعي تمامًا:

– تُرى مَن هو المبتور، والكفيفة إذًا؟!

- أمي.. أميييبي.. أفيقي رجاءً!!! (صاح «ساموِيل» في فزع، وهو ينشج)

ثمّ ركض «ساموِيل» مُبتعدًا بأخيه، ولكن سرعانَ ما تذكّرَ شيئًا...

لقدْ تذكَّر القلادةَ المخبوءة داخلَ حقيبته الجلدية، التي لا تفارقه في يقظته، أو نومه؛ حيث يعلقها دائمًا بين كتفه، وعُنقه، فأخرجَ القلادة ذاتَ الفصّ الفيروزي الثمين، وألبسها إيّاها، ثمّ دسّها أسفل ياقةِ ثوبها، بينما كانت تشعرُ بيده، وتسمعُ صوته، ولكنْ دون أن تستطعِ التفوّه بكلمة، فلَكَأنّها قد تجمّدتْ تمامًا!

ثمّ هُرع «ساموِيل» يحملُ أخيه الرضيع - بين ذراعيْه الصغيرتين - يبحث عن مخرجٍ مِن الغابة إلى الشاطئ، فيما بدا «إيڤ» الرضيع ثقيلًا عليه، فساموِيل مازال طفلًا على كلّ حال!!

لم تستفقْ «هيلدا» بصورةٍ تامة، بينما أخذتْ سنابكُ خيلِ جنود الملك تقترب، يقودها عددٌ غفير من الجنودِ يحملون المشاعلَ ليتبيّنوا طريقهم وسطَ الأدغال.

أعيا العَدوُ «ساموِيل».. فهو لا يعرفُ أين يذهب..

أخذ «ساموِيل» يركض حافي القدمين، يحمل أخاه الرضيع النائم، حتى إحس بالأرض تميد أسفل قدميه الصغيرتين، فسقطَ مغشيًّا عليه، وإلى جواره أخوه الرضيع..

وتمضي الساعات..

- ماهذا بحقّ الله يا « رُوديوسا»؟!!!

شهقتْ امرأة، بينما تُلقي على زوجها ذلك السؤال المفاجئ.. بينما تمطتي ظهر حمار هزيل، وتحمل طفلها الوليد فوق ذراعها الأيسر، وتلف ذراعها الآخر حول طفلها الثاني ذي الأربعة أعوام تقريبًا..

أجابها الزوج مشدوهًا، وهو يسحب الحمار إلى حيث طفلين نائمين على قارعة الطريق المهجورة من المارة:

-إنَّـــ.. إنَّهما طفلان يا «كاتاليا»!!!

- يبدو أنهما قد فقدا أثرَ والديهما يا زوجي..

ثمّ استدركتْ المرأة:

-لعل أسرتهما، قد تضررتْ مثلنا من الحريق الذي نالَ من الغابة صباح اليوم!!!

- إذًا، فلربما قصد أبويهما ضفة المحيط..

قالها الزوج بصوتٍ خفيض، بينما يحمل الولدين فوق ذراعيه..

أردفتْ «كاتاليا» في نبرة صوتِ أمومية صادقة:

- فلنصحبهما معنا، لعلّنا نعثر على من يتعرف عليهما..

سلكَ «روديوسا»، وأسرته، الطريق البري المتجه إلى أقصى غرب «قشتالة»..

عندها، استفاق «إيڤ» الرضيع، يبكي جائعًا..

أشفقتْ عليه المرأة، وقالت في رجاءٍ، بينما تمد يديها تريد أن تحمله من فوق ذراع زوجها:

ــ إذا لم أُرضعه، فقد يهلك!!!

أومأ « رُوديوسا» موافقًا، بينما يقول:

ــ فلتفعلي.. فمازالت رحلتنا شاقة، حتى نبلغ ضفة المحيط، ولن يصمدَ الرضيع من دون طعام..

استغرقتْ رحلتهم أيامًا، وعندما استعاد «ساموئيل» وعيه؛ طمأنه الرجل، وأطعمه، وسقاه.. من فتات ما يحمل من زاد.. حتى بلغوا ضفاف المحيط الأطلنطي..

وهناك؛ كانتْ محطة الفراق..

بدموعٍ جاريات.. توسلتْ «كاتاليا» إلى زوجها:

– كيف لنا أن نترك طفلين هنا، و نذهب يا «رُوديوسا»؟!

في أسًى.. قال زوجها، و هو يولي الطفلين ظهره، و يجذبها من مرفقها مبتعدًا حاملًا طفليه:

- لم يعد لدينا ما يعيننا وحدنا على الحياة حتى الغد يا زوجتي، فكيف نصحب معنا فردين آخرين؟!

انهمرتْ دموع المرأة شفقةً على هذين الصغيرين.. وقالت:

- على الأقل، ننتظر معهما حتى يعثرا على أبويهما، أو نحملهما معنا إلى حيث سنحط الرِّحال!

- لا.. لاطاقة لنا بهما.. الله لن يضيعهما.. هيا أسرعي، فقد أوشكَ الليل على الهبوط، ولا بُد من أن نجد أماكن شاغرة لنا على ظهر الباخرة القادمة!!!

- إلى أينَ سنرحل يا زوجي؟! (سألت الزوجة، ومازالت دموعها تنسكب من عينيها).

- لا أدري..

اضطُرَّ «روديوسا» إلى بيع حماره الهزيل بثمن بخسٍ، حتى يجد ثمن ركوب الباخرة، وأسرته، فأخذتْ «كاتاليا» القطع النقدية المعدودة، ووضعتها بقطعة قماش تنطَّقتْ(١) بها حرصًا على المال الذي لا تملك، وزوجها سواه..

احتشدَ الناس على ضفة المحيط، يرقبون شبح الباخرة المُقبلة، تزاحموا هناك تزاحم العطشى، حولَ بئرِ ماءٍ عذب.. بينما «ساموئيل» يبكي، ويحمل أخيه، دونما يعلم ماذا يفعل، ولا أين سيذهب..

(١) تنطَّقتْ: أي تحزَّمتْ بنطاقٍ بأن لفَّتْهُ حول خصرها..

فقد تطوَّع أحدُ النازحين بحمْله، وأخيه، ظنًّا منه بأنّ والدي الطفلين قد سبقاهما إلى ظهر الباخرة المُقلِعة!

صاح أحد العمال بالباخرة:

- أينَ والدا هذين الولدين؟!

لم يتفوه أحد بشيء..

فسأل قبطان الباخرة في غلظة:

- منْ سيتكفل بهما إذًا؟!

طأطأ «رُوديوسا» رأسه متخاذلًا، ولم يعقب..

فصاحت «كاتاليا»:

- أنا.. أنا سأدفع لكَ أجرَ إقلاهما !

أراحتْ رأسا طفليها على ساقي زوجها الذي ألجمته المفاجأة، فلم يجد مايقوله، ثم فكَّتْ نطاقها، وأخذتْ تشق طريقها بين الأجساد المتلاحمة، إلى أن أعطتْ القبطان البدين بعض العملات المعدنية.. ثمّ عانقت «ساموبل» الذي غفا بين الجموع، والتقطت «إيڤ»، و أولتْ الجميع ظهرها، وتوارت به عن الأنظار حتى تُرضعه مجددًا..

لم يسأل أحد الركاب، إلى أين ستكون وِجهة الباخرة، و لا متى ستصل إلى مرفئها التالي..

لا يشغلهم سوى النزوح، والهروب، والفرار من الفقر.. من اللّا عمل..

❋❋❋

- إلى هُنا وكفى يا «كاتاليا»!!!

قالها «روديوسا» في غضبٍ وحزم.. لزوجته بعد أن أعلن قائد الباخرة عن وصول الباخرة إلى الشاطئ الأخير!

- ولكن......... (أردفت الزوجة مضطربة).

قاطعَ «روديوسا» زوجته صارخًا:

- لستُ صخرًا.. أنا إنسان، ولكني لا أستطيع أن أعول طفلين آخرين.. سنتركهما مُجبرينِ، لا مُخيرينِ يا «كاتاليا»!

ثمّ انخرطَ الرجل في نوبة بكاءٍ حادة، بينما يوصي «ساامويل» برعاية أخيه، والمكوث بالشاطئ، حتى يرسل الله لهما مَن يعتني بهما!

اختفى «روديوسا»، وأسرته عن ناظري «ساامويل».. فضمَّ أخاه الرضيع إلى صدره، وأجهش ببكاءٍ يمزق نياط القلوب..

وإذ به يسمع صوتًا ناعمًا يناديه:

- «ساامويل».. ها نحن بجوارك.. ارفع رأسك..

رفع الطفل وجهه الغارق بالدموع، فإذ به يرى بنات السماء، يبتسمن له، بينما تهمس له أجملهن:

– لا تبكِ.. كل شيء سيكون على ما يُرام.. صدقني..

فابتسمَ واثقًا في صدقها..

فقالت الفتاة الجميلة، وهي تلوح بيدها له:

– وداعًا «ساموِيل».. وداعًا..

لم يكن «ساموِيل» يعلم بأن هذا هو لقاؤه الأخير ببنات السماء!

***

عثر جنود الملك «خوان الثاني» مِلك قشتالة، على «هيلدا»، مغشي عليها، وحملوها إلى قصر «خوان»، و قد اكتشف الطبيب العجوز الخبير، «ريكاردو دي فوجا» أنّها مسمومة، وبفحْص يديها، وقدميْها.. اتّضح للطبيب «ريكاردو» بأنّ ثمّة إبرة عقربٍ مغروسة بكاحِلها!!

– ثمّة عقرب لَدَغتها يا مولاي!

«خوان» في فزع شديد:

– عقرب؟!!!

ثمّ صاح الملك في وجْه الطبيب «ريكاردو» في غضب:

- لا تدَعْها تموت أيّها العجوز، وإلّا قتلتكَ!!

قال الطبيب في هدوءٍ وثِقة:

- اطمئنّ جلالة الملك.. فكلّ سموم العقارب على اختلافِ أنواعها، ليست قاتلة، ماعدا سُمّ العقرب الأصفر!

فقال «خوان» في ارتعاب:

- وما نوعُ العقرب، التي لدغتها؟!

ابتسم الطبيب العجوز، وقال:

- لقد لَدغَتْها عقربٌ خضراء.. سمُّها شديد، ولكنّه غير قاتل.. ستتعافى السيدة قريبًا..

ولكنْ.. هل لي بسؤالٍ مِن فضلك يا فخامةَ الملك؟!

أومأ «خوان» مُوافقًا.. فسأله الطبيب:

- أرى سيادتكم قلقينَ، على هذه السيدة.. فمَن تكون هي؟!

امتقعَ وجهُ الملك، وتلعْثَم قائلًا في ارتباك:

- داوِها وحسْب.. ليس مِن شأنكَ أن تسألَ مثل ذلك السؤال.

فاعتذرَ الطبيب، وذهبَ ليحضر المستحضرَ العشبي، الذي سيضمّد به موضع اللّدغة.

فيما ظلَّ «خوان» يتأمّل «هيلدا» متيّمًا بجمالها الأخّاذ، بعدَ أن أمرَ الخادمات بالانصراف من الجناح، وإذْ به يفزع، عندما رأى سائلًا ينساب ليبلّل صدرَ ثوبها، فأدركَ بأنها مُرضع، وقد أصبح لديها طفلٌ ثالث رضيع لم يعلم عنه شيئًا!!

فتمتمَ في حيرة:

- تُرى أين أنتَ الآن يا «ويليام»؟ وأين فرسانكَ الثلاثة؟!!!

تعافتْ «هيلدا» شيئًا فشيئًا، ولكنّها كانت تبكي بكاءً مريرًا، خاصةً كلما آلَمها ثدييَها لامتلائهما بالحليب، فتبكي وتقول:

- أين أنتَ يا «إيڤ» حتى تتناول طعامك؟! مَن يطعمُكَ الآن يا صغيري؟!

فسمعها «خوان»، فقال لها بلهجةٍ باردة:

- إذن، فلنأتِ إليكِ بمَن ترضعيها!

- مَن تعني يا «خوان»؟! (سألتْ «هيلدا» في اضطراب)

- ستنالينَ شرفَ إرضاع الأميرة «إيزابيلا».. مولودتي الحديثة. (قالها في صلفٍ بالغ)

تغضَّن وجهُ «هيلدا» الحسناء بمسحةٍ من الغضب.. وهدرتْ غير آبهَةٍ بخوان، وبسلطانه:

- مَـوْتِـي دون ذلك، يا مغتصبَ العرش!

قال «خوان»، في غضب:

- كيف تجرؤين على ما تَقولين؟!

في ثقةٍ قالت «هيلدا»:

- تلكَ هي الحقيقة أيها الخائن، أنا لا أخافُك، وأنت تعلم ذلك جيدًا.

- ستندمينَ أيّتها الجميلة.. (قالها مُهدّدًا)

فقالت ساخرة:

- افعل ما بوسْعك..

إنَّ «خوان» مازال يحبّها.. ومازال يراودُها عن نفسها، فتهدّده بقتله إذاما اقترب منها!

فيُجنّ جنونه، ويرعد، ويزبد.. مُتوعّدًا بِالفتك بحبيبها، وزوجها الذي يحول بينه، وبين قلبها، ولكنّه لم يجدْ «ويليام»وبأيّ مِن أنحاء المملكة!!

فما كان مِن «هيلدا» إلّا بالبقاء كأسيرة، لكنّها أسيرة مُنعمة.. مُحاطة بالوصيفات، والخادمات، يقف أعتى الحراس قوّة، وبسالة، ويَقظةً على بابِ جناحها، فلا تبرحْ جناحها، ولا تتحدّث إلى حدّ خارج جناحها الملكي الفَارِه.

بعيدًا عن مرأى الملكة «إيزابيل أفيس» بأمرٍ من الملك «خوان الثاني»!

أسيرة، تحلم بيومٍ تلتقي به أحبتها، التي فرَّقَ شملهم جنونُ ملكٍ مُتغطرس، إلى أجلٍ غيرِ مُسمَّى!!!

رغمَ عدم تأكّدها مِن أنهم مازالوا على قيْد الحياة بعد!

كمْ فزعتْ «هيلدا»، مِن نومها باكية، تنادي زوجها.. وأطفالها..

فتتحسّس القلادة التي مازالت معلَّقة بِجِيدها، فتبثّ نفسها جرعةً مِن الصبر.. قائلة في نفسها:

- أشعرُ بأن تلك القلادة هي دليلي عليكم، ومُرشدي إليكم.. أحِبَّتِي، ولكنْ كيف؟ لا أدرى!!

ثمّ تطلّ العبرات مِن عينيها، فتغني في شجن..

يا مَنْ أحرقتم القلبَ بِبُعدِكُمُ

أمَا عُدتُم، حتَّى تلتقي المُقَلُ!!

الفصلُ الثالثُ عشر

(سَدِيم!)

اليوم الجمعة، و«راجح» الخياط قد توضّأ بميضة المسجد الكبير، و«عامر» ابنه ذو العشر سنوات توضّأ مثله، ثمّ مضيا للاسْتماع إلى خطبة الجمعة.

صعد الخطيبُ درجاتِ سُلّم المنبر، وبدأ خطبته بحمْد الله، والثناء عليه سبحانه، ثمّ بالصلاةِ على النبي صلوات الله، وسلامه وبركاته عليه، ثمّ قال:

لقد فتحَ هذه البلادَ القائدُ الباسل «طارق بن زياد»، قبل قرونٍ خلتْ، فهلْ بيننا مَنْ يجدُ في نفسه الغيرةَ على أرضه، ودينه، وعِرضه؟!

سرَتْ الهمْهماتُ بين المصلّين، فواصلَ الشيخ خطبتَه النارية:

- مَنْ منكم يتحمّل أن يُهَجَّر من بلاده؟! أو تُباد أسرته، وعشيرته؟! أو تُستباح حُرمة بيته؟! أو تُعرّى أمّه، أو ابنته، أو أخته، أو زوجته؟!

لا يخفى على أيّ منّا تلك الخلافات الواقعة بين حكومة بني الأحمر، هؤلاء الذين انشغلوا بصراعاتهم الداخلية عن تأمين حدود المملكة.

فاللهَ اللهَ في البلاد!!

اللهَ اللهَ في الإسلام!!

اللهَ اللهَ في أعراض المسلمين!!

اللهَ اللهَ في صنائع الفاتحين الأُوَل!!

جالَ مشهدُ غزو غرناطة، بِخَلد بعضِ الرجال بالمسجد، فبكوا رغمًا عنهم، وتساءل بعضُهم في نفسه:

– ماذا لو صارتْ تلك الهواجس حقيقةً قائمة، وواقعًا فعليًّا، يفرض نفسَه عليهم؟!

أرادَ شيخُ الجامع الكبير أنْ يستنهض همَمَ المسلمين، ويجعل تلك الصورة البغيضة ماثلةً بمخيّلتهم، عسى إذا ما وقعَ ما يحْذرون، جابهوا الغزاة، واسْتماتوا دفاعًا عن أرضهم.

صدحَ صوت المؤذن؛ «قد قامتِ الصلاة.. قد قامتِ الصلاة »، فأدّوا صلاتهم، وانفضّ الجمع، كلٌّ ذهبَ لشئونه. وبطريق العودة إلى البيت، مرَّ «راجح»، وولدُه «عامر» بحانوت «سُليمان القرطبي»، وهو رجلٌ خمسينيّ حكيم.. قليلُ الكلام.. دائمُ التجهم.. نادرُ التَّبسُّم، يعمل بصناعة السيوف والسكاكين.. فألقى «راجح» السلامَ عليه، فردَّ «سليمان» التحية، فيما كان يشحذُ سيفًا لامعًا، فقال «راجح»:

– سلمتْ يَمينك يا «قُرطبي».

وجِمَ «سليمان» كعادته، ثمّ قال:

– علامَ تسْلَم يَميني، يا «أبا عامر»؟!

قال «راجح» مبتسماً، وهو يُطالع جودةَ السيوف، والرِّماح، والأسهم المتقنة الصنع:

– إنَّك حدَّادٌ بارعٌ يا صاح.. ما رأيتُ بحياتي مَن يجيدُ صناعة أسلحةٍ مثلك.. فلا تقلّل مِن قدر نفسك!

فقال «القُرطبي» في أسًى:

– وما جدوى السلاح، والرّوحُ مُنهكة، والخنوع قد باتَ ديدننا؟!

تحيَّر «راجح» في أمر الرجل.. فسأله:

– ما الذي يجثمُ على صدرك هكذا، يا «سُليمان»؟!

أأثارت خطبة الجمعة ذكرياتِك الموجعة إلى هذا الحدّ؟!

زفر القُرطبي.. قائلًا:

– لقد تذكّرتُ قُرطُبة، وجامعها الكبير، ذلك الجامع الذي لطالما عكفَ أجدادي ــ بالتتابع ــ بجنباتِه، على تعليم الناس أمور دينهم، و تَدَارُس القرآن الكريم، و علومه، فإن جدِّي لأبي من أصل قرطبي، و جَدِّي لأمي كان شيخًا ورِعًا كذلك من «بلنسية»، قدْ فرَّ بدين الإسلام مِن بطش الحكام القشتاليّين إلى «مالقا».. ، وكانت خطواتي الأولى فوق أرض «غرناطة»، تلك الحاضرة الصامدة حتى يومنا هذا، ورفلتُ في دروبها..

فأدركتُ معنى المجد.. والعِزَّة، والرِّفعة منذُ نعومة أظافري، فكم دعتني أمي باسم «القرطبي»، حتى لا أنسى جذوري، و أرضَ أجدادي، ولكن....!!

ثمّ رمى «سُليمان» بناظريه إلى صناديق السيوف الكثيرة، وأكداس الرِّماح، وأغمدة الأسهم التي لا تُعدّ، تلك التي صنعَها قبل سنوات دونَ أن تجد مَن يقتنيها، وراح يقول:

- ولكنْ كلّما كبرتُ؛ فُجعتُ. فمنذ سنوات، وسنوات، وأنا أصنعُ الأسلحة، وأكدّسها بالصناديق، عسى أن يحملَها المجاهدون، فيحرّرونَ حواضرَنا العريقة المُغتصبة، فقدْ نذرتُ كلّ ما أملكُ من أجل تلك الغاية يا «راحج»، وأخشى ما أخشاه، أنْ تقع «غرناطة»، بين براثنِ الملوك الكاثوليك.. كقرطبة، وبلنسية، وطليطلة، وسرقسطة، و بلنسية، ومرسية، وطُليطلة، وغيرهم..

انتابَ «راجح» بعضُ القلق، وقال:

- عندك حقّ يا قُرطبي.. لا بُدّ من التحسّب لأي شيء قد يحدث، ولكنْ تفاءل خيرًا يا رجُل، وتذكَّر شعار راية غرناطة؛

«لا غالب إلا الله»

***

كان «عامر» يُقلّب ناظريه بين أبيه، و»سُليمان القُرطبي» دونَ أن يعي كلّ ما دار بينهما من حديثٍ.. فسأل أباه:

– لماذا عمّ «سليمان» عابثٌ دائمًا هكذا يا أبي؟ ما الذي يُغضبه؟! إنَّهُ لم يبتسم، ولم ينظر إليَّ مرةً واحدة!

لم يجدْ «راجح» ما يقوله للصبي، فمازال «عامر» صغيرًا، على أنْ يخبره بما يقضّ مضاجع الرجال الأشداء من أهل «غرناطة»، وساكنيها!

فربتَ على ظهره.. قائلًا:

– ماذا تريد أنْ تعمل عندما تصبح شابًّا، في سنّ عمّك «خاطر »، يا «عامر»؟!

– أريدُ أنْ أتعلم القرآن، وأفهمَ كلّ شيء في الدين كمُعلِّمي الضليع الشيخ «عبدالباري»، وأصبح مُعلِّمًا لأبناء المسلمين في كلّ مكان.

تراقصتْ دموعُ فرح بعيني «راجح»، رغم أنه كان يتمنّى أن يرثَ ابنه – عنه – احترافَ حِياكة الأثواب التي تُدِرُّ عليه المال الوفير !

تابع الصبيّ يقول في سعادة، أثناء مرورهما بالسيد «بهي الدين»، يجلس أمام حانوته الزاخر بأثمن الحُلي:

– يا أبي.. أنا سوفَ أصاهرُ العم «بهي الدين» .

دُهش «راجح» من قوله، وسأله في ارتباكٍ:

– ماذا تقول يا «عامر»؟!

فضحكَ «بهي الدين»، واستقبلهما في بشاشةٍ وترحيب.. قائلًا:

– ومَن يردّ صهرًا مثلك يا «عامر»؟! ولكنْ ماذا لو لم تلدْ خالتك «العلياء»، بنتًا؟!

ضحك «عامر»، وقال في براءة:

– إنَّ أمي قالت لي، إذا أنجبت الخالةُ «العلياء» بنتًا، فسوف أتزوجها!

ثمّ مطَّ شفتيه، وقال في صوتٍ يغلب عليه بعضُ الضيق:

– أمّا إذا أنجبتْ ولدًا، فلسوف أصبح مُعلِّمه، وأُثقله بالفروض اليومية الكثيرة!

ضحكَ الرجلان، ثمّ قال «بهي الدين»:

– لكَ ذلكَ يا شيخ «عامر»، وإنني مثلكَ أتمنى أن يرزقني الله بهذه البنت، حتى أنالَ شرف مصاهرتك، أيها العَالِم الجليل.

وتمضي الشهور التسعةُ تِباعًا، ويأتي على غرناطة صباحٌ غير معهود؛ حيث أحاطَ المملكة ضبابٌ شفيفٌ، مصحوبٌ بقطرات الندى التي قبَّلتْ وجنات الزهور، وأوراق الأشجار، وغرَّدتْ الطيور، وحلَّقتْ بالسماء في أسرابٍ كبيرة، حتى كادت «العلياء»، ألا تصدِّق ما ترى من خلال شُرفتها، فلم يكن اليوم باردًا كطبيعة يناير الشتوي المحمّل بالصقيع، فلمْ يغمض لها جفنٌ منذ ليلة أمس، حيث انتابتها آلامٌ متفرقة بالبطن، والظهر، ولكنّها لم توقظْ زوجها «بهي»؛ كي تخبره بما بها، والجنينُ بأحشائها يركلُ بقوة من حين إلى آخر، يدقّ على باب الحياة، يريد القدوم!

تحسّسَ «بهي الدين» الفراش مُغمضَ العينين، فلم يجد العلياء، فنهضَ ليطمئنَ عليها، فإذْ بها تتشبثُ بحافة الشُّرفة، وتئنّ بصوتٍ مكتوم.. خفَّ نحوها، يقول في توترٍ:

– حبيبتي، ماذا بكِ.. هل أنتِ بخير؟!

التفتتْ بوجهِها إليه، تقول فيما تُغالب الألم:

– لا تقلقْ؛ إنني بخير، ولكن يبدو أننا اليوم سنصير ثلاثة!

– تعالي، واستريحي حتى أجلب لكِ القابلة.

تبسَّمتِ «العلياء» بثغرٍ كمبْسم الزهر، قد انفرج عن صفّينِ من اللؤلؤ، وقالت بينما «بهي الدين» يطوقها بذراعيه:

– مازال الوقت مبكرًا على استقدام القابلةِ يا حبيبي.. ولكن قُل لي.. تريدُه ولدًا، أليس كذلك؟!

في ملاحةٍ، ضحك «بهي»، وقال:

– بل أُنثى يغار القمرُ من طلعتها، وتتوارى الشمسُ من سِحرِ مُحيَّاها مثلكِ يا جميلة الجميلات!!

ألقتِ «العلياء»– فارعة القامة، مستقيمة القد– نظرةً نحو الأفق، تطالعُ صفحة السماء، وتحليق الأطيار، فتقول:

– لئن رزقَنا الله بنتًا، لسَمّيتها «سَدِيم »، فماذا قُلت؟!

فقال «بهي الدين»، بينما يشاهد الضباب، يلفّ البيت، والحديقة الممتدة أمامَه، ويدرك مغزى اختيار «العلياء» لذلك الاسم بالتحديد، فيقول:

– ما أجمل غلالات الضباب الرقيق! إذن.. هي «سَديم» بإذن الله.

ومع انتصافِ ذلك النهار الصحْو، وضعتِ «العلياء» مولودةً حازتْ شطر الجمال، وأقبلتْ القريبات والصديقات المقربات، ومنهنّ «أمّ عامر»، وولدُها كذلك؛ لتهنئة «العلياء» بمولودتها الأولى، وإذْ بعامر يتأمّل الوليدة التي لم تسمّى بعد، ويصيح:

– ما شاء الله.. والله إنها تمامًا، كما رأيتها بمنامي ليلة أمس!

تعلَّقتْ به نظراتُ الجميع، وقالت «مروج»، وهي تحملُ الرضيع «إيڤ»:

– صحيح يا «عامر»؟! هل رأيتها حقًّا؟!

قال «عامر»، في براءة:

– نعم والله يا خالة «مروج». لقد رأيتها.. وسألتها: ما اسمُكِ؟!

فقالت: اسمي «سَديم»!!

هالَ «العلياء» ما سمعتْ مِن قول الولد.. فشهقتْ في تعجبٍ، وقالت:

– صدقتَ والله يا «عامر».. فإني، وأبوها، قد أسمّيناها «سديمًا»، واللهُ قد سمّاها كذلك قبلنا!

فقال «عامر» في جديةٍ، وهو ينظر نحو «ساموِيل»، الجالسِ في هدوء بجوار المولودة، يتأمّلها في سعادة:

- إذن هي عروسي، يا خالتي «العلياء»، ولن يتزوّجها سواي!!

ضجتْ غرفة العلياء بالضحكات، وقالت:

- بِكلّ تأكيد يا شيخ «عامر».

كان «ساموِيل» متّقد الذكاء كأبيه «ويليام».. إذْ تنبَّه إلى ما يرمي إليه «عامر»، فقال:

- وأنا بمثابة أخيها يا «عامر».

كم بكى «ساموِيل» كلّما تذكَّر والديه، وكيف اضطُرّ للاستجابة لطلب أمّه، وغادر مبتعدًا، وتركها وحيدة بالغابة.. وكمْ همسَ في نفسه حائرًا:

- تُرى أينَ أنتِ الآن يا حبيبتي؟!

وأين أجدُك يا أبتِ؟!

و هل تُراكَ ستتذكّرني يا «روبرت»، إذا ماالتقينا يومًا؟!

لقد عَهِد «بهي الدين» إلى «إسحق طوبيا»- وهو رجلُ دين مسيحي عربي، تمتدّ جذور عائلته إلى بلاد الشام- لتعليم «ساموِيل»، ثمّ «إيڤ»- عندما يكبر، ويدرك- أمور دينهما، حتى إذا اهتدى أبوهما «ويليام» إلى مكان ولديه يجدْهما مازالا على دينِ أبيهم، فلا إكراهَ في الدين، ذلك شعار المسلمين الصادقين في كلّ زمان، ومكان.

***

كاتدرائية «قشتالة» الكبرى، عام ١٤٥١م

مارسَ الراهبُ «بِليدي»، كافة سبلِ الهيمنةِ، والصّلف في تعاملاته داخلَ وخارجَ كاتدرائية قشتالة الكبرى بصفته راعٍ للكنيسة بعد خلع «موردخاي» من ذلك المنصب.

وكانت قراراتُه قاسية إلى حدّ كبير، حيث قام بتحْجيم الخَراج الذي كان يمنحه «موردخاي» لفقراء المملكة، وذوي الحاجة؛ سواء من مال تبرّعات الأثرياء، أو من محاصيل المزارعين المتبرعين للكنيسة!

فقد أُتخِمتْ خزينةُ أمواله، واتّسعت رُقعة ممتلكاته، وقد لاحظَ كلّ ذلك بعضُ الرهبان كالرّاهب «بودلير»، و»بارتولوميو»، و»أنْخِيل»؛ الذين اعترضوا على سياسة راعي الكنيسة المتعنّت، وطالبوه بإعادة العطايا كما كانت تُوَزَّعُ على الفقراءِ، والمحتاجين، بينما غضَّ بقية الرهبان الطرفَ عمّا يجري على مرأىً، ومَسمعٍ منهم!!

ممّا دفع «بِليدي» للتخلّص منهم، واحدًا تلو الآخر، فنالتْ منهم خناجرُ «بلتازار» المسحورة ذاتُ الشعار الزّرادشتي المبْهم، والذي لم يعدْ بالمملكة مَن يستطيع فكّ طلاسمه، وفهمَ مغزاه، بعد «موردخاي»، والعرَّافة «چِـبروتْـيــا»!

علِمَ «موردخاي» بنبأ اغتيال القساوسة الثلاثة في ظروفٍ غامضة، وبأماكن مختلفة، من «باترسون» حارس القصر، الذي كان يتناوبُ زيارته مُتخفّيًا بمزرعة الرّاهب الراحل «بودلير»، وقدْ حذرَ «باترسون» «موردخاي» من غَدراتِ الملك، ومُعاونيه، ودَعاه للتفكير مليًّا في أمرِ النزوح بعيدًا عن «قشتالة» التي لم تعدْ آمنة بالآونة الأخيرة!

غرناطة.. عام ١٤٥١م، بيت «حِنزاب، وبوران».. ليلة ميلاد «سديم»

- ياااااا لِنارِ صدري.. لا أستطيع النوم يا «حِنزاب»!! سأموووووووووتُ غيظًا..

كانت «بوران» تصرخ، وتلطمُ خدّيها، وتخْمِشهما، وتشدّ شعرها الثائر المجعدَ القصير، حتى تنخلع خصلاتٌ منه بين أصابعها الجافّة، وتندبُ حظّها طوال الليل!!

- ستقتلينَ نفسكِ يا «بوران»، هكذا.. أَكلُّ ذلك العويل؛ لإنجابِ زوجة «بهي الدين»؟!!

قالها «حِنزاب» في مواساةٍ لها.. عسى أن تهدأ، وتنام!

- أنتَ أيضًا يا خنزير، تعيِّرني بعقْمي؟! (ولْولتْ «بوران» مجدّدًا)

- لا.. لا.. يا زوجتي.. لم أفعل.

قالها «حِنزاب» مُرتعدًا، يخشى فجأة انتقامَها منه.. فهي غادرة، لا تُؤمَنُ بوائقُها[1].. هكذا يعرفها جيدًا!

كما أنه منذ تحرَّى الرزقَ الحلال، وكفَّ عن السرقة، وهو يعمل حمَّالًا بالسوق، يحمل أجوال الخضروات، وقُففَ الفاكهة، وأشْولة البقول فوقَ

(١) لا تُؤمنُ بوائِقُها: أي «لا يأمنُ أحدٌ شرَّها وسوءَ أفعالها».

ظهره، وعلى كتفيه، مُقابل بعض المال.. فلمْ يكنْ له أنْ يظلّ مُحتالاً في «غِرناطة»، فالفاسدُ بأرضٍ كغرناطة؛ يسهلُ اكتشافه، وهو واضحٌ للعيان، وضوح شمس النهار!

عاودتْ «بوران» العويل مرةً أخرى:

- إنَّ «العلياء» قد أنجبتْ بنتًا، يتحاكى الناسُ بطلعتها.. وأنا هل سأظلّ هكذا؟! أرض بوراء!

قال «حِنزاب» مُتلعثمًا:

- هذا أمر الله يا «شُعلة»!

- أوَ تؤمنُ بالله أيها المحتال الماكر؟! لعلّ ذلك ذنبك الذي حلَّ بالنحس عليَّ!!

فقال «حنزاب» مُدافعًا عن نفسه:

- ولكنكِ قدْ تزوّجتِ من قبلي بستةِ رجالٍ، وحالكِ هو الحالُ، عقيمٌ بلا عيال!!

انْهالتْ «بوران» عليه ضربًا، وأوْسعتهُ عضًّا، وركلًا، ولكمًا، حتى استغاثَ طالبًا أن تتركه!

ففعَلتْ بعدما أنْهكها ضربُها له.. فالتقطتْ أنفاسَها في عناء.. وهي تقول:

– لوْ عيَّرتني ثانيةً؛ فلنْ أتردّد في قتلك أيها الحمار!

لا تنْسَ أنَّ اسمَكَ «حِنزاب»، فهو مِن ألقاب الحمير!

ثم تنهَّدتْ، بينما تشيحُ بوجهها نحو الفراغ، هامسةً من بين أسنانها:

– كلّ النسوة ــ بالجوار ــ قد دخلنَ بيتْ «بهي الدين»، تُباركنَ للعلياء، ماعدا أنا؛ التي منعتني خادمتها كعادتها من دخولي على سيدة الدار !

تقول نسوةُ الحي إنّ المولودة تُدعَى «سديم»..

الويلُ لكِ مِنّي أيتها «العلياء».. وكذلك أنتِ أيتها «المروج»..

تالله لأجعلنّ َمنكِ يا علياءَ المقام، وضيعَةَ القدر !!

ولأُحيلَ حياتكِ يا «مروج»، ظُلمة دامسة!!

ولأحرقنّ قلبَيْكما، وكذلك قلبَ كبير الصاغة على الوليدة «سَديم»!!

الفصلُ الرّابع عشر

(صاحبةُ القميص العتيق!!)[1]

أرضعتْ «براجيس» الأميرة «إيزابيلا»، تلك التي أوشكتْ على إتمامِ شهرها العاشر، وبدتْ قوية البِنية، ثقيلةَ الوزن، سمينةَ البدن، ثمّ أطالتِ النظرَ إليها، وقالت في همسٍ، وعيناها ملأى بدموع يقهرُها العجز عن فكّ أسْرها لتنساب فوقَ خدّيها العجفوان:

– لا تحسبينَ أني أُرضعكِ حبًّا فيكِ، ولا تعتقدين يومًا بأني فضَّلتُكِ على ولدي «مِيرزا»، الذي تركته مِن أجلكِ! لا.. فلَمْ أحبّكِ، ولن أحبّكِ يومًا، فقد ماتَ «ميرزا» دوني، وبقيتُ رهينةَ شعوركِ بالجوع، فكلما بكيتِ، جاءوا بي إليكِ، كي ألقمكِ ثديي، فترتوين، بينما طفلي قد ماتَ ظمأ لِري صدر أمّه!!

ثمّ راحت تقول:

– حتى أني لا يُمكنني أنْ أرثي طفلي.. بسببكِ أنتِ!!

هلْ بعدَ هذه التّضحية الكبرى، قدْ تستغنينَ عني، وتُلقين بي إلى خارج ذلك القصر المهيب؟!

(١) صاحبةُ القميص العتيق: هو لقبٌ أُطلِقَ على «إيزابيلا الأولى» ابنة «خوان الثاني»؛ لأنها قد نذرتْ ألّا تستحم إلّا بعدما تحتل «غرناطة» آخر معاقل المسلمين بشبه جزيرة إيبريا حتى أنَّهُ لَيُقال بأنها لم تستحمّ في حياتها كلّها إلّا مرتين مرةً بعد ولادتها ومرةً عند زواجها. والمرةُ التي تحمّمت بها عند ولادتها قد لا تُحسب لها لأنها لم تفعلها بنفسِها!

وتتمرّغينَ وحدَكِ في كلّ ذلك الثراءِ والنعيم بدوني؟!

استطردت «بَراجيس» هامسةً في غلّ سافرٍ:

– باسْم العظيم «زرادشت» لأقتُلَنَّكِ، وأرْشف دماءَك قطرةً قطرةً!!

أطبقَتْ «براجيس» بأصابعِها على عُنق الرضيعة «إيزابيلا»– دونَ أن تدري ما تفعل– وقدْ خلا الجناح الملكي من الوصيفات، والخادمات على غير العادة!

وإذْ بالطفلةِ تشعرُ بالاختناق، وإذا بالملكة الأمّ « إيزابيل أفيس» تدخل الجناحَ فجأة، ومِن دون سابق إنذارٍ، ليهولها ما ترى، فتصيح:

– ماذا تفعلينَ بابْنتي أيتها الشيطانة؟!

اسْتفاقتْ «براجيس» مِن غفلتها، واستردّت وعيها، فحرّرت عنقَ الطفلة، وراحتْ تقول في تلعثُم شديد:

– أنااااا أناااااا.. أنااااا كُـكُّـ– كُـــنتُ أداعب الأميرة وحسب!

– أها.. نعم.. أعلمُ كمْ تحبّين الأميرة الصغيرة، وتولينها اعتناءً زائدًا.. كمْ أعجز عن شكركِ يا «بَراجيس»!

قالتْها الملكة «إيزابيل أفيس» في مكرٍ، حسبتْهُ «براجيس»– رغم دهائها– صدقًا.

ومنذ تلك الساعة، وقدْ أوكلت الملكة «إيزابيل أفيس» إلى واحدةٍ من وصيفات القصر؛ مَهَمّة مراقبة «براجيس» من طرفٍ خفي.

***

- لقد تسرّعتِ يا «بَراجيس».. لم يَحِن بعدُ وقتُ الانتقام!

قالها «بلتازار».. مُحدِّثًا زوجته «براجيس» في همس، بينما يقفان متَدثّران بظلام الليل.

في قلقٍ شديد.. سألته «براجيس»:

- هل تعتقدْ يا «بلتازار» أنّ الملكة «إيزابيل» قدْ شعرتْ بشيء؟! وأنْ لا أحد بهذا القصر يعرف بعلاقتنا؟!

زفرَ «بلتازار» كثعبانٍ ينفث سُمَّه.. ثمّ قال في حزم:

- لنْ أمكثَ ساكنًا حتى يقضي علينا الملك «خوان»، وزوجتُه الماكرة «إيزابيل أفيس».

مُضطربةً، قالت «براجيس»:

- ماذا ستفعل يا زوجي؟! أخشى أنْ أفقدكَ كما فقدتُ وَلدي الذي تركتُه - ببلاد بعيدة - مِن أجلِ مولودتِه الشّرهة، التي لا تكفّ عن الرضاعة في نَهَم، ثمّ تخْمِشني كقطّةٍ تعضّ يدًا مُدتْ إليها بالطعام!

- سترينَ يا «براجيس».. سأتخلّص مِن كلّ مَنْ يعترض طريقنا.. ثمّ نحمل الثروات، ونرحل قريبًا!

ثمّ استدركَ قائلًا:

- ولكنْ على الأقلّ فلننتظر حتى يتمّ فِطامُ ابنة الملك حتى نحظى بمزيدٍ من العطايا.

عادتْ «براجيس» إلى جناحِ الوصيفات، بينما اختفى «بلتازار» مُبتعدًا، عائدًا إلى ثكنته..

ولكنّهما لم يعرفا بعدُ بأنّ هناك عينيْن كانتا تتلصّصان عليهما، وأذنيْن قد سَمِعَتا كلّ كلمة دارت بينهما!

ولكنّ الملكة البرتغالية «إيزابيل» لم تكنْ مُتهوّرة حتى تتخلّص من «بَراجيس»، حتى تتمّ فِطام الأميرة «إيزابيلا».. لذلك، جعلتها تُرضعُها دائمًا في حضورها، وبحضور بعضِ الوصيفات اللواتي تأتِمنُهنّ على طفلتها أحيانًا!

حتى مضى ما يتجاوزُ العامين ونصف، وتمّ فِطامُ «إيزابيلا».. ولمْ تعدْ للملكة «إيزابيل أفيس» من حاجةٍ إلى «بَرَاجيس».

وقدِ اعتزمتِ الملكةُ بهذه الليلة أمرًا ما!!

فقبلَ أنْ ينبثق أولُ أشعةِ النهار على قصر «خوان الثاني»، كان جسدُ «بَراجيس» يتعلّق مترنحًا بحبلٍ قد طوّق عُنقها، يتدلّى لسانها مِن فمِها الفاغر، وقدْ لفظتْ آخرَ أنفاسها دونَ أن يدري بها أحدٌ مِن العاملين القصر.

لقدْ تمكّنتْ أيدي الملكة «براجيس»، ولكنها عجزتْ أن تنالَ من «هيلدا» غريمتها التي احْتلّت قلب زوجها «خوان الثاني»، ولكنّ الملكة «إيزابيل» قالتْ في نفسها:

– وما يضيرُني مِن بقاءِ «هيلدا» حبيسةَ جناحها بالقصر، فلا زوج، ولا ولد لديها، كما أنّها تصدّ «خوان»، وتزجُره كلّما حاول دخول جناحها!

اسْتطردتْ «إيزابيل» تقولُ في نفسها:

– إذن لا خوفَ من «هيلدا» التي اعتزلتِ الكون مُرغمة، وبقيتْ تعيشُ على أطلال ذكرياتها فقط.. فلكأنّها قطعةُ أثاثٍ لا تهشّ، ولا تَنُش!!

إنّ نفورَ «هيلدا» مِن الملك «خوان الثاني» جعلَها بمأمنٍ مِن انتقام الملكة «إيزابيل» تمامًا!

باءتْ كافةُ محاولاتِ اغتيال «بلتازار» للملكة «إيزابيل أفيس»، تلك التي أوعزتْ بقتل زوجته «براجيس»، وألقتْ بها بمصرفٍ قربَ القصر الملكي، وقدْ شاع خبر العثورِ على جثتها، طافيةً على سطح مائه العطن، تغطيها النفايات، والفضلات الآدمية!

فأيّ ميتة تلك التي كانت تنتظركِ يا «براجيس»!!

لم يُصِبْ خنجرٌ مِن خناجر «بلتازار» الملكةَ «إيزابيل»، فماذا حدث لهاتِه الخناجر المسحورة؟!

أدركَ «بلتازار» أنّ خناجرهُ قدْ فقدتِ التعويذةَ السحرية التي صقلَها بها ساحرُ زرادشتي مريد يمارسُ سحرَه الأسود منذُ عقودٍ ببلاد الفرس، ولما استطلعَ «بلتازار» أخبارَ ذلك الساحر ؛ علِمَ بأن الساحر قد مات.. لذلكَ انتهتْ تعويذاتُه السحرية، وغَدتْ الخناجرُ بينَ يدي «بلتازار»، كسَكاكين الطهاة، لا تقْتنص ضحيّةً، ولا تصيبُ هدفًا!

ولكنْ يبدو أنّ «بلتازار» قدْ أدركَ تلك الحقيقة بعدَ فواتِ الآوان؛ فقد وقع بِشَرَكِ الملك، وألقى جنودُ الملك القبضَ عليه، وأُعدم بالمقصلة بساحةِ «قشتالة» الكبرى أمام جموع الشعب، مَوصومًا بتهمة الخيانة العُظمى للملك!

ليتَ كلّ متواطئ معَ حاكم ظالم، أوْ مرؤوس فاسد؛ يدرك أنّه سوف يصبح ورقةً محترقة، لا قيمة لها، ولا وزن، تذْروها الرياح، ولو بعد حين!!

***

– كمْ أنا قلقة أيّها الراهب «بليدي»، فالملكُ صحّتهُ متردّية، والأميرةُ مازالت صغيرة، ومولودي «ألفونسو»، مازال رضيعًا!

– لا تقْلقي يا جلالة الملكة، إنّي بجواركم، وطوعَ أمركم.. الأميرة «إيزابيلا» بأمانتي.. ولسوف نواصل معًا حربَنا المقدسة، وتوسع مَمالكنا، والهيمنة على «غرناطة»، آآآخِرَ معاقل المسلمين.

ثمّ قال في غِلّ سافر:

– فلنْ يبقى فوقَ ظهر شبْه جزيرة إيبريا مسلمٌ واحدٌ.. سنبيدُهم عن آخرهم. هذا الهدف السامي هو ما يجبُ أن تنشأ عليه الأميرة «إيزابيلا» مِن الآن، وحتى يستتِبّ لنا أمرُ تنصير كافة أرجاء «إيبريا»، وجُزر الهند، وأفريقيا، والعالم أجمع!!

ثمّ تابع، فيما تومِئ الملكةُ مؤكّدة كلامَه:

– لا بُدّ أنْ تحملَ الأميرة «إيزابيلا» رايةَ الحرب المقدسة، كما أوصى الملكُ «خوان الثاني».. فالملكُ يضعُ جُلَّ آماله بوريثة عرشه!

لقد مات الملك «خوان الثاني» دون أن يرى راية القشتاليّين مرفرفةً فوق غرناطة، تاركًا خلفه ابنته «إيزابيلا الأولى» التي تجرّعتْ شتى صنوف الحقد على الإسلام، والمسلمين،

وتركَ خلفه كذلك ابنَه «ألفونسو» الذي لم يتجاوز عامه الأول بعد؛ فانزوتِ الملكة «إيزابيل أفيس»، يمزّقها القلق، والرهبة من فقدان سلطانها، خاصّةً وأنّ «إنريكي الرابع»- أمير قشتالة، أخو أبنائها غير الشقيق- قد لُقِّبَ بالعاجز نظرًا لضعفه، وقلّة حيلته إزاء المشكلات التي تجابه مملكته، ويكاد يفقدُ سيطرته على قشتالة، فكيف سيَزُود عن أخويْه الصغار «إيزابيلا، وألفونسو»؟!

لذلك بقيَتِ الملكة الأمّ «إيزابيل أفيس» على أملِ أنْ تحمل ابنتها «إيزابيلا» رايةَ أبيها «خوان»، وتصبح ملكةً متوّجة على عرش قشتالة، وأرجوان، وقشتالة، وصقلية، وأخيرًا، ملكة على عرش «غرناطة»، فعكفت الملكةُ بمعاونة الراهب «بليدي» على إعدادِ «إيزابيلا» لتولي تلك المهمة المقدسة «على حدّ وصفها»!

***

مملكة «قشتالة».. يوليو عام ١٤٦٨م.

بالخامس من شهر يوليو عام ١٤٦٨م، ماتَ أصغر أبناء «خوان الثاني»، وهو «ألفونسو» أمير أستورياس، ولم يبلغ عامَه الخامس عشر بعد..

وإذْ بالأميرة «إيزابيلا» ذاتِ السبعة عشر عامًا، تقول لأمّها الملكة «إيزابيل أفيس»، في حِدّة، ولم يمضِ أسبوعٌ واحدٌ على وفاةِ أخيها «ألفونسو»:

- انزعي عنكِ ثوبَ الحِداد أيتها الملكة.. ولاتنظري خلفكَ، فثمّة مجدٍ عظيم بانتظارنا!

هدَرتِ الملكة «إيزابيل» في غضب:

- مِن أيّ صخرةٍ قدِ اقْتُطِع قلبكِ أيتها المعتوهة.. هلْ نحن بحالٍ تسمح بمثل هذا الهراء؟!

ثمّ صاحت، وهي تذرف الدموعَ الحارّة:

- لقدْ مات الملكُ قبل عام، والآن قد ماتَ طفلي «ألفونسو»، وأنتِ تَطلبين مِنِّي أن أنزعَ ثوب الحداد؟!!

أشاحتْ «إيزابيلا» بوجهها بعيدًا، وقالت في كِبر:

- نعم؛ لأنّني سوف أتزوّج!

صرختِ الملكة، ثم تهالكتْ فوقَ مقعدها، وهي تقول:

- تتزوّجين؟!

في صوتٍ بارد كالزمهرير.. قالت «إيزابيلا»:

- ألم تُجرّعيني مقتَ المسلمينَ منذ نعومة أظافري؟!

ألمْ تجعلينَني أحلم ليلَ نهار؛ باحتلال «غرناطة»، وطرد المسلمين مِن كافّة أرجاء «إيبريا»؟!

فإلى متى الانتظار؟ وقد أرسل الأمير «فرناندو الثاني» في طلب يدي، وقد أبدى ترحيبَه التامّ بمساندتي بالحرب المقدسة التي أرادَ أبي الملك «خوان الثاني» حمل رايتها، وتحقيق ما لمْ يستطعْ تحقيقه بشبه الجزيرة؟!

لمْ تستطعِ الملكة «إيزابيل أفيس» أن تجادلَ ابنتها، فها هو ما غرستْ نواتَه مِن حقدٍ دفين، يؤتي ثمرته، ولعلّها قد جعلتْ مِن ابنتها كائنًا بلا قلبٍ، ولا مشاعر!!

فتابعتِ الابنة المشبّعة بالبغضاء- قبل أن تغادرَ جناحَ أمّها، وتصفقَ الباب بعنفٍ خلفها-:

- سأتزوّج من «فرناندو»، رغم أنفِ أخي «إنريكي» ذلك الخانع.. العاجز.

وكذلكَ لو كانَ زواجي منه كذلك ضدّ رغبتكِ أنتِ نفسكِ يا ملكة «قشتالة»!

وقد نذرتُ نذرًا بألّا أستحمّ، أو أتزين، أو تمسّ يدي طِيبًا، إلّا بقصرِ الحمراء.. بغرناطة!!

لقد عزمتُ.. ولن يوقِفَني أحدٌ بعد اليوم!!

***

«أندورا».. ٢٤ أبريل عام ١٤٦٩م..

قصدتْ «چِـبروتْـيـــا»- عرَّافة «قشتالة»، وشبه جزيرة إيبريا بأسرها- بيتَ البحَّار الراحل «ويليام ستيوراس»، الملقب بِـ «ويليام سيلور»، أي «ويليام البحَّار» باللّغة الإنجليزية.

عندما هبطتْ، و»ويليام» شقيق الملك «خوان الثاني»، وابنه «روبرت» أرضَ إمارة «أندورا» بأحضان جبال البرانس الشرقية بين قشتالة «أسبانيا»، وفرنسا؛ سألتْ كلّ مَن تلقى بطريقها عن بيت البحَّار الراحل، «ويليام سيلور»!

لم يعرفْ كثير من الناس، ذلك البحَّار المذكور، فقد رحلَ «ويليام سيلور» البحَّار الشاب عن «أندورا» في رحلة صيدٍ بحرية، قبل ما يرْبو على أربعةِ عقود، لذلك لم يدلّها عليه مَن هُم أقلّ عمرًا من الثلاثين، والأربعين عامًا.

ساروا ساعاتٍ، دون أن يهتدوا لشيء.. حتى التقوا بِـمزارعٍ قد ناهز الثمانين من عمره تقريبًا، وعندما سألته «چِـبروتْـيـــا» عنْ منزل «ويليام سيلور»، شرد العجوز قليلًا، وتنهَّدَ بعمق، والْتمعَتِ الدّموعُ فوق مقلتيه الزرقاوين.. وقال بصوتٍ متهدّجٍ:

- كم اشتقتُ إليكَ أيها البحَّار الجسور!!

في لهفةٍ، قالت «چِـبروتْـيــا»، وفؤادُها يعربدُ بين ضلوعها:

– أوَ تعرفه؟!

– أجَل.. فما زارني يومًا إلّا وجعلَ لي حصةً مِن صيده، كم كانَ معطاءً سخيًّا رغم الظروف القاسية التي نشأ بها.

أجاب العجوز، ودموعُه تجري فوقَ وجهه، وتبلّل لحيته البيضاء..

سأله «ويليام»:

– أين منزلُه؟ وأهله؟!

تنهَّد العجوز ثانيةً.. ثمّ قال:

– أمّا عن أهله، فقد رحلتْ أمّه قبل سنوات، وكان له أخٌ يصغره، قد رحلَ عن أندورا للعمل بالتجارة، منذ أكثر مِن عشرين عامًا، ولم يعد حتى الآن.

أمّا بيته، فمازال مُغلقًا بمزلاجٍ صدئ..

أمُرُّ ببيتٍ من حين لآخر، ويُخيّل إليّ أنّه سيعود رغم غرقِه باليمّ منذ زمنٍ بعيد!

ثمّ سأل العجوز:

– مَن أنتم؟ ولماذا تسألون عن بيت البحَّار؟!

- ضيوف، غرباء.. لعلّنا سنمكثُ فترةً ببيته لو أمكنَ.

حدَّق العجوز مليًّا في وجْه العرَّافة، ممّا أربكها، ثمّ سألها:

- أنتِ أثناسيا؟! أليسَ كذلك؟!

ثمّ نظر إلى «ويليام».. وقال:

- لولا أنني أعرفُ أن «ويليام ستيوراس» قد ماتَ غرقًا منذ عقودٍ؛ لحسبتكَ هو يا بُني، فلكأنني أراه الآن!!

ابتلعتِ العجوز لسانَها.. فلم تتوقّع قط، أنْ يعرفها أحدٌ من سكان تلك البلاد البعيدة، بينما تجمَّد «ويليام» تصعقُه المفاجأة، فيما يحملُ «روبرت» الصغير نائمًا، وقد أراح الصغيرُ رأسه فوق كتف أبيه.

استشعر المُزارع العجوز ما ألَّمَّ بهما مِن دهشة عقدت لسانيْهما، فقال:

- لقد كان «ويليام» البحّار بمثابة ابني، وكنتُ مستودعَ أسراره.

كمْ حكى لي عن فتاةٍ جميلة في «قشتالة»، زرقاء العينين، ساحرة المحيّا، قد أسرتْ قلبه، وأنّه سوف يتزوّجها، ويأتي بها إلى «أندورا» كي يُعرّفني إليها، بعد أنْ يعود من رحلته الأخيرة!

ولكنّه لم يَعُد.. وها هي الفتاة قد أتتْ، ولكن بدونه!

غَلَبَ العجوز عَبراته، وتماسك بعض الشيء وهو يقول:

– لعلّ العروس المنشودة سوف تلقاه بمكانٍ بعيد، أفضل من أندورا، والأرض كلها!

ثمّ اصطحبهما العجوزُ إلى بيت «ويليام» البحار.. وبالطريق، أخذ يحكي لهما عنه كثيرًا من سماته، وصفاته الطيبة.

أزاح المزلاج بصعوبةٍ، فإذْ بدارٍ فسيحةٍ خاوية على عروشها.. بعضِ الأواني الفخارية المحمّلة بطبقاتٍ سميكة من التراب.. وأحواضِ زرعٍ جفتْ وتشقّقتْ، وحُجرتيْن متجاورتيْن، ليس بهما سوى سريريْن متهالكين.. وفأسٍ، وتنّورٍ متهدمٍ.. وفناءٍ خاوٍ.

تذكَّرت، وهي تراه، ما قاله لها عنه البحار:

– في داري؛ فناءٌ فسيح، لسوف أزرعُ أرضه كلّها بالزهور من أجلكِ.. أثناسيا!

رغمَ بؤس الدار، إلّا أن «چِـبروتْـيــا» استشعرتْ الطمأنينة بها، ودّتْ لو قبَّلتْ الترابَ الذي وطأته قدما البحار الحبيب، وتمنّت لو عاد للحظاتٍ حتى تخبره بأنّها– وأخيرًا– في بيته!!

مكثتْ «چِـبروتْـيــا» ببيتِ «ويليام سيلور» تراه، وتجالسه، وتحاكيه، فقط في خيالها!

أما «ويليام»، فقد عرضَ عليه المزارعُ العجوز أن يعاونه في حقلِه بضعَ ساعاتٍ كلّ يوم، لقاءَ بعض الخضروات والفاكهة مِن خيرات الأرض، كما

توسَّط له العجوزُ لكي يعمل في رعي ماشية إقطاعيّ ثري من تجّار «أندورا»..
كما عمِل معه ابنه «روبرت» في رعي ماشية السيِّد الثري.

ومرّت السنوات، وهُم على ذلك الحال، حتى شبَّ «روبرت»، وصار يافعًا معتدلَ القدّ، مليح الوجه كأبيه، ثلجيّ البشرة كأمّه، ولكن العمل برعي الماشية قد لوَّن بشرته بمسْحةٍ قمحيةٍ طفيفة، فقد كان يُمضي يومَه حتى الغروب تحتَ أشعة الشمس، يركضُ خلف الغنم، ويسوق الأبقار إلى حيث الكلأ، والحظائر!

لم ينسَ «روبرت» أخويه، رغمَ صغر سِنّه عند حريق الغابة الذي شتّت شملَهم، ولم يفتأ يذكرهم، ويسأل أبيه، وجدّته العرَّافة عنهم.. فيجيبُه أبوه بفؤادِ أبٍ جريح:

– سنلقاهم قريبًا.. قلبي يُحدّثني بأنهم بخير!

في كمدٍ يعاود «روبرت» أسئلته:

– ولكنْ أينَ هُم؟ وأين أمي؟ ومتى نراهم؟!

كمْ نكأت أسئلة «روبرت» جراحَ قلب والده.. الذي لا يجدُ ما يُجيبه به.. سوى:

– لا أدري.. الرَّبّ وحده يعلم.

ثمّ يلتفتُ «ويليام» إلى «چِـبروتْـيــا».. ويقول مخاطبًا ابنه «روبرت»:

- سَلْ جدّتكَ يا بُني.. فلعلّ إجابة أسئلتكَ لديها!

يمتقعُ وجه العرَّافة، ولا تُجيبه.. وتتصنّع الانْشغالَ بترقيع ثوب، أوْ رتْق نعْل!

ولكنّها تُطمئن «روبرت» الذي بدأ يخطو نحْو مرحلة الشباب.. قائلة:

- سنلتَقيهم.. صدِّقني!

- متى إذن يا جدتي؟! (يسألها الفتى في ضجر..)

فتقول «چِــبروتْــيــا» في هدوء، وهي تنظر إلى السماء:

- قريبًا يا صغيري.. فما أسرعَ مرور الأيام!

الفصلُ الخامسُ عشر

(مجامرُ الحنين!!)

إنَّ مجامرَ الشوقِ بالقلبِ تستعرُ..

وهلْ سوى الله يُلهمَ الصبرَ الجميل؟!

***

أخذتْ «مروج» تهدِهدُ الرضيعة «سديم»، وتغني لها بعْدما خَلد «إيڤ » للنوم، بعدما أرضعته السيدة «العلياء»، ثمّ ذهبتْ لتجالس زوجَها «بهي الدين» الذي بدا مهمومًا بخطبٍ ما..

تغنّي «مروج» بصوتٍ ساحر، يغشاه الشجن، وحرّ الشوق:

- يا لَيتَنِي حُلمًا سَرَى
أملًا يُداعبُ خَاطِرَه!!
ألا ليتَ منزلي عندهُ
بينَ الحَشا والذَّاكِرة!!

انتبهتِ «العلياء» إلى بوحِ «مروج»، الذي ينمّ عن جوًى مطمور.. مَخبوء بين جوانحها، فقالت في نفسها، قبلَ أن تبتعدَ عن الغرفة التي تجلس بها «مروج»:

– لقدْ نسيناكِ يا «مروج».. ومَن لكِ بعد الله سوانا؟!

ثمّ هرولتِ «العلياء» كي تخبر «بهي الدين» بما لمْ ينتبه إليه من دونِ قصد:

– يا «بهي»، إلى متى سنؤجّل زواج «مروج» و«خاطر»؟!

سوَّى «بهي الدين» من جلسته، وهو يقول:

– حقًّا يا «أمّ سديم».. لقد آنَ الأوان.. وكفانا انتظارًا.. ولكن...!!!

– ماذا يا «بهي»؟!

قال «بهي الدين» في جدّيّة:

– ولكنْ ماذا عن الولدين؛ «ساموئيل، وإيڤ»؟! أين سيكونا بعدَ زواج «مروج وخاطر»؟!

ثمّ واصل توضيحه.. قائلًا:

– خاصةً وأنّها تساعدكِ في رعايةِ الولدين، بالإضافة لرعايةِ ابنتنا «سديم»!!

أدركتِ «العلياء» مرادَ زوجها.. فقالت:

– يسيرة بإذن الله يا «أبا سديم».. فلتّتخذ لمروج وخاطر دارًا قريبةً من دارنا.. ولتصطحبَ «مروج» الطفليْن معها إلى الدار الجديدة.. ولتبقى «سديم» معي حتى تعود «مروج» إلى التردّد علينا لمعاونتي ثانيةً.. إنّي متأكدة مِن أنها لن تستغني عنّا بعد زواجها على كلّ حال.

استحسنَ «بهي الدين» رأيَ زوجته، وشرع في تجهيز دار الزوجيّة للعروسينِ، وقد تحدّد يومُ زواجهما في غضون أيام.

كان «بهي الدين» رجلًا كريمًا، كثيرَ التَّصَدُّق على المحتاجين، لم يعنِه يومًا كم أنفَقَ وبذل!

وما أهمَّه أمرٌ بقدر مصير «ساموِيل، وإيڤ»، خاصّةً وأنَّه قد أرسل بعضَ الرجال الذين يثقُ بهم- سرًّا- إلى «قشتالة» للبحث عن «ويليام» والدِ الطفلين، ولكنْ لم يعثر عليه أحدٌ منهم، كما أكَّد شهود العِيان- من بعض ساكني الأكواخ على أطراف الغابة- بأنْ لا أحدَ منهم قد رآه منذ يوم الحريق السالف!

وقدْ أخبرَ «بهي الدين» بذلك «راجحًا» الذي كان يهتمّ لأمر «ويليام» كذلك؛ حتى يُسلِّمه الأثوابَ التي حاكَها مِن أجل زوجته ومربّيته، فما كان من «راجح» إلّا أن حفظَ تلك الأثواب أمانةً لدى «ساموِيل»، وأوصاه أن يسلمها لأبيه إذا ما التقاهُ يومًا!

لم تسعِ الدنيا «مروجًا» سعادةً لاقتراب زواجها ممّن يهفو قلبُها إليه، بينما كادَ الحزن يفتكُ بخاطر لزفاف «رينادة» إلى «عصام الدين» قبل ليلتيْن مضتا!

لا يكادُ «خاطر»- الذي عشقَ «رينادة» حتى الثُّمالة- يراها تُزفّ إلى غيره، وهو يعرف جيدًا بأنها لم تكنْ لتقبلَ بعاملٍ بسيطٍ مثله، وهي الراغبة في الثراء،

والوضع الاجتماعي المرموق! ولكنّ القلب لا يعرف التعقّل، وزِنة الأمور بميزان المنطق، والمعقول، والمقبول!!

أبقتِ «العلياء» الولديْن؛ «سامويل، وإيڤ» في بيتها ليلة عُرس «خاطر، ومُروج»،

ولم تكدْ «مروج» تصدّق أنها قد صارت زوجةً لمن تحبّ بعد!

انقضى العُرس، ودلفت العروس- وسط الزغاريد والتبريكات- إلى بيتها الجديد، مُحاطةً بمَن أحبوها، وعاملوها معاملةَ الابنة، والأخت، فلم تستشعرِ الوحدة، ولمْ يستبدّ بها الأسى لرحيل والديها قبل أن يرياها عروسًا!

انفضّ الجمع، والساعاتُ تمُرّ، و»خاطر» لم يعدْ منذ أن انْتهى حفل الزفاف.. فقدْ تسلّل خِلسةً، ومضى إلى حيث لا تعلمُ العروس!

لقد هامَ على وجهه، لا يدْري إلى أين يذهب.. يتحمّل فكرة الموت على أن يكون زوجًا لغيرِ «رينادة»!!

ومع تباشير الصُّبح، عادَ «خاطر» ليجد «مروج» مازالت مستيقظةً، فلم يُعرْها انتباهًا، ودلفَ إلى صحن الدار، يفترشُ حصيرًا كي يتوسّده، وينام.

فقالت له «مروج»:

- لقد قلقتُ عليكَ كثيرًا!

بامتعاضٍ قال، وهو يوليها ظهرَه:

– أنا لست طفلًا صغيرًا حتى تقلقي عليَّ.. اذهبي كي تنامي!

قلبُها يعتصره الألم، فتغالبُ الحزن والدموع.. لتقول له:

– أعلم أنكَ مازلتَ تحبّها.. ولكن قلبُها قد اختار غيرك.

انتفضَ جسده، وهدر قائلًا.. دون أن ينظرَ إليها:

– عمَّن تتحدثين؟!

خانتها دموعُها، وهي تقول:

– أتحدّثُ عمّنْ كانت تنظر نحوكَ مِن عليائها بلامبالاة!!

عمَّن كانت تعلم بهيامكَ بها، ولكنكَ لم تكن فارسَ أحلامها يومًا!!

أتحدّثُ عن «رينادة» يا «خاطر»!!

قالتها، ثمّ هرولتْ لعلّ البكاء يهدئ مِن شبيبِ صدرها بعيدًا عمّن يضنّ عليها بنظرةٍ واحدة!!

مرّتْ أيام، تلْو أيام.. ولا حاجةَ لخاطر ببيت الزوجية إلّا للنوم بعد يوم حافل بالعمل، لا يتحدّث إلى «مروج»، بل لا يكادُ يشعرُ بوجودها أصلًا!!

أمّا «مروج»، فقد عاودتْ زيارة «العلياء»، ومعاونتَها في رعاية الصغار، خاصّة الجميلة «سديم» التي كانت تزدادُ حسنًا يومًا بعد يوم!

– كيف حالكِ مع «خاطر» يا «مروج»؟! (سألتها «العلياء» مباشرةً لمّا لاحظتْ وجومَها، وشرودَها كثيرًا..)

فقالت «مروج»، وهي ترسمُ على وجهها ابتسامةً مُفتعلة:

– وهلْ هذا سؤالٌ يا سيدتي؟! و هل كنتُ سأجدُ زوجًا خيرًا من «خاطر»؟!

فقالتِ «العلياء»:

– أتمنّى أن أصدقكِ يا «مروج». صارحيني؛ فإنّ «بهي الدين» يمكنُه أن يبصِّره بقدركِ لو لم يكنْ يعلمُ بقدركِ الحقيقي!

فقالت «مروج» في سرعةٍ وارتباك:

– «خاطر»، واللهِ.. خير الرجال، وأرفقهم. اطمئنّي سيدتي.

دنتِ «العلياء» من «مروج» وعانقتها، وهي تقول:

– يعلمُ الله يا «مروج» أني أعتبرُكِ أختي التي لم تلدْها أمي.

فأسرعت «مروج» تريد أن تُقبّل يدَ «العلياء»، وهي تقول:

– حاشا لله.. أنتِ سيدتي.. وستبقينَ سيدتي ما حييت.

ولكنّ «العلياء» قدْ أسرعتْ، وسَحبتْ يدَها قبل أن تقبّلها «مروج»، وقالت:

– أستغفر الله.. أستغفر الله.. اعتدلي يا «مروج»، فأنتِ مِنّي، وأنا منكِ!!

وتمضي الأيام.. والشهور.. والسُّنون، وينفرط عقدُها، وتعود «العلياء» لسؤال «مروج»:

– لقد مرتْ سنوات، ولم أرَ لكِ ولدًا يا «مروج».. طمئنيني بالله عليك!!

فتغالبُ الخادمةُ الأمين حزنَها الدفين، وتتصنّع التبسّم قائلة:

– إنّ الله قد أنعمَ عليَّ بأربعة أبناء؛ «عامر».. و«سَديم».. و«ساموِيل».. و«إيڤ». فأيّ النساء أوفر حظًّا مِنِّـــــي.. سيدتي؟!!

فتسكتُ «العلياء» التي لا يسرّها حالُ «مروج».. على أملِ أنْ تصارحها يومًا بما يؤرّقها!

لم يقرب «خاطر» زوجته «مروج» قَط.. فلقد عاشا سنواتٍ تحتَ سقف بيتٍ واحد دونما زواج!!

وكمْ حاولت «مروج» أنْ تُنسيه «رينادة»، ولكنّه كان يزجرها، ويُبعدها، قائلًا:

– أنا لم.. ولنْ أحبَّ سوى «رينادة».. أتفْهمين؟!

بينما صار لدى «رينادة» و«عصام الدين» خمسُ أولاد « ثلاثة أبناء، وبِنتان»!

كانت «مروج» تُحدِّث نفسها كثيرًا، في تصبُّرٍ:

– إنَّ هذا هو قدَرُكِ يا «مروج»، فما كلّ ما يتمنّاه الإنسان يناله، عليكِ أنْ تحمدي الله على حالكِ، يكفي أنَّ لكِ بيتًا، ولو لمْ يكن سوى جُدران، ثمّ إلى متى كنتِ ستُقيمنَ في دار السيد «بهي الدين»؟!

بلغت «سديمُ» عامها الثاني عشر، وقد حازتْ شطر الجمال رغم صغرها وبراءتها.. متورّدة الوجنتين، عسليّة المقَل، رائعةَ البسمة.. رائقة المُحيا.

بينما «عامر» قد أصبح خطيبًا وداعية مفوّهًا، وقد بلغ اثني وعشرين عامًا.. وجهُه مشرق بنور ربّه، وكلما لامَتْه أمُّه قائلة:

– يا وَلَدي.. إنّ مَن هُم أصغرُ منك قدْ تزوّجوا، وأنجبوا الأطفال! أريدُ أن أفرحَ بك.. فأنت ابني الوحيد!

يضحكُ «عامر» قائلًا، فيما يُقبِّل رأسَها:

– يا «أمَ عامر».. كم قُلتُ لكِ، إنّ عروسي مازالت صغيرة.. ولنْ أتزوّج سواها!!

فتقول أمُّه مُتحسرة:

– يا بُني.. ومَنْ لا تتمنّى عروسًا لولدها مثل «سديم»!!! ولكنّها مازالتْ صغيرة.. فلتتزوّج بأخرى إذن، إلى متى ستنتظرُها حتى تكبر؟!

فيقول «عامر» في ثقةٍ ويقين:

– سأنتظرُها إلى آخر العمر.. فوالله إني لا أريدُ سواها!

ثمّ مالَ على أذنِ أمِّه قائلًا:

– هل أُخبركِ سرًّا يا أمّاه؟!

في تعجّلٍ قالتْ «صفيَّة»:

- قُل يا وَلَدي..

فشدَّ على يدِها بيدِه الحانية، وهو يقول:

- ولكنّ ما أقوله سرٌّ.. فمثلُ هذه الأمور لا يجبُ أن تُفْشى!

هزَّت «صفيَّة» رأسَها مؤكّدة، وعيناها يملؤهما التّرقّب.. فهمسَ «عامر»، والمسكُ يفوح من أنفاسه الدّافئة:

- لقد رأيتُ حبيبي رسولَ الله، صلى الله عليه وسلم، ليلةَ أمس فيما أنا نائم، قُبيلَ صلاة الفجر؛ يقول لي:

(أبْشِر يا «عامر»، فإنّ الله جلّ وعلا، قد كتبَ لكَ زوجةً سوف تُلبِسُ والديها تاجا الوقار في الجنة.. فهي حاملةٌ لكتاب الله.. وسيبقى كتابُ الله بصدرها حتى تلقى ربّها، لن تنسى منه حرفًا واحدًا!).

فقلتُ له:

- بأبي أنتَ وأُمّي يا رسول الله.. أين هذه التَّقية؟!

فأشار الحبيب محمدٌ، صلى الله عليه وسلم، إلى حديقةٍ غنَّاء لم أرَ مثلها من قبل، فإذْ بفتاة جالسة بروض به مِن الزهر والثمر ما لا عينٌ رأت، فلما دنوتُ من ذلك الروض، فإذْ بي أجد أنّ الفتاةَ هي «سديم»!!!!!!

أجهشتْ «أمّ عامر» بالبكاء لفرْط سرورها بما قصّ عليها ولدُها من رؤياه الرائعة، وقالت:

- صلَّى الله عليك وسلّم يا رسول الله.

ثمّ تابعت، وهي تعانق ابنَها:

- إذن فلتنتظرْها حتى يأذنَ لكَ بها الله.. ولن أعودَ إلى جِدالي بأمْر زواجك بعدما سمعتُ اليوم.

ثمّ أخذت المرأةُ تلهجُ بحمد الله وشكرِه كثيرًا!!

لقد صار «ساموِيل» بالتاسعة عشرَ من عمره، وقد عملَ بمتجر أقمشةٍ كبير، قد ألحقَه بالعمل به أستاذُه ومُعلّمه «إسحق طوبيا».

أمَّا «إيڤ» فقد كان بالثالثةِ عشرَ من عمره، وعملَ بطاحونةٍ بحي البيازين كذلك، وقدْ عكفتْ «مروج» على رعايتهما بأفضل ما تراعي الأمّ فلذاتِ كبدها بإخلاصٍ منقطع النظير!

أمّا «سديم»، فكانت مُهجةَ قلب أبويها، ونورَ أعينهما، ترفّ إليهما رفيفَ الطير، وتُقبل عليهما فتفيضُ بمجلسها وحديثِها القلوب لها حُبًّا فوق ما بها مِن حبّ!!

- أبتِ!

- عيونُ أبيكِ يا «سديم»!

- لي لديك طلبٌ. (قالتها «سديم» في خجلٍ..)

هشّ لها أبوها، وقال:

– أنا وكلّ ما أملكُ لكِ يا حبيبتي.

فقالت البنتُ في وداعة:

– أريدُ قنديلًا!

سألها «بهي الدين» مُتعجّبًا:

– وماذا عن كُلّ القناديل المتناثرة حولكِ بالبيت والحديقة هذه كلّها؟!

فقالت «سديم»:

– لا يا أبي.. أنا أريدُ قنديلًا من أجلي وحدي.

لم يفهمْ «بهي الدين» ماذا تقصد الطفلة، فسألها مجدّدًا:

– كلّ هذا البيت.. اعتبريه لكِ وحدكِ!!

فقالت البنت:

– يا أبتِ.. إني أريدُ قنديلًا كذلك الذي يضعه الناسُ أمام دورِهم، إذا كان بالبيت فتاةٌ تحفظ القرآن كاملًا.. حتى إذا ما رأتْه بنتًا مارّة تحذو حذوي، وتُقبِلُ على حفظِ كتاب الله مثلي!!

انشرحَ صدر «بهي الدين»، وأُعجبَ برجاحَةِ عقل ابنته.. ثمّ سألها:

– ولكنّكِ لم تُتمّي حفظ القرآن كاملًا!

فقالت مُبتسمة:

- بعدَ غدٍ الجمعة.. سوف أُتمّ حفظ كتاب الله تعالى عنْ ظهر قلب!!

حملَها بهيُّ الدين، ثمّ نهضَ يدور بها، ويرفعُها بذراعيْه عاليًا، وهي تضحك في براءة ونقاء.. وهو يهلّل في فرح غامر:

- مرحى.. مَرحَى.. مرحى يا ابنة «بهي الدين»!!

أتمّتِ الصغيرة حفظَ القرآن الكريم، ووضعَ «بهي الدين» ذلك القِنديلَ الذي يُوضّح للرائح والغادي أنّ بهذه الدار فتاةً حاملة لكتاب الله.. فيا لهُ من شرفٍ عظيم!

أمّا «العلياء»، فقد طوّقتْ عُنقَ «سديم» بالقلادةِ الثمينة ذاتِ الفصّ الفيروزي الكبير، وهي تقول لها:

- إنَّ هذه القلادةَ يا حاملة القرآن؛ لَهِي أغلى ما أملك.

ثمّ سألتها:

- أتعلمينَ لماذا هي لا تُقدَّرُ بثمنٍ.. يا»سديم»؟!

هزَّتْ البنتُ رأسها نافية، فقالت «العلياء»:

- لقد أهدَانيها أبوكِ عندما علِمتُ بأني أحْملكِ بأحشائي. أرجوكِ يا ابنتي؛ لا تنْزعيها مِن عنقكِ أبدًا.

- ستظلّ معي طوالَ عمري يا أمّي.. أبشري. (أكَّدتْ «سديم»)

❊❊❊

الفصلُ السّادسُ عشر

(عشرُ سنواتٍ عِجاف!!)

منذُ عام ١٤٨٢م، وحتّى عام ١٤٩٢م، لم تتوقّف الحملاتُ العسكرية التي أعدّتها وجهّزتْها «إيزابيلا الأولى، وزوجُها فرينادو الثاني»، وطيلة حُكم الملوك الكاثوليكيّين لمهاجمة «غرناطة»، ومحاولة اقتحامها، والقضاء على هويّتها الإسلامية بمحاصرتها، وعزْلها عن العالم الخارجي مِن حولها.. لعلّها ترضخ لهما.. وبذلك يستتبّ الأمر لملوك أوروبا بإتْمام تنصير «إيبريا» بكاملها!

ولكنّ «غرناطة» كانت عَصِيَّــــة.. مَنيعة.. مُثابرة في وجْه الغُزاة.. تقاوم، وتقاوم.. بثباتِ أهلها، وبمساندة بلادِ المغرب العربي لها على مَدار قرنين ونصفٍ من الزمان، ولن ينسى التاريخ ذلك الموقفَ البطولي، الذي قام به «المغرب العربي» في الزّودِ عنِ الإسلام في بلاد الأندلس وخاصةً في «غرناطة»!

لقدِ استغلّتْ «إيزابيلا» كأسْلافها وأجدادها مِن ملوك أوروبا، ذلك الخلاف والشقاق القديم، والمتوارث بينَ ملوك الطوائف، الأندلس. انتهاءً بآخر الأمراء «أبو عبد الله الصغير»، ووجدت وزوجُها «فرينانْدو»، فيهما فرصتهما الذهبيّة السانحة لتأجيج لهيبِ الفُرقة بين ملوك وأمراء المسلمين..

وكانت رميتهما المسدّدة، عندما سعَيَا على قدمٍ وساق بإلقاء المزيدِ من الوقود، وتأجيج لهيب الخلاف بين «أبي عبد الله الصغير» آخِر أمراء بلاد الأندلس، وبينَ عمِّه «أبي عبد الله الزُّغل».

لمْ يهدأ استعارُ الرغبةِ في امْتلاك «غرناطة» لدى «إيزابيلا» طيلةَ عشر سنواتٍ كاملة، ولكن «فرينادو» كان يخشى تعجّل الأمر.. فإذْ بها تحاول إقناعَه بشتى الطُرق.. قائلة:

– علينا ألَّا نفوِّت تلك الفرصة.. «فرينادو»؛ فلنجهّز حملة لا أولَ لها ولا آخِر، ولندكّ أسوار «غرناطة».. فقد بلغَ الصراع أوْجَ ذروته بين أمير غرناطة وبيْن عمِّه الذي لو تغلَّب على ابنِ أخيه لضاع كلّ ما رتّبنا له سُدى!

عارضها «فرينادو» فيما قالت:

– «إيزابيلا».. أنتِ تقودينا إلى الهلاك!

– كيف؟!

– لقد أهدرتِ احتياطي ثروات «قشتالة، وأرجوان» في إمدادِ حملاتِ ذلك المدعو «كريستوفر كولومبوس» البحرية إلى جُزُر الهِند.. وأفريقيا.. ولم يعدْ لدينا ما يكفي لتزويد حملاتٍ عسكرية أخرى لضرب «غرناطة»، أو غيرها!

جادلتْهُ «إيزابيلا» في استماتَةٍ:

– لقد رحَّبَ الكاردينال «بِليدي» بأنْ يمنحنا أموالَ صكوك الغفران[١] التي وردتْ إلى الكنيسة بالأعوام الفائتة.. وهي مبالغ تفي بالغرض!

قال «فرناندو» مُسْتسلمًا:

– علينا أولًا أن نتأكّد من استسلام أمير غرناطة لنا، وأنَّه لن يوقِعنا في شَرَكٍ، أو ينال منّا بخديعةٍ ما!

ضحكتْ «إيزابيلا» في شَماتة:

– كُن مُطمئنًا يا «فرناندو».. فهناك خطوةٌ هامّة إذا قمنا بها أولًا؛ استقبلنا بعدها أميرُ غرناطة استقبالَ الفاتحين!!

– وما هي تلك الخطوة.. «إيزابيلا»؟! (سألها «فرناندو»)

– معاهدة.. معاهدة يا زوجي؛ كالسمّ في العسل، كما يقول العرب «سحب قدم».

سنُلقي لهذا الأمير الضعيفِ بِطُعمٍ صغير، فإذا الْتَقَمَهُ، فلسوف تصبح «غرناطة» بين أيدينا، وسنقضي على الإسلام نهائيًّا بمقتضاه!

زوى «فرناندو» بين حاجبيْه، وسألها مجدّدًا:

---

(١) صكّ الغُفران: هو وثيقةٌ كانت تمنَح من الكنيسة الرومانية الكاثوليكية مقابلَ مبلغ مادي يدفعُه الشخص للكنيسة يختلف قيمته باختلاف ذنوبه، بغرض الإعفاءِ الكامل أو الجزئي من العقاب على الخطايا، والتي تمّ العفو عنها. يتمّ ضمانُ صكوك الغفران من الكنيسة بعدَ أن يعترفَ الشخص الآثم، وبعدَ أن يتلقّى الإبراء.

– وما الذي سيجبرُ أمير «غرناطة» على الْتِقام ذلك الطّعم؟! وعلامَ ستنصّ تلك المُعاهدة بحيث نبقى الطرفَ الظافر في كافّة الأحوال؟!

قالتْ «إيزابيلا»، وهي تُضيّق عينيها في مكرٍ:

– إنّ ذلك الأمير «الصغير» يحاول الآن أنْ يهاجمَ قشتالة كما تعلم، وكلّما حاولَ بقوّاتهِ الضئيلة كلّما باءت محاولتُه بالفشل.

بدا «فريناندو» بأقصى درجاتِ الاهتمام، فحثّها على مزيدٍ مِن التوضيح.. بقوله:

– وماذا بعْد؟!

فقالت «إيزابيلا» في خبثٍ:

– علينا أن نوقعَ ذلك الأمير المدلّل في الأسرِ أولًا!

قاطعها «فريناندو» مُتعجّلًا:

– وبِمَ سيفيدُنا أسر «أبو عبد الله الصغير»؟ وأهلُ غرناطة مُترابطون، يدافعون عن المملكة بِكُلّ قوّتهم؟!

تابعتْ «إيزابيلا» خطّتها المُحْبكة بعناية:

– لَئــن اسْتطعنا أسرَ أمير «غرناطة»؛ فسوف نعرضُ عليه فَكَّ أسْرِه في مقابل عقدِ اتّفاق، أو فلنُسمّهِ مُعاهدةً سرِّيةً بيننا وبينه، نضعُ بذلك الاتفاق بنودًا لا يُمكن لأميرٍ ضعيف مثله أنْ يرفضها.

هزَّ «فرينااندو» رأسَه في إشارةٍ إلى أنّه لم يفهمْ بعدُ ماذا تريد «إيزابيلا» بالضبط..

فقالت:

- سأخبركَ بتلك البنود تفصيليًّا، وعندها سوفَ توافقني الرأي بِكُلّ تأكيد.. فقط؛ أصْغِ إليَّ جيدًا!!

إمارة «أندورا» ٣٠ يوليو عام ١٤٥٤م.

أتى «موردخاي» إلى «أندورا» على متْن قاربٍ بحريّ صغير ليُخبرَ «ويليام» و«چِبروتْيا» بإنّ الملك «خوان الثاني» قد مات.. ولا بُدّ من عودة «ويليام» للجلوسِ على عرشه الذي اغتصبَه أخوه قبل عقود..

ولكنّ «چِبروتْيا» كان لها رأيٌ آخر، فقد خالفتْ «موردخاي» قائلة:

– لم تنْتهِ المأساةُ بموت «خوان» أيُّها الراهب «موردخاي». فهناكَ مَنْ سيُحيكون الفتنَ حول «ويليام».

ثمّ تابعت:

– أنسيتَ الملكة «إيزابيل أفيس» والرّاهب «بليدي»، وغيرهم مِن الساسة والقساوسة، والأعيان الذين سيُحاربون أيّ ملك عادل يعمل مِن أجل شعبِه، وينبذُ الظلمَ بشتى السُّبل؟!!

قاطعها «ويليام» في كمدٍ:

– إذن متى، لو لمْ يكنِ الآن يا أمي؟!

– ليس الآن!

قالتها العرَّافة.. ثمّ غادرت مجلسها.

***

لقدْ جاب «موردخاي» البلادَ بحثًا عن «هيلدا» وابنيها «ساموِيل، وإيف»- دون جدوى- مُستترًا برداءٍ ونشاط التجار، ذلك النشاط الذي أعانهُ على البقاءِ بعد أنْ أوقف مزرعة «بودلير» لإطعام الفقراء والمساكين في «قشتالة»، حيث تركها بين يدي رجلٍ ورع من مزارعي المملكة.. ولكنْ سرعانَ ما وضعَ «بِليدي» يدَه عليها كوقفٍ مملوكٍ للكنيسة، وليس لأحدٍ مِن الشعب حقّ الانتفاع به إلّا بإذن راعي الكاتدرائية الأكبر «بليدي»!

واصل «بليدي» وبعضُ قساوسة «قشتالة» تلكَ السياسة التعسّفية التي تنصّ على وضع يدِ الكنيسة والملكة على كلّ المشاريع والأوقاف الخيرية بالمملكة حتى تفشَّى الغلاءُ، ورزحَ الناسُ تحت وطأة الفقر، والعوز.. ممّا دعا آلاف الشباب إلى الهجرة والتفرّق بالبلاد المحيطة؛ سعيًا وراء الرزق الذي يقيمُ أوَدَهم وأوَدَ عائلاتهم!!

***

هُناكَ بأندورا، كانت زوجةُ الإقطاعي الثري العجوز «نِـــيراندا»، لا تيْأس مِن مراودة «ويليام» عنْ نفسه، بشتّى السُّبل، فقد شغفَها حُبًّا، وباتَ شُغلها الشاغل منذ أنْ وقعتَ عيناها عليه، بينما يرعى ماشية زوجها، وحتى عندما كان يعملُ في حقلِ المُزارع العجوز، كانت تراقبه.. تختلق الأحاديثَ معه..

ولكنّه كان يجيبها بكلماتٍ مُقتضبة دونَ أن ينظرَ إليها. حتّى جُنّ جنونها به، واستعرتْ رغبتُها في جعْله لها بأي ثمن!

خاصّةً بعدما توفّي زوجها- بمطلع عام ١٤٩١م- بعد أن احْتسى شرابًا قدْ أعدّته له بنفسها، ولكنْ لا أحدَ من أبناء الزّوج استطاعَ أن يُثبتَ عليها تلكَ الجريمة النّكراء، فقد وثّق لها الزوجُ كلّ ما يملكُ قبل رحيله، بينما حرَم جميعَ أبنائه الثمانية- مِن ثلاث زوجات سابقات- ثروته وأملاكه.

لم يعُدِ الآن هناك مَن يوقف جنونَ تلك المرأة الماكرة «نِيرَندا» بالبائس «ويليام» الذي ما تصوَّر يومًا أن يقترنَ بامرأةٍ في الكون سوى «هيلدا»، زوجته المفقودة، التي ودَّعتْ حياةَ النعيم من أجله، وتحمّلتْ عيشةَ البؤساء، ولكنها كانت راضيةَ القلب، قريرةَ العين، حتى تربّص بأسرتهما الشتات.

- إلى متى يا رب؟!

كمْ ردّدَ «ويليام» ذلك السؤال في نفسه.. ولم يجدْ إجابةً شافيةً له حتى الآن!!

فبراير ١٤٩١م «بيت ويليام سيلور»

لقدِ الْتحفتْ سيدةٌ قد تجاوزت الثلاثينَ بقليل- تلبس مِن الثياب أثمنها، ومن الحُلي أفخره.. وتضعُ من العطور أغلاها، وأزكاها،تتْبعها جاريتان تسيران خلفها- بِظُلمة الليل، تطرق بابَ بيت «ويليام سيلور»، حيث تقيمُ العرَّافة، وربيبها «ويليام»، وابنه «روبرت»!

فزعتِ العرَّافة، وتذكّرتْ صومعتَها، التي كمْ طرقَ بسطاء «قشتالة» بابها طلبًا لمشورتها في شتى أمورهم.. فتساءلت في نفسها:

- كان بابُ صومعتي يُطرَق في «قشتالة» على مَدار الساعة؛ لأنّ أهل «قشتالة» كانوا يعرِفونني جيدًا، أمّا هُنا في «أندورا»؛ فمَن يعرفني حتى يأتي إليَّ بهذه الساعة؟!!

جرجرتْ قدميها صوبَ الباب.. حاملةً ذُبالة، توشكُ أن تنطفئ مِن أثر الهواء اللافح، وهي تتساءل كذلك:

- منذ متى، وهناك مَن يريد «ويليام» أو «روبرت» بمثل تلك الساعة؟!

كانت الليلةُ باردة.. والرياحُ تصفر في مُجون بفناءِ الدار الفسيح.

سألت في صوتٍ خفيض:

- مَنْ؟!

فجاءها صوتُ امرأةٍ يسبق عطرها الفوَّاح صوتَها الأنثوي:

- أنا «نيرنَدا» سيدة ولدكِ «ويليام»!

رحَّبتْ بها العجوز، بينما مازال «ويليام، وروبرت» يغطّان بنومٍ عميق.. فدلَفتِ المرأة بينما انتظرتْها جاريتاها خارج البيت.

- مااااا.........

قبل أن تسألها العرَّافة؛ «ماذا تريدين في تلك الساعة المتأخرة»، إذْ قالت لها «نيرَندا» مُهدّدة، بينما صدرُها يعلو ويَهْبط مِن أثر الانفعال:

- لَئن لم يتزوّجني ابنكِ «ويليام» في غضونِ يومين لا ثالثَ لهما؛ بحقّ الرَّبّ لأقتلنّه، ولأعلّقنّ رأسه على باب بيتكِ هذا.. وقدْ أعذرَ مَن أنذر .. أيتها العجوز!!

هدّدتْ المرأة «چِـبروتْـيــا»، ثمّ غادرت على الفور!

إنّ «نيرِندا» امرأةٌ بقدر ما هي حادّة؛ هي متّقدة الذّكاء كذلك، تعلمُ تمامًا أنّها لو كانت هدّدت «ويليام» نفسَه بقتله إذا لم يستجبْ لها؛ ما آبَهَ بها، ولا خشي على حياته بعدما فقدَ زوجته وابنيه، ورحلَ عن مملكته مُجْبرًا.

ولكنّها بتهديدها لِـچِـبروتْـيــا؛ فلسوفَ تحصل على مُبتغاها بأيْسر السُّبُل، فقلبُ الأمّ لا يحْتمل المراوغةَ.. والأمّ وحدَها هي مَنْ تحاول درأ السّوء عن ابنها بأيّ ثمن!!

لقدْ تأجّجتْ نيرانُ الشوق المستعرِ داخلَ صدْرِ هذه السيِّدة إلى أنْ باتَ عشقُها نارًا قدْ تحرق، حتى منْ تعشقُه نفسَه!!

– انهضْ يا «ويليام». قُمْ يا «روبرت»!!

أيقظتِ العرَّافة ربيبَها وابنَه فوْر ذهاب «نِيرَندا»!

فركَ «ويليام» عينيه ليرى «چِـبروتْـيــا» تحملُ ذُبالة الضّوء، فيما تُحثّه على النهوض بأسرعِ ما يُمكن.. فاعتدلَ فزِعًا يسألها:

– ماذا يا أمّي.. هل أنتِ بخير؟!

تبِعَه «روبرت» يقول:

– مازال الوقتُ مبكّرًا على قدوم الصباح، فلماذا توقِظينا يا جدّتي؟!

في جدّيةٍ، قالت العجوز:

– لقد أزِفَ موعدُ الرّحيل يا وَلداي.. فأسرعا!

ثقةُ «ويليام» بها كبيرة.. يعلم أنّها ما اهتمّتْ لِأمرٍ إلّا لو كان جللًا!

نهضَا، ترتعدُ فرائصُهما بردًا، يجمعان بعضَ أغراضهما القليلة، ومِن ثمَّ، غادروا جميعًا قاصدين الشاطئ.

– اهْدأ يا قلبي.. ما لكَ تدقّ هكذا بلا هوادة؟!

قالها «ويليام» في نفسِه.. فكمْ تمنّى تلك اللحظة التي يرتحلُ بها عائدًا إلى «قشتالة»!

ولكنّ لسانه قدِ انعقدَ تمامًا عندما سأل البحَّار «صاحب القارب»: «إلى أين؟!»، فأجابتْ العرَّافة:

- إلى «غِرناطة»!!

سألها «ويليام»، بينما تكتنِفُه الحيرة:

- ولماذا «غرناطة» يا عرَّافة إيبريا؟!

فقالت:

- هُناك، ستعرف!!

الفصلُ السّابعُ عشر
(انْهمارُ الغيث!!)

يناير.. عام ١٤٩١م

جاء «عامر»، بصُحبة والديه، طالبًا الزواج من «سديم» ابنة «بهى الدين»، وقد تجاوز عامه الثلاثين ببضعة أشهر، بينما «سديم»، كانت تقف على عتبة عامها العشرين، قائلًا:

- بعد إذن أبي..

فأومأ «راحج» موافقًا.. مفسحًا له المجال كي يتحدث.. فهو خطيب المساجد المُفوّه، رصين الكلِم، بليغ التعبير، واسع الأفق.. فقال الشاب:

- يا عمّ «بهي»، أعلم أنّ ذلك ليس بالوقت المناسب لكي أتقدّم لخطبة ابنتكم الكريمة، والتي جاءكم خيرةُ الشباب بغرناطة، المغرب، كي ينالوا شرفَ مُصاهرتكم، ولكنّكم ردَدْتموهم، لربما بسببٍ ما يحوم حول «غرناطة» مِن مخاطرٍ وشيكة!!

قاطعه «بهي الدين».. يقول في حزم:

- ما لهذا السبب ردَدْناهم يا «عامر» يا بُني، وإنما لأنّ مَن يستحقها، وتستحقّه؛ كان ينتظر بلوغَها سنّ الزواج!!

ابتهجَ «عامر»، لمّا أدركَ أنّ «بهي الدين» يتحدّث عنه هو .. لا عنْ غيره.. فنهضَ يعانقه، ويقبّل رأسه.. وهو يقول:

- والله يا عمِّ؛ لأسعِدنَ «سديم» ما استطعتُ إلى ذلك سبيلًا.. فهي التي بشّرني بها رسول الله صلّى الله عليه وسلم!!

اغرورقتِ العيونُ بدموع الفرح، على إثْر ما سمعوا.. ثمّ ردّد الجميع:

- صلى الله على سيدنا محمد.. وعلى آلِهِ وصحبِهِ وسلم تسليمًا كثيرًا طيبًا مبارك فيه.

ثمّ قال «عامر»:

- أتعلمُ يا عمِّ لماذا جئتُك الآن لخطبة ابنتكم، رُغمَ ما يتربّص بنا من مصابٍ عظيم؟!

كان يقصد بالمُصابِ العظيم؛ ذلك الحصار الذي أوشكَ على إحاطة «غرناطة» من قِبلِ الملكَينِ الكاثوليكيّينِ «فرينانندو الثاني.. و إيزابيلا الأولى».

فقال «بهي الدين»:

- لا مفرّ من قدر الله .. ولكنْ لماذا يا «عامر»؟!

قال «عامر»، والسعادة تغمُره:

- حتّى إذا ما استُشْهِدتُ قريبًا شُفِّعتُ لها عند ربي!!!

رجِفتْ الأفئدة بالصدور.. فقال «عامر»:

– لماذا كلّ ذلك الأسى يا قوم؟ فمَن مات دونَ عرضه، وأهله، وماله، فهو شهيد. وإنّ الشهيد ليُشَفَّع في سبعين من أهله.

قاطعتْه أمُّه «صفيَّة» تنشج:

– أطالَ الله عمرك يا حبيبي.

– و عمرَكِ أمّاه.

أراد «بهي الدين» أن يُرَوِّح عنهم، وعنْ نفسه؛ فقال:

– على بركةِ الله.. نعقد القرانَ غدًا بمسجد الحمراء الكبير عقب صلاة المغرب.

بعد غدٍ، كان حفل زفافٍ بهيج، دُعيَ إليه وجهاءُ «غرناطة»، وأعيانها، وعلماؤها حتى قيل إنّ «غرناطة» لم تشهدْ مثل ذلك الحفل منذ عقود.

حتى أنّ حفل زفاف «رينادة» و«عصام الدين»؛ لم يقارن به مطلقًا، رغم روعته!

انهمكَ كلّ مِن «خاطر» و«مروج»، و«ساموِيل» و«إيڤ»؛ في الاعتناء بِكُلّ صغيرة وكبيرة بذلك الحفل العظيم.. وبينما يحمل «ساموِيل» طاولةَ طعامٍ عامرة، ويسير بها نحو لفيفٍ من الأعيان الجلوس بمضْيَفَة السيد «بهي الدين» الفارهة؛ إذِ استوقفه أخوه «إيڤ»– الذي كان يكبر «سديم» بعامٍ تقريبًا– بأنْ جذبه من ساعده الأيسر ليقول له:

– و أنتَ يا «ساموِيل»، متى ستتزوّج يا أخي؟!

تلعثمَ «ساموِيل»، واكتنفه الحزن.. وهو يقول:

– أتزوّج؟ ماذا تقول يا أخي؟!

– ولِمَ لا يا «سامو»؟! لقد بلغتَ السابعة والعشرين الآن يا أخي.. فماذا تنتظر؟! (سألهُ «إيڤ»)

فقال «ساموئيل»:

– إنّ مثلي لا يحقّ له أن يفكر بمثل ذلك الأمر مطلقًا!!

قاطعهُ «إيڤ» في ضيق:

– لماذا «سامو»؟ أنت تعمل، ولدَيْكَ من المال ما يكفي لكي تؤسّس بيتًا!!

– اترك ذراعي يا «إيڤ»، وإلّا سيبردُ الطعام، وإنَّهُ من غير اللائق أنْ نتأخر بالطعام على ضيوف العمّ «بهي الدين» هكذا!!

وضعَ «ساموئيل» طاولة الطَّعام أمام بعض الرجال، ثمّ استدار عائدًا كي يجلب أخرى مِن أجل ضيوف آخرين.. فإذْ بأخيه «إيڤ»، بمرحِه المعتاد:

– قُل بصراحة.. ألستَ تحبّها؟!

تلعثمَ «ساموئيل»، وارتبك، وهو يقول:

– مَنْ؟! مَن تعني يا «إيڤ»؟!

فقال «إيڤ»، وهو ينظر إلى ناحيةٍ نائية بمنزل «بهي الدين»:

– تلك الحسناء.. «مَاروسكا» ابنة مُعلّمنا «إسحق طوبيا»!!!

امتقعَ وجهُ «سامويل»، وهرولَ مبتعدًا.. فقد اكتشفَ «إيڤ» بذكائه الفطري مَخبوء قلبه، ومَكنون روحِه..

فهو حقًّا يحبّها.. بل يحبّها كثيرًا كثيرًا!!

بعدَ صلاة العشاء، كان «عامرٌ»، و«سديم» بغرفتهما ببيتِ «راجح» الخياط، يبدآن حياتَهما بالصلاة، فكمْ تمنّتْ «سديم» أن يؤمها «عامر» وحدَها- في الصلاة- يومًا.

وقد كان؛ لأنها قصدتْ بدعائها مَن لا يردّ سائلًا، ويجيبُ دعاء الداعين بصدقٍ..

سُبحانه!

لم يفرغ «ساموبل» بعدُ مِن رفع طاولاتِ الطعام الفارغة، والأواني مِن أنحاء مَضْيفة بيت السيد «بهي الدين» حتى نادتُه «مروج»:

- «ساموبل».. يا بُني.

- أجل أمّي «مُروج».. مُريني!

فقالتْ مُتَعجبة:

- إنّ «أبا عامر» قد أرسلَ في طلبكَ، يقول بأنّ هناك ضيفًا ليس من أهل «غرناطة» يريدك هناك في داره!

- ومَن ذلك الضيف.. يا أمّي؟!

- لا أدري يا وَلَدي. هيا اذهب، وسأكملُ ما كنتَ تعمل، وها هو «إيڤ» سوف يساعدني.

ذهبَ «ساموِيل» إلى دار «راجح».. وقد أذِنَ له صاحبُ الدار بالدخول.. فإذْ بالشاب يتجمّد حيث يقف، بينما «راجح» والضيف يجلسان بمضيفة البيت..

– تعالَ يا «ساموِيل».. تقدَّم يا بُني.

ولكنّ «ساموِيل» لمْ يُحِر جوابًا.. ولمْ يشعرْ بدموعه المنْسكبة بغزارةٍ فوق صفحة وجهِه المليح الذي يجعل مَن يراه يظُنّه «ويليام» في ريْعان شبابه.. فقد كان «ساموِيل» هو أشبه أخوته بأبيه!!

نطقَ «ساموِيل»، بِشِقّ الأنفس، اسمَ الضيف الذي وقفَ باسطًا ذِراعًا واحدةً كي يعانقَ به الشاب:

– عمِّي «آرمياااااا»؟!!!!!

عناق، ودموعٌ حارة، وذكرياتٌ تخللتْ حديثهما، بعد أن تركهما «راجح» يتحدّثانِ سويًّا، قائلًا:

– الدارُ داركما.

ثمّ أرسلَ مساعده «سعدًا» – الذي تزوّج من فتاةٍ رقيقة الحال من فتيات حيّ البيازين – يحمل واجبَ الضيافة لهما من طعامٍ وشراب.

– أينَ أبي يا عمّ «آرميا»؟! (سأله «ساموِيل» مِن بين دموعه المدرارة)

– لا أعلمُ حتى الآن يا «ساموِيل» يا بُني!!

ثمّ استدركَ سريعًا يريد طمأنته:

– ولكني أعلمُ أين أمّك!!

هتفَ «ساموِيل»، وهو يجهش بالبكاء في فرح:

– صحيح؟! إذن أين هي؟ أخبرني أرجوك!!

– سأخبركَ بكلّ شيء.. اهدأ، وستلتقيها قريبًا بمشيئة الرَّبّ!

لقد أخبرَ «آرميا» «ساموِيل»؛ بأنه قد جاب ممالك «إيبريا» بلا استثناءٍ شرقًا وغربًا طيلة السنوات الخالية.. وقلَّبها شرقًا، وغربًا يفتّش عن «ويليام»، وأسرته، بعدما الْتهمَ الحريق كوخَه، وبداخله أربعةٌ من أولاده الستّة، وزوجته.. فلم ينجُ من الحريق سوى اثنان من أولاده– ابنٌ، وبنتٌ– فقط.. ثمّ قطنَ معهما بإشبيلية فترةً.. وكلّما ضاق رزقه بأرض غادرها إلى أخرى.. وهكذا حتى وصلَ إلى «غرناطة» قبل أيامٍ، ووجدَ منزلًا أودع به أباه حتى يعود إليهما بعدما يجوب حيّ البيازين، حيث كان يأتي كثيرًا بصحبة «ويليام»، لعله يجدُ هنا مَن يعرف «ويليام»، أو ابنه «ساموِيل» الذي كان يرافقه في معظم سَفراتِه إلى «غرناطة».

ثمّ يكمل «آرميا» حكايتَه للشاب:

– وبالفعل، قد تذكَّرتُ «راجح» الخياط.. صاحب تلك الدار، وتذكّرتُ كذلكَ أنّ أباكَ «ويليام» قد طلب منه أنْ يحيكَ عدّة أثواب من أجل أمِّكَ، وجدتكَ.. أقصد؛ مُربّيته!

تنفّس «آرميا» الصّعداء قبل أن يقول:

- والْتقيتُ بِأبي عامر الخياط، وسألته؛ ما إذا كان قدْ رأى «ويليام» أو ابْنه «ساموِيل»، أم لا؟!

فعلمتُ منه بقصّةِ وصولكما إلى «غرناطة» على متْنِ باخرة تُقِلُّ النازحين مِن بسطاء «قشتالة»، أولئكَ الذين نجوْا من الحريق!

أنْصتَ «ساموِيل» إلى حديث «آرميا» حتى انتهى.. ثمّ قال له:

- وأمّي.. ماذا تعرف عنها؟!

قال «آرميا»:

- بعد نزوحي عن «قشتالة» بعدّة أعوام، رَجعتُ إلى «قشتالة» فالتقيتُ بحارسٍ من حُراس قصر الملك «خوان الثاني»، وسألتُه عمّا حدث بالمملكة أعقابَ الحريق، فقصَّ عليَّ الكثير من أخبار «قشتالة»، ولمّا سألته؛ عمّا إذا كان يعرف صيادًا يُدْعى «ويليام» كان يعيش مع أسرته على أطراف الغابة بكوخٍ صغير قُرب بئر ماء؛ أخبرني بأنّ «ويليام» قد غادرَ المملكة.

ولكنّ «باترسون» علِمَ بعد ذلك بأنّ جنود الملك قدْ عثروا على زوجة «ويليام» مغشيًّا عليها، ولكنّها أصبحت بخير بعدَ ذلك، ولكنّ الملك قد أصدر أوامره بإبقائها أسيرةَ أحدِ أجنحة القصر مدى الحياة.

وقدْ علمتُ كذلك بأنّ الملك «خوان الثاني» قدْ مات، ولكنّ ابنته «إيزابيلا»، والتي تفوقُه غِلظة، مازالت تنفّذ أمره- الذي أصدرَهُ منذ ميلادها- بالتحفّظِ على السيدة «هيلدا» رهينةً بالقصر مدى حياتها!

كان «ساموﻳل» ينصتُ إلى «آرميا»، وكأنّ على رأسه الطير.. ثمّ أجهشَ مجدّدًا بالبكاء، وهو يقول:

– حبيبتي يا أمّي.. ما أراكِ صبرتِ على سجْنكِ الأبدي هذا، إلّا كي تصرفي عنّا جميعًا شرًّا عظيمًا!!

انتهى حديثُهما بأنْ نهض «آرميا» مودّعًا «ساموﻳل»، وهو يرجوه قائلًا:

– «ساموﻳل».. تريّث يا بُني.. ولا تتهوّر؛ فقصرُ الملك محاطٌ بجنود أشدّاء، لن يتورّعوا عن قتل أيّ إنسان يقترب من السياج!

– وأُمّي يا عمّ «آرميا».. كيف سألتَقيها إذا لمْ أغامرْ بدخول القصر؟!

سأل «ساموﻳل»، والألمُ يعتصر قلبَه الذي تحمَّل ما يفوق عمره!

– أمُّكَ هي مَنْ ستأتي إلى هُنا.. ثقْ بي، وصدّقني.. «سامو» (أجابهُ «آرميا»)

ثمّ أوضح قائلًا:

– لقد سمعتُ بأنحاء «إيبريا» بأنّ الملكة «إيزابيلا» تعتزمُ غزو «غرناطة»، والاستقرار بها، وبالتالي فسوف تصحبُ كلّ مَن بالقصر القديم مِن «قشتالة» إلى هُنا.

ثمّ ختمَ «آرميا» حديثَه قائلًا:

– لو لمْ تأتِ أُمُّكَ بغضون عام واحد؛ فسوف أطلبُ منك بنفسي مغامرةَ اقتحام قصر «إيزابيلا» كي تحرّر والدتك، ولكنْ أرجوك؛ لا تجْعلني أندمُ على

ثقتي بك!! لتَبْقَ يا ولدي، حتى تجمعَ شملَ ذويكَ.. فانْتبه لنفسكَ جيدًا.

ذهبَ «آرميا»، على وعدٍ بالعودة للقاء «سامويل»، خاصةً ليخبره، إذا علمَ بشيءٍ جديد عن عائلته المفقودة.

كفْكفَ «سامويل» دموعَه، وتكتَّم كلّ ما عرفَ- الليلة- عنْ أخيه «إيڤ»؛ خشية أنْ يتصرف أخوه الأصغر- والذي يُعدّه ابنَه، وليس أخاه فقط- برعونة لا تُحمدُ عواقبها!!

ثمّ قفل عائدًا لاسْتكمال عمله في دار «بهي الدين»- حيثُ يدين «ساموِيل» لذلك الصائغ الكريم بالكثير- وهو يهمسُ إلى نفسه:

- أولُ الغيثِ قطرةٌ، ثمّ ينهمرُ!!

فاليومَ قد عرفتَ بأنّ أمكَ على قيد الحياة، وهي بخير.. ولعلّ بالغدِ القريب تعرفُ كلّ شيء عن والدكَ، وأخيكَ «روبرت». فاثْبُتْ يا «ساموِيل»!

فبراير ١٤٩١م.. شاطئ «غرناطة».. جنوب غرب شِبه الجزيرة الإيبرية

هبطتِ العرَّافة، و»ويليام»، و»روبرت» بعد انقضاء ليلتيْن فوق متْن القارب المُبحر صوبَ غرناطة.. وقد أقبلَ الليل بِـــخَيْلِه ورَجْلِه، وما أنْ ساروا مسافةً قصيرة عبر الشاطئ؛ إذْ بالعرَّافة تتوقّف لتقول:

- «ويليام».. فلنذهبِ الآنَ إلى صاحب القلادة!

هلعَ «ويليام».. لمّا سمعها تذكرُ «القلادة».. تلك القلادة التي صنعَها أشهرُ صاغة «غرناطة» بناءً على طلبِ «ويليام» قبل ما يرْبو على عشرين عامًا، والتي لم يخبرها عنها شيئًا!

كلّ ما يتذكّره «ويليام» أنَّهُ قد أعطى «القلادة ذات الفصّ الفيروزي الثمين» لابنه «ساموئيل» قبل أنْ يذهب بحثًا عن «چِـبروتْـيـا» كي يحذّرها من جنود الملك الذين كانوا يبحثون عنها في كلّ مكان. ولا يعرفُ أين هي تلك القلادة الآن، ولا أينَ ابنه «ساموئيل» نفسه؟!!

رأتِ العرَّافة السؤالَ المُلِحّ يطلّ من عيني «ويليام».. فقالت:

- لاتتعجّب؛ فقد علمتُ بأمر القلادة قبل أمس فقط.. فقد رأيتُ «موردخاي» بمنامي قبلَ خمس ليالٍ.. يقول لي: «اذْهبوا إلى صاحب القلادة» بغرناطة!

ثمّ واصلت، وسطَ دهشته العارمة:

– وقد علمتُ – قريبًا كذلك – أينْ صارت «هيلدا» مِن بعد الحريق.. عندما رأيتها كذلك بمنامي بالليلة التالية لرؤيا «موردخاي» جالسةً بجناح فَارِهٍ.. وعندما استقظتُ مِن نومي؛ تذكّرتُ أينَ رأيتُ ذلك الجناح بالضبط.

ثار «ويليام» مُستنكرًا:

– ماذا؟! أوَ كنتِ تعرفينَ أين زوجتي، ولِمْ تخبريني؟!! أيّ قسوة تلك التي قسوتِهَا عليَّ، وعلى أسْرتي.. أيتها العرَّافة؟!!!!!!

امْتصّتْ غضبَه قدرَ استطاعتها، بقولها:

– إنّ قلب الأمّ وإنْ قسا؛ فقسوتُه بباطنها الرحمةُ التي لا تُضاهى بغيرها!

ثمّ طأطأت رأسَها، وقالت في أسفٍ:

– لو أخبرتُكَ بمكان «هيلدا»؛ لغادرتَ وحدكَ دونَ إخباري، ولَفقدتكَ إلى الأبد!!

ثمّ استطردتْ: كنتُ أنتظر علامةً مِن الرّب حتى أغادر «أندورا»، وقد جاءتْ السيدة «نيرندا» التي كنتَ تعملُ لدى زوجها الرّاحل يا «ويليام»، وهدّدتني بقتلك؛ إذا لمْ تتزوّج بها في غضون يومين، فأيْقظتكَ، وولدَكَ فوْر ذهابها كي نرحلَ على الفور قبلَ أن تُنَفِّذ وعيدَها، وتنال منكَ يا وَلَدي!

ألقى «ويليام» بحاويتِه المهترئة فوقَ رمال الشاطئ، وتهالكَ جالسًا، وكذلك «روبرت»، وراحا يبكيان بشدّة..

فقالتِ العرَّافة:

– لم يعدْ هناك وقتٌ للبكاء.. علينا أن نُفكّرَ بهدوءٍ، كيف يمكننا أن نحرّرها؟!!

– أهي أسيرة؟ أين هي.. قولي رجاءً!!

أجابت «چِـبروتْـيــا»، وهي تُربتُ على كتفي «ويليام، وروبرت»:

– إنها آتيةٌ إلى هُنا!!

في لهفةٍ.. قال «روبرت» صائحًا:

– هل ستأتي أمّي الآن؟!

– لا يا ولدي! دعْنا نجد أخويك أوّلًا.. ثمّ ستأتي إلينا أمّكَ بعد ذلك.

الفصلُ الثّامنَ عشر
(«الزَّغَابِي»، وابْتلاع الـطَّـعْـم!!)

في مضيفة «بهي الدين»، فبراير ١٤٥١م

«ويليام» يعانقُ ابنيه في حرارةٍ، وكذلك «روبرت» يعانقُ أخويه، في مشهدٍ مؤثّرٍ، جرتْ له المدامع، ويقول «ويليام» في لوعةِ مُشتاق:

– مَن كان يُصدِّق أنني كنت سأحيا حتى ألقى فرساني الثلاثة ثانيةً يا أمّي؟!

قالها مُخاطبًا «چِبروتْيا»..

ثمّ أخذ يقول، وهو يطالعُ صفحتا وجهي «ساموِيل، وإيڤ»:

– أترى يا «روبرت»، كيف صارَ أخواك يافعيْن!!

فقال «ساموِيل»، وهو يُقبِّل أخاه «روبرت»:

– و»روبرت» كذلك، قد أصبح شابًّا يافعًا يا أبتِ!

فقالتْ «چِبروتْيا»، وهي تبكي تأثّرًا بما ترى:

– وقريبًا.. ستأتي «هيلدا» بمشيئة الرَّب!

قال «ويليام»، وهو يحتضنُ «بهي الدين»:

- كيف أوفّيكَ حقّكَ أيها الكريم؟!

فقد حرصتَ على ابنيَّ.. وصُنتَ الأمانة..

فقال «بهي الدين»:

- الحمدُ لله ربّ العالمين أنّك بخير.. كم كنت قلقًا بشأنكَ سيِّد «ويليام».

فقال «ويليام» ممتنًّا:

- شكرَ الرَّبّ لكَ حُسنَ صنيعكَ يا سيد «بهي الدين».

قال «ساموِيل» في حُبور:

- لقدْ فقدتُ أبواي، وأخي.. فمنَّ الرَّبّ عليَّ بأبوين رائعينِ- هما عمّي «بهي الدين»، وعمّي «خاطر»، وأُمَّـيْـــنِ رَؤومتينِ- هما أمّي «العلياء»، وأمّي «مروج»، وأختٍ رائعة كذلك هي أختي «سَديم».. أسألُ الرَّبّ أن يهبها كلّ سعادةٍ، فقد تزوّجت حديثًا، ولعلّكم سترونها قريبًا!

وقدْ أرسل «بهي الدين» في طلبِ «خاطر»، و«مروج»، فتعرّفَ إليهما..

فكانَ يومًا مِن أيام الفرح المعدودةِ التي قلَّما جادت بها الحياة على البشر.. وحتى يجتمعَ شملُ عائلة «ويليام»؛ قد خصص «بهي الدين» من أجلِهم دارًا مستقلّة، آملًا في وجه الله تعالى أن يردّ زوجة «ويليام» إلى زوجها وأبنائها قريبًا.

تنحّى «ويليام» بالسيّد «بهي الدين» قائلًا:

- سيِّدي «بهي الدين»، لقد أثقلتَ كاهلي بأفْضالك، ولم أنسَ أنّ لكَ عليَّ دَينًا قديمًا!

سألهُ «بهي الدين»:

- دَينٌ قديم؟! عمّ تتحدث يا سيِّد «ويليام»؟!

فقال «ويليام» بوجهٍ بشوش:

- ثمن القلادة..

فقال «بهي الدين» في حسْم:

- والله لن أقبلَ ثمنًا لها.. هل يكونُ موتٌ، وخرابُ ديار؟!

سأل «ويليام» في تعجّبٍ:

- ماذا تعني يا سيِّد «بهي» بما قلت؟!

فقال «بهي الدين» في شهامة:

- أعني؛ أتريدني أنْ أحصل منكَ على ثمنِ قلادةٍ قد اقتنيتها من أجلِ زوجتكِ المفقودة؟! ألا يكفي ما أنتَ فيه من مُصابٍ يا «أبا ساموئيل»؟!

ثمّ ربتَ «بهي الدين»، على كتفِ «ويليام».. وهو يقول:

- الرحماءُ يرحَمُهم الرحمن يا أخي!!

***

قشتالة.. قصر «فريناندو الثاني، وإيزابيلا الأولى» مَلِكا قشتالة، وأرجوان، وقشتالة، وصقلِّية.. عام ١٤٨٣م

في تعالٍ، قالتْ «إيزابيلا»، وهي تضحك فيما تدنو مِن أمير غرناطة الأخير «أبي عبد الله الصغير»- المتسَرْبل في رداءِ الأسرى القاتم كالقَطِرَان، المستسلم لِقيودِه، حيث قُيِّدتْ يداه، ورِجلاه بسلاسلَ حديديةٍ غليظة، وكذلك عُنقُه قدْ أحاطت به حلقةٌ معدنية صُلبة، تتّصل بسلسلةٍ حديدية طرفُها مُثبّتٌ بجدار غرفة السّجن المعتمة، ذاتِ الرائحة العطنة، حيث يبولُ السجين بها، ويتغوّط في سِرواله، إمعانًا في إذْلاله، وامْتهانِ آدميّته، وكرامته- شامتةً بمرأى، ومَسْمع مِن زوجها «فريناندو» المبتسِم ابتسامةً لزِجَة في احتقار لأمير غرناطة:

- أيّ هوانٍ هذا الذي تلقى يا أمير «غرناطة»؟!

كان «أبو عبد الله الصغير» يرمقُها بعينٍ كسيرة، دونَ أن يُحِرْ جوابًا، فتمادتْ في شماتتها:

- أجُننتَ أيها الغريرُ الضئيل؟! كيف سوَّلتْ لكَ نفسُكَ مهاجمةَ «قشتالة» المنيعة؟!

أجاب «فريناندو».. شامتًا كذلك:

– ما حاولَ ذلك الصغيرُ مهاجمةَ «قشتالة» إلّا مدفوعًا بالغيرة من عمِّه «الزُّغل»[١]، ليس إلّا! لذلك لنْ نحترمكَ إلى أبدِ الدهر.

ثمّ مطَّ «فرناندو» شفتيه.. وذرع غرفةَ السجن جيئةً وذهابًا، وهو يرمي أمير «غرناطة» الأسيرَ بنظرةِ احتقارٍ بطرف عينه، وقال:

– رغم عدائنا معكم يا «بني الأحمر»، ورُغم العداء القائم بيننا، وبين كلّ مُجاهد يدافع عن الإسلام، ويرفعُ رايته فوق أيّ مكان من الأرض؛ إلّا أننا؛ نحتقرُ المتخاذلين الذين يُسْلِمون لنا قيادَهم في يُسر.

إنَّ المنطق الذي تحدَّثَ به «فرناندو» هذا؛ هو ديْدنُ كلّ مُغتصب على ظهر البريّة، وعبر كلّ زمان؛ فهو يبغضُ خصمَه.. ولكن– في قرارة نفسه– يحترمُ ثبات ذلك الخصم على مبادئه، ويحتقرُ مَن يشتري نفسه بسحْق بني جِلدتِه[٢].

هُنا قالت «إيزابيلا»، والزّهو يملؤها:

– بمَ تشتري حياتكَ، وحياةَ ولدِك، وزوْجتكَ، يا ابنَ الأحمر؟!

عمَّ الصمتُ بضعَ لحظات، حتى قال «أبو عبد الله الصغير» بشفتَيْن مُرتعشتين، رهبةَ الموت:

---

(١) «الزُّغل»؛ هو أبو عبد الله محمد الثالث عشر.. وهو عمّ «أبو عبد الله الصغير» آخرُ ملوك غرناطة.

(٢) بَني جِلدَتِه: أي «قومه» و«أهله» و«عشيرتَه».

- بأيّ ثمن!! أريدُ أنْ أعيش.

قهقهَ «فريناندو»، وضحكتْ «إيزابيلا» في مُجون، فقال «فريناندو» مِن بين ضحكاته:

- إجابةٌ متوقّعة منك أيها الصَّغير.

ثمّ اختفَتْ ضحكات «فريناندو»، وصار وجهه مُكفهرًّا، وهو يقول:

- لو كان عمّكَ « الزّغل».. أو حتى أمّكَ «عائشة الحُرَّة» مكانكَ؛ لفضَّلا الإعدامَ على الحياة، مع القبول بدفْع الثمن الذي نريد.. فياالا لصلابة هذان الخَصمان الرّائعان!!!

تلعْثَمَ الأمير الأسير ابنُ الخمسة والعشرين عامًا قائلًا:

- وما هو الثّمنُ الذي تريدان؟!

ضحكتْ «إيزابيلا» في سخريةٍ جارفة، وهي تقول:

- يا لكَ مِن غبيّ أيها الصغير، وهل هناكَ ثمنٌ أعظمُ مِن تسليمنا «غرناطة»؟!

أسرعَ «الزغابي»» الأسيرُ يقول دونَ رويّة:

- لكما ذلك.. ولكنْ أطْلقا سراحي أولًا!!

فقال «فريناندو» مباشرةً:

- إذن فلنُبرِم الميثاقَ على الفور.

ثمّ أمر حُرّاس سجن «أبي عبد الله الصغير» بِفكّ قيوده، واقْتياده إلى غرفةٍ مجاورة تتوسّطها منضدة، حولها ثلاثةُ مقاعد، تضيئها شعلتان مثبّتتان فوقَ جدارين مِن جدرانها الأربعة قاتمة اللّون!!

فقال «الصغير» فيما يدفعُه الحُرّاس، حتى أجلساه فوقَ أحد المقاعد الثلاثة:

– أيّ ميثاقٍ؟!

فقالت «إيزابيلا»، وهي تشعرُ بقرب قطافِ الثمرة الغالية التي لطالما حلمتْ باغْتنامها:

– مُعاهدة يا ابنَ الأحمر.

فقال «الصغير»، وهو يُقَلِّبُ عينيه بينَ الملكين الكاثوليكيّين، وفرائصُه ترتعد:

– هلْ لي أن أطَّلِعَ على بنود تلك المعاهدة؟!

مدَّ «فرينانْدو» ورقةً إلى «أبي عبد الله الصغير» ليقرأ بها بنودَ المعاهدة التي أعدّها الملكان الكاثوليكيّان بِحِنكة، وبحضرةِ الرّاهب «بليدي»، والرّاهب المتعصب كذلك «توماس دي توركيمادا».

اقتنعَ «الصغير» ببنودِ المعاهدة التي كانتْ أشبه بوضع السُّم في العسل..

فقدِ اشتملتْ المعاهدةُ على ثمانيةٍ وستّين بندًا.. كان أبرزها:

** ضمان خروج الحكام بأموالهم سالمين إلى أفريقيا.

** تأمين الصغير، والكبير على حياته، وممتلكاته.

** إبقاء المسلمين في ديارهم، وعقاراتهم.

** الإبقاء على المساجد قائمة للمسلمين يتعبّدون فيها.

** عدم دخول الكاثوليك بيوتَ المسلمين غصبًا.

** أنْ يتولى أمرَ المسلمين، ولاة أمرٍ مسلمون.

** تبقى شريعة الإسلام يحتكم إليها المسلمون، ويتقاضون فيما بينهم بشريعة الإسلام.

** أنْ يُطلق سراحَ الأسرى من المسلمين.

** ألَّا يؤخذ أحدٌ بذنبِ غيره.

** ألَّا يُرغَمُ الكاثوليك الذين اعتنقوا الإسلام على العودة إلى عقيدة الكاثوليك.

** ألَّا يُعاقَبُ أحدٌ على ما وقع ضدّ الكاثوليك في فترة الحرب.

** ألَّا يدخل الجنود الأسبان المساجد.

** ألَّا يُلزَمُ المسلمُ بوضعِ علامة مميّزة.

** ألَّا يُمنع مؤذنٌ، ولا مُصَلٍّ، ولا صائمٌ، مِن ممارسة أمور دينه.

كانت مُعاهدةً ظاهرُها فيه الرحمة، وباطنها فيه العذاب..

قام الملك الكاثوليكي «فرينانْدو»، البابا في روما بتوقيعها، ممّا جعل أمير غرناطة الأسير يبتلع ذلك الطّعم في يُسرٍ!

***

لقد أُطلِقَ سراح «أبو عبد الله الصغير»، وعاد إلى قصر الحمراء، فما أن رأتْه أمّه «عائشة»؛ إلّا وانْقبض صدرُها، وعاجلتهُ بسؤالها:

- كيف أطلقَ ملكا قشتالة سراحَكَ يا أمير غرناطة؟!

تفصَّد جبينه عرقًا، وارْتعشت شفتاه، وهو يقول في زهوٍ زائف:

- ألستُ المُلقب «بالغالبِ بالله»، يا أمّي؟!

ثمّ قال، وهو لا يقوى على النّظر في عينيها الغاضبتَيْن:

- لقد هاباني!!

ضحكتْ «عائشة» ضحكةً مريرة.. وقالت، وقلبُها يحدّثها بغير ما قال ولدُها المتخاذل:

- ومَن يهابُك أنتَ.. قُل ذلك الكلامَ لأحدٍ سوى أمّك التي تعرفكَ جيدًا.

صرخَ في خُيلاء:

- كُفِّي عن الاستهزاء.. فأنتِ تُحدِّثينَ «أمير غرناطة»!

لقد أخفى «الصغير» عنْ أمِّه خبرَ توقيعه على معاهدةِ تسليم غرناطة.. ولكنّها بحاسّة قلب الأمّ التي لا تكذب؛ قدْ أدركتْ أنّ ابنها قد تحالفَ مع الغُزاة بصورةٍ أو بأخرى، وإلّا لما أطلقوا سراحَه!!!

قدِم أحدُ خدم قصر الحمراء ليضعَ الطعام أمامَ «أبو عبد الله الصغير»- بأمرٍ من زوجته «مريمة» التي سُرّتْ كثيرًا بإطلاقِ سراح زوجها- فسأل الأمير الخادم مباشرةً.. بينما كان ينكمشُ في مجلسه:

- ماذا يقول النّاسُ عنِّي؟!

فارتبَكَ الخادمُ العجوز.. ولم ينبثْ ببِنْت شفة، فصرخ به «الصغير»:

- أجبني وإلّا أمرتُ بقتلِك في الحال!

فقال الرجل:

- أعْطني الأمانَ أيها الأمير.

- لك الأمان.. قُلْ كلّ شيء بصراحة، ولا تَخَفْ. (قالها «الصغير» متوجّسًا خيفة)..

فقال الخادم:

- يطلقون عليكم لقبَ «الزغابي»، (أي المشؤوم.. والتعيس)!

ابتلعَ «أبو عبد الله الصغير» ريقَه بصعوبة، وسأله:

– وماذا يقولونَ عنْ عمّي «أبي عبد الله الزّغل»؟!

تردّد الخادمُ قبل أن يجيب:

– يدعونهُ بالباسل، ويلتفّونَ حوله، منذُ هزم القشتاليّينَ هزيمةً نكراء في «مالقة»، ودحرَهم بعدما أبادوا كثيرًا مِن مُسلميها، ونكَّلوا بهم!

تلاحقتْ أنفاسُ «الصغير» في غيظٍ سافر، وسألَ سؤاله الأخير للخادم:

– وماذا عن أمّي؟!

قال الخادم:

– إنّ مولاتي «عائشة» يدعوها الناسُ في كلّ مكان بِـ «عائشة الحُرَّة»، ويبجّلونها، ويمْتدحونها، ويشْنون عليها كثيرًا.

عِندها صرخ «الصغير»:

– اغربْ عن وجهييييي أيها الحقير!!!

لقد استبدّتِ به الغيرة مِن موقف أمّه، وعمّه البطوليّين، وقد ساءته محبّةُ الناس لهما، فمَن مِثل ذلك «الزغابي» لا يعْنيه سوى ما يقولُ الناسُ عنه.. فنفسُه رجراجة.. مَهزوزة.. يدبّ بها الوهن والهوان!!

فكان عليه– بموجب تلك المعاهدة التي وقَّعها سِرًّا– أنْ يثبّط عزائم المجاهدين، ويقنّطهم مِن النصر على فيالقِ القشتاليّين «الأسبان»، فسعى إلى إخماد ثورتهم حتى يُمهِّدُ الطريق لكلٍّ من «إيزابيلا»، و«فريناندو» لدخول «غرناطة» في أمان، ودونَ مقاومة!

***

غادرتْ «عائشة» جناحَ ابنها، وقدِ اعتزمتْ إزْكاء روح الجهاد لدى النّاس..

فاستصرختْهُم، تنادي:

– أيّها الناس.. يا أهلَ «غرناطة».. إنْ تنصروا اللهَ ينصركم، ويثبّتَ أقدامكم.

إنّ ملوك الكاثوليك قدْ باتوا على مشارف «غرناطة»!!

ثمّ بكتْ، وهي تهتفُ:

– مَنْ لغرناطة سِواكم يا أحفادَ «طارقَ بن زياد»، و» موسى بن نُصير «، و» عبد الرحمن الداخل»؟!

اثْبتوا، ولا تتراجعوا.. فإنْ مِتّمْ؛ فتلكَ الشهادة.. ولَإنْ بقيتم بقيتُم كرامًا!

هبَّ الرجال من كلّ حدبٍ وصوْب؛ يتأهّبون لمواجهة جحافل فيالقِ قشتالة، الذين أوشكوا على اقتحام «غرناطة»، وكان مِن بين هؤلاء؛ «سُليمان القُرطبي» الذي منح أسلحتَه المُدّخرة بمخازن حانوته لِكُلّ مَن يرغب بالجهاد.. كذلك «عامر».. الذي ودَّع زوجته «سديم»، وأمّه قائلًا:

– سنلتقي ثانيةً بإذن الله.. إمّا هُنا أحرارًا.. أوْ بجنةٍ عرضُها كعرضِ السماوات والأرض.

ثمّ همَّ بالمغادرة.. ولكنْ سرعان ما استدار ينظرُ إلى أمّه وزوجته، قائلًا:

- لاتبكيانِ.. فواللهِ ما خرجتُ لملاقاةِ المغتصبين إلّا من أجلكما!!

وانضمّ إلى حشود المجاهدين «ساموئيل»، و«روبرت»، و«إيڤ»، يدفعون المدّ القشتالي نحو «غرناطة»، تلك الأرض التي ترَعْرع فوقها اثنان منهما، والتي لم يجِدا مِن أهلها إلّا الحفاوة والكرم!

الفصلُ التّاسعُ عشر

(نقضُ الميثاق!!)

٢ يناير ١٤٩٢م.. «تاريخ سقوط غرناطة بين يدي القشتاليّين»

إنَّ الملكيْن الكاثوليكيّين قد قاما بعكس كلّ تلك بنود المعاهدة السّالفة تمامًا..

فقد انطلق جنودُ الأسبان «الكاثوليك» بجيشٍ مكوّن مِن خمس وعشرين ألفَ جنديّ أسباني،(٢٥٠٠٠ جنديًّا) يحاصرون «غرناطة»، ويخرّبون حدائق المسلمين، ومزارعهم، حتى لا يجدَ المسلمون ما يَقْتاتون به.

تبعَهُم جيشٌ ثانٍ، مكوّن من خمسمائة ألفَ جنديّ أسباني لملاحقة المسلمين، وقتالِهم فيما تبقَّى لهم من حصونٍ وقِلاع ببلاد الأندلس.

فما كان مِن علماء «غرناطة»، ووجَهائها؛ إلّا أن اجْتمعوا بقصر الحمراء يتباحثون فيما بينهم، فيما سيفعلون إزاءَ ذلك الحصار العصيب.

اغتمّتِ الوجوه.. واعتُصرت القلوبُ حسرةً، وصار الحزن شيطانًا يسكن كلّ زاوية مِن بيوت المسلمين..

وعاد «بهي الدين»، و «راجح»، و»عامر»، و«سليمان القرطبي»، وعشراتٌ آخرون من أعيان «غرناطة»، بعدما لم يجدوا مَفرًّا من تسليم مَقاليد «غرناطة»، بعدما اعتزمَ أبو عبد الله الصغير- في مذلّة- تسليمَ مفاتيح قصر الحمراء، وقلعته الحصينة، لإيزابيلا، وفرناندو.

وخرجَ باكيًا.. مُنكّس الرأس، مَوْصومًا بالخزي، وخذلان مملكة بهية، لطالما صمدتْ في وجْه الغزاة والطامعين طيلة قرنين ونصفٍ من الزمان!!!

فقالت عائشة الحُرّة مقولتَها الشهيرة، مؤنّبة ولدَها الذي خذل دينَه، وأرضَه، وشعبَه:

- (ابْكِ كالنّساء على مُلكٍ لم تحافظْ عليه كالرجال!!!)

وانْتحبتْ قائلة:

- ليتني لم ألِدْكَ.. ليتني لم أرَكْ!!

***

وما أن وطئتْ قدما «إيزابيلا» قصرَ الحمراء، إلّا وأخذت تقولُ هاتفة،، تخاطب زوجها «فرياندو»:

- «غرناطة» منذُ هذه الساعة لنا.. وقدْ غدتْ مَمْلكةً كاثوليكية.. فلا آذانَ بعدَ اليوم!

ثمّ نادتْ بأعلى صوتها في جموع الرُّهبان الذين تبِعوها مترنّمين:

- هيَّا انصُبوا الصليبَ فوق أعلى أبراجِ «غرناطة»!!

فمالبثَ الكاردينال «مندوسيه»- أسقُف «غِرناطة- أن اسْتجابَ لطلب «إيزابيلا»، ثمّ دعا الرّهبان جميعًا إلى أداءِ صلاة الحمد الكاثوليكية، احتفالاً بذلك النصر الكبير!

وما مضتْ عدّةُ أيامٍ، حتى تلقّى «فرناندو» رسالةً من أسقف غرناطة.. يقول له فيها:

– جلالةَ الملك الموقّر، «فرناندو الثاني»، لقد حملتُ على عاتقي مَهمّة جعْل كلّ مسلمي «غرناطة»، وكلّ مسلمٍ بأي مدينةٍ من مُدنِ قشتالة «أسبانيا»؛ كاثوليكيًّا..

وقدْ زعم– كذبًا– بأن ذلكَ تنفيذًا لأمر السيد المسيح.. بقوله:

– فلقد زارني السَّيِّد المسيح ليلةَ أمس بنفسه، وأمَرني بتنصير المسلمين جميعًا بلا استثناء!!

وعلى الفور.. كتبَ له «فرناندو الثاني» رسالةً قال فيها:

– افعلْ ما شئتَ، فنحن نُقرّ بما تراه في صالح قشتالة بالطبع.

بادر أسقفُ غرناطة– ما أنْ وصلته رسالة الموافقة– باقتحامِ مساجد المسلمين، ومصادرة أوقافها التي خُصّصتْ لرعاية الفقراء والمحتاجين.

فهبَّ المسلمون يدافعون عنْ مساجدهم، خاصةً مسجد الحمراء الكبير، وقُمعتْ ثورتُهم في وحشيّةٍ طاغية، وأعدِمَ مِـئـتـان مِن رجال الدين المسلمين حرقًا بالساحة الرئيسية الكبرى لغرناطة بتهمةِ مقاومة المسيحية!!

كان مِن بين هؤلاء الصناديدِ الوَرعين؛

السيد «بهي الدين»، و«عامر» الشابّ الورِع.. خطيب المسجد الكبير!!

***

١٢ أكتوبر .. عام ١٥٠١م

بالثاني عشر من أكتوبر عام ١٥٠١م، صدرَ مرسومٌ ينصّ على إحراق كلّ الكتب الإسلاميةِ والعربية بساحة الرّملة بغرناطة!!

ثمّ عكفَ أسقف غرناطة يدعو أسَر الأعيان والأثرياء، ويقدّم لهم شتَّى الإغراءات حتى يعْتنقوا الكاثوليكية نظيرَ أن يتولّوا مناصب مرموقة بالبلاد!!

وممّا يُدمي القلب أنِ اسْتجابت بعضُ تلك الأُسر، وارتدّتْ عن الإسلام؛ رغبةً في مناصب دنيويةٍ زائلة!!!

«ليميزَ الله الخبيثَ من الطيِّب»..

أخذ الكاردينال «خيمنيث» يعملُ على تنصير مسلمي غرناطة بالقوة، وأذاع بين أهلِ غرناطة بيانه:

- إنَّ مَن يريد البقاء في «غرناطة» عليْه أن يعتنق الكاثوليكية، أمّا مَن يريدُ أن يظلّ مسلمًا، فلسوف يُعذَّب أو يُقتل.. أو ليرحلْ تاركًا كلّ ما يملكُ بغرناطة.

تمسَّكتِ «العلياء» بدينها، ولمْ تقبلِ التّنصير، وكذلك لم توافقْ على تسليم ما بحَوْزتها من مال، وحُليّ- قد صنعَها زوجها الراحل «بهي الدين» مِن

أجلها بيديه– ومِن ثمَّ، فقد سِيقتْ لِتُشنقَ بساحةِ الرّملة، شامخةً .. أبيّة.. تشهد أنْ لا إلهَ إلا الله.. وأنَّ محمدًا رسولُ الله.

بينما وقفتْ «بوران» تتأمّل جسد «العلياء» المتدلّي من حبْل المشنقة، في تشفّ، وسعادة، وهي تقول:

– وا فرحتاااااه.. لَكم حلمتُ بمثل هذا اليوم.

ثمّ هتفتْ في فرح:

– عاشتِ الملكة «إيزابيلا».. عاشتْ مُخلِّصة «غرناطة» من المارقين، والمارقات!

نُهبتِ الأموال.. وخوَتِ الدِّيار على عروشها.. ومَن استسلم للتنصير أُطلِقَ عليه لقب «مورسيكي»[1].. وعُوملَ معاملةً دونية، لا ترقى إلى تلك المعاملةِ الكريمة التي يجدُها المسيحيّون الأسبانيون الأصل!

انتشتْ «إيزابيلا»، وأرسلتْ كهنتَها بأنحاء غرناطة، وقشتالة ككلّ، يفتشون عن كلِّ مسلم يصلي، أو يتوضّأ، أو يصوم، أو يرتدي الملابسَ الجديدة بأعياد المسلمين.

حتى كانَ الكهنة يأتون بالمسلمِ في نهار رمضان، ويُجْبرونه على تناولِ الطعام، كلحْمِ الخنزير، واحْتساء الخمر.

---

(١) مورسيكي؛ مفرد كلمة «مورسيكيّين» وتعني؛ المسيحيّون الجُدد.

فكمْ تعرَّض المسلمون لاخْتبارات قاسية؛ كي يكتشفَ الكهنة مَنْ بقي مُسلمًا ممّن اعتنقَ الكاثوليكية، وينكر الإسلام، ولا يعترف به!

وفُتح بابُ الوشايات، والفتن على مصراعيه....

فكمْ مِن رجلٍ وشَى بِجارهِ ظُلمًا وعدوانًا؛ طمعًا في زوجةِ جاره المظلوم..

وكمْ مِن رجلٍ وشَى بعاملٍ لدَيْه حتى يتهرّب مِن دفع أجره..

وكمْ مِن طفلٍ وشَى بطفلٍ مثله كذبًا..

متى نَصَّبَ الناسُ أنفسَهم أوصياء ورُقَباء على بعضهم البعض؛ لأُخِذَ العاطلُ بالباطل، واختلطَ الحابلُ بالنابل، وتفشَّى فوق الأرضِ حجيمٌ وفسادٌ كبير!!!!

لم تكتفِ «بوران» بما لحقَ مِن ويلات بالسيد «بهي الدين»، وبزوجته «العلياء»؛ هذيْن الزوجيْن اللّذينِ ما رأى الناسُ منهما إلّا الخير، والجُود.. فأقبلتْ يرافقُها زوجها «حِنزاب»- في طاعةٍ عمياء- تريدُ لقاء أسقف «غرناطة» لأمرٍ هام بالكنيسةِ الكبرى- تلك التي كانتْ مسجد «غرناطة الكبير ، والتي تحوّلت إلى كنيسة «غرناطة» الكبرى بعدَ دخول «إيزابيلا»، و»فريناندو» «غرناطة»- فقام الحُرَّاس بمنعها، ووقفتْ «بوران» ساعاتٍ.. وساعاتٍ في مذلّة تنتظر الإذن بلقاءِ راعي الكنيسة!

وأخيرًا، سمح لها أحدُ الحرّاس بالدخول.. فمكثَ «حِنزاب» بانتظارها خارج الكنيسة..

وقدْ هالَ «بوران» ما رأتْ!!

لقد كانت «إيزابيلا» تجلسُ في فخرٍ فوقَ مقعد موشّى بالذهب إلى جوار زوجها «فرناندو»- بصحن الكنيسة- يشهدان بنفسيْهما تعميد الكاردينال «خمينيث» لعددٍ كبير من أطفال المسلمين، وتلْقينهم مبادئ الكاثوليكية.. بينما يقفُ آباء، وأمّهات هؤلاء الأطفال عاجزين عن منْعِ أطفالهم مِن التعميد- هتفتْ «بوران» في ثناءٍ على الملكيْن الكاثوليكيّين:

- يا لهناءِ «غرناطة» بقدومِ الملكيْن العادليْن الكريمين!

فهدرتْ «إيزابيلا»، ونهضتْ مِن مجلسها غاضبة، وهي تقول:

- اصمتي يا امْرأة، وإلّا قطعتُ رأسكِ.

ابتلعتْ «بُوران» لسانها، ووقفتْ ساكنة، تغْشاها المذلّة.. حتى فرغَ الكاردينال «خيمنيث» مِن تعميد جميع الأطفال، ثمّ آبائهم، وأمهاتهم كذلك.

لقد تذكّرت «إيزبيلا» تلك المرأة- بُوران- والتي تمَّ تنصيرها- دون أدنى مقاومةٍ، أو رفضٍ منها أمس على يدي الكاردينال «خيمنيث»، والتي هتفتْ تحيّيها بعد إعدام «العلياء»، زوجة كبير صاغة «غرناطة»، وإيبريا بأسرها-

لذلك اطمأنّت «إيزابيلا»، وأمرتْ «بوران» بالتقدّم، والركوع أمامها قبل أنْ تنطق بكلمة.. ففعلتْ «بوران» في طاعةٍ عمياء، فقالتْ «إيزابيلا»:

– هاتِ ما عندكِ.

فقالتْ «بوران»، وهي مازالت منكّسة الرأس، راكعةً أمام «إيزابيلا»:

– لقد صرتُ «مورسيكيّة»، وزوجي كذلكَ أمس يا جلالةَ الملكة.

قاطعتها «إيزابيلا» في حدّة– بينما «فرناندو» يشاهدُ ما يجري في صمت، ويَروق له أنّ مِن بين المسلمين مَن تقبَلُ التنصّر بسهولة هكذا كتلكَ المرأة الراكعة في ذلّ أمام زوجته– قائلة:

– لا وقتَ لديَّ لثرثرتكِ.. تكلّمي مباشرةً.. ما الذي أتي بكِ إلى هنا الآن؟!

فقالت «بوران» في خضوعٍ، ومكْرٍ بالوقتِ ذاته:

– هناك امرأةٌ ترتّل القرآن آناء الليل وأطرافَ النهار، وليس ذلك فقط يا مولاتي، بل وتجْمَع النساء ببيتها، وتعلّمهم تعاليم الإسلام، ولم تصلْ إليها يدُ عدالتكم بعد!!

اعترى «إيزابيلا» غضبٌ شديد.. فصرختْ:

– أيّها الحُرَّاس، ائتوني بتلك الكافرة في الحال.

مكثتْ «بوران» بالكنيسة، بعدَ أن أرشدتْ الحُرّاس إلى مسكنِ المرأة المذكورة تفصيليًّا.

فما لبث الجنودُ سوى دقائق حتى جاءوا الملكةَ بالمرأة، فإذْ بالملك الكاثوليكي «فرينااندو» يعتدل في مجلسه، لا يستطيعُ أن يصرفَ عيناه الشّرهتان عنها لحظةً واحدة.

فقدْ كانت «سديم» كالملاكِ في صورةِ البشر.. حسناء.. فارعةَ القدّ.. رائقة الوجه.. صافيةَ العينين واسعتَها.. رشيقةً.. رقيقةً.. تغطّي شعرها الأملسَ المسترسل بوشاحٍ أبيض رقيق، تشرقُ رغم فجيعَتها في والديها، وزوجها الورع «عامر»!!

لقد أخذت «سديم» على عاتقها، تعليمَ نساء المسلمين حولها أمورَ دينهم- سرًّا- خاصةً بعد أنْ أُحرقتْ المصاحف، وكتبُ الأحاديث، والفقه، والتفاسير، حتى لا يُفقَد الدينُ بتحوّل الناس- قهرًا- إلى الكاثوليكية، ولكيْلا تندثرَ اللغة العربية من أحاديث الناس.

فقدْ أصدرت «إيزابيلا» الأمرَ بعمل «قاموس لغوي للّغة القشتالية»، تلك اللغة التي فُرضَ على الناس التحدّث بها، لا باللّغة العربية كسالفِ العهد قبل دخول الأسبان «غرناطة»!!

فقالتْ «إيزابيلا» في حدّة:

- يا هذه.. أتدرينَ ما عقوبة المسلم الذي يمارس طقوسَ الإسلام فوق أرضٍ كاثوليكية؟!

لم تردّ «سديم» بكلمة..

فأزبدت، وأرعدتْ «إيزابيلا».. قائلة:

– خذوها إلى السّاحة الكبرى، وليشهد الناسُ محرقتها بأمِّ أعينهم!!

لم تخشَ «سديم» الموتَ.. فالموتُ في سبيل الله هو أسمى غايات المؤمنين..

بينما غمرتْ «بوران» سعادةٌ ما بعدها سعادة، كعاهرةٍ ودَّتْ لو رأتْ كافة النساء عاهراتٍ مثلها!

وتأهّبتْ للحظة الانتقام التي توعَّدتْ «العلياء» و«مروج» بها قبل سنواتٍ!

ثمّ همست تلك اللعينةُ في نفسها.. قائلة:

– سيأتي دورُكِ يا «مروج».. ولكنْ ليحترقنّ قلبُكِ على «سديم» أولًا.. فتُقْتَلينَ مرّتين لا مرةً واحدة!

أقبلَ الجنود يدْنون من «سديم» بأمْر الملكة.. يوشكون على إعْدامها حرقًا!

ولكنّ «فرينالدو» نهضَ يأمرُهم في فزعٍ:

– اتركوها!!

تراجع الجنود، وحدجتْ «إيزابيلا» زوجَها في غيظٍ، فتلعثمَ قائلًا:

– حبيبتي.. أرى أنه مِن الأفضلِ أنْ نضمَّ هذه المرأة– يقصد «سديم»– إلى جاريات القصر، فتبقى في خدمتكِ!

ثمّ شحب وجهه، وتهدَّج صوته، وهو يقول:

– وسنُقيِّض لها مَن يراقبها، وإذا تبيَّنَ لنا ما قِيلَ فيها؛ فلسوف آمُرَ بقتلها بنفسي.

ثمّ دنا «فرناندو» من «إيزابيلا»، وقبَّل يدَها، وهو يقول لها في مكرٍ:

– ثقي بي!!

لقد فُتِنَ «فرناندو»، بـ«سديم»، وأبقى عليها لحاجةٍ في نفسِه..

وافقتهُ «إيزابيلا» فيما قال، وأمرت الجنودَ باقتياد «سديم» لتصبح جاريةً بقصرها!

ثمّ استدركَ «فرناندو»، وهو يرمي بناظريه باحتقارٍ نحو «بوران» التي اغتمّت، وخابَتْ مكيدتها.. قائلًا لزوجته «إيزابيلا»:

– وماذا عنِ الوشاة الذين يَخونون قومَهم يا مليكتي؟!

فهمتْ «إيزابيلا» مرادَه.. فصاحت في الجنود:

– أيها الجنود.. احْرقوا تلك المرأة بالسّاحة الكبرى الآن!!

مَن حفرَ حُفرةً لِأخيهِ وقعَ فيها.. وسيقتْ «بوران» إلى حتْفها الذي تستحقّ!

ونجتْ «سديم» مِن ميتةٍ بشعة، وتبدّلتْ المواضع بتقديرٍ إلهي..تحارُ فيه عقول البشر!!

توسّلتْ «بوران» تطلبُ عفوَ الملكة.. بينما وقف «حنزاب» مُنتحبًا يلطمُ وجهَه، وهو يشاهد زوجته «بوران» تلتهمها النار.. فصرخَ دون أن يدري:

– بوراااااااااااااااااااااان.. زوجتي!!!

فما كانَ من «إيزابيلا» إلّا أن أمرتْ بإحراق «حِنزاب» كذلك إلى جوار «زوجته»، وهي تقول في سُخرية:

– إنّ قلبي الشفيق، لا يسمح لي بأنْ أحرمَ الزوجَ الُمحبّ من رِفقة زوجته!!

أقبلَ «بليدي» متهلّلَ الأسارير.. وبِجُعبته خبرٌ– بِكُلّ تأكيد لسوف يُسرُّ له الملكان الكاثوليكيّان– فقال ما أن رآهما:

– هنيئًا لِملكا قشتالة، ولجميع مسيحيّو إيبريا!!

تحفَّزتْ «إيزابيلا» لسماعِ الخبر الذي جاءَ به الرّاهب «بليدي»، وسألته في تعجّل، ورنّة الفرح في صوتها:

– هلْ أنجزتَ المَهمّة المقدسة؟!

قاطعها زوجها «فريناندو» في تساؤل:

- ما تلكَ المَهمّة المقدسة.. «إيزابيلا»؟ أمَا اتّفقنا على أنْ نتدارس القراراتِ سويًّا قبل تنفيذها؟!

فقالتْ «إيزابيلا»، في سعادةٍ عارمة:

- لقدْ أرسلتُ الكاردينال «بليدي» في إثْر قافلةٍ ضخمة مِن قوافل الحجاج المسلمين!

عقدَ «فريناندو» جبينَه، ثمّ نظرَ إلى «بليدي».. وسأله:

- وماذا حدثَ بعد ذلك؟!

صاح «بليدي» فرِحًا:

- لقد استطعتُ، بمعاونة القوات العسكرية التي أمدَّتني بها الملكة «إيزابيلا»، أن أبيدَ قافلةَ الحجاج المسلمين عنْ آخرها بأغور الصحراء، حتى رويتُ رمالَ الصحراء بدمائهم، وحتى إذا ما انتهينا مِن قتلهم جميعًا، إذْ كنا لكأنّنا نقفُ أمامَ بحيرة كبيرة من الدماء!!

أجزلَ كلّ مِن «فريناندو، وإيزابيلا» العطاءَ للراهب «بليدي» شكرًا له إنجازَه تلك المهَمَّة العُظمى، «على حدّ وصفهما».

***

قصر الحمراء.. «غرناطة» عام ١٤٩٢م

دخلتْ «سديم» قصرَ الحمراء، ذلك القصر الذي باتَ مقرًّا للملكيْن الكاثولكيّين «فرناندو، وإيزابيلا»، بعدَ خروج «عبد الله بن محمد بن أبو الحسن» المُلَقّب «بالصغير» منه مَدْحورًا، زائل المُلك، ملعونًا مِن شعبه!

ولَمْ تتحدّث إلى أيّ مِن طاقم العاملات بالقصر، ولكنّ ثمّة شيء عجيب!

فقد أوكلت إليها مشرفةُ الخادمات بأنْ تحمل بعض الفاكهةِ إلى جناحٍ ناءٍ بالقصر..

كانت «سديم» تخشى أنْ يكون ذلك الـ«فرناندو» داخلَ ذلك الجناح.. فأخذتْ تتقدّم خطوة، وترجعُ أخرى.. حتى جاءها صوتُ رئيسة وصيفاتِ القصر، آمِرة:

- أسرعي أيّتها الخادمة الخرساء!

لقد ظنَّت الرئيسةُ المتجهّمة دائمًا أنّ «سديم» خرساء لا تتكلّم، فقد لاذتْ بالصمتِ منذ وطئت قدماها القصر!!

دلفتْ إلى الجناح الغارقِ في الظلام، على استحياء.. وبالكاد استطاعتْ أنْ تستبينَ طريقها نحو منضدةٍ مستديرة بِوسط الجناح، فوضعتْ طبقَ الفاكهة، ثمّ استدارت مغادرةً في هدوء.. وإذْ بصوتٍ أنثويّ أمومي، يستوقِفها:

- أيتها الخادمة.. احمِلي الطبق، واذهبي، فإنِّي لا أريدُ الفاكهة!

عادتْ «سديم» لتحملَ الطبق، وتذهبَ دون أن تستبينَ وجْه المرأةِ الجالسة في زاويةٍ مظلمة من ذلك الجناح الشاسع.

فإذْ بالصوتِ الأنثوي الأمومي يعودُ ثانيةً ليقول:

- عودي ثانيةً، حتى تُشعلي بعضَ الشموع بأنحاء الجناح!

ثمّ عقَّبتْ السيِّدة قائلة:

- يبدو أنَّ رئيسةَ الوصيفات قدْ نسيت أن ترسل إحداهنّ بالشموع هذه الليلة!

سرعانَ ما عادت «سديم» تحملُ شمعةً مضيئة، وترى وجهَ مُحدّثتها- قاطنة الجناح- بوضوح، وليس ذلك وحسب، وإنّما رأت كذلك قلادةً ذات فصّ فيروزيٍ كبير، تتدلّى مِن عُنق المرأة، ذاتِ البشرة الثلجيّة النقية!!

إنّها قلادةٌ مماثلة تمامًا لتلك القلادةِ التي لا تفارقُ جيدَها- تلك التي أهدتها إيّاها أمّها «العلياء» عندما أتمّتْ حفظ القرآن الكريم كاملًا بِعُمر الثانية عشرة- ومادامت تعلم جيدًا أنّ صانعَ قلادتها هو والدها «بهي الدين»؛ إذن فهو كذلك مَنْ صنعَ قلادة السيدةِ ساكنة الجناح، تلك التي تشبهُ والدتها «العلياء» كثيرًا!!!!!

تزاحمتِ الأسئلة برأس «سديم»، ولكنّها لا تدري مِن أين تبدأ، وكيفَ يمكنها أنْ تتعرّف إلى تلك السيِّدة!!

فلعلّها قريبة «إيزابيلا»، مُحتلّة «غرناطة»!

ماذا لو كانت تلك السيدة مثل «إيزابيلا» تمقتُ الإسلام، والمسلمين؟!

تسمّرتْ «سديم» حيث هي بعض الوقت، دون أنْ تتكلّم، ممّا دفع السيدة إلى سؤالها:

- ماذا بكِ يا فتاة؟!

سحبتْ «سديم» قلادتَها من أسفل وشاحها لتبرزَها أمام السيدة.. فيفغرُ فمُها، وتجحظُ عيناها.. وتنهضُ تسألُ «سديم» بصوتٍ مرتعش:

- مِمممم.. مممم.. مِمِمِن.. مِن أين لكِ بهاتهِ القلادة يا ابنتي؟!

استجمعتْ «سديم» شجاعتها، وسألت السيِّدة:

- بل مَنْ تكونينَ أنتِ؟!

فزعتْ «سديم» على إثْر مناداةِ رئيسة الوصيفات لها، قائلة:

- لماذا أطلْتِ المكوثَ عندكِ كلّ ذلك الوقت، أيتها المتلكّئة؟!

لم تجدْ «سديم» ما تقوله لرئيسةِ الوصيفات، وأسرعتْ بِدسِّ القلادةَ أسفل وشاحها في سرعة.. بينما أنقذَها ردّ سيدةِ الجناح على رئيسةِ الوصيفات:

- أنا التي طلبتُ منها البقاءَ لبعض الوقت لترتيب الجناح!

انسحبتْ رئيسةُ الوصيفات، وهي ترمي سيدةَ الجناح في دهاء..

فقد كانت رئيسةُ الوصيفات هي عين «إيزابيلا»، التي جنَّدَتها لمراقبةِ سيدة الجناح!!

ما أنِ اطمأنّتْ سيدةُ الجناح إلى ذهاب رئيسة الوصيفات؛ إلّا وأسرعت لتُحكِم إغلاقَ باب الجناح.. ثمّ عادت لتسأل الفتاةَ في اضطراب:

– تكلّمي.. فما مِن أحدٍ سوانا الآن .. مَنْ أنتِ؟ ومَنْ أعطاكِ تلكَ القلادة؟!

في ثباتٍ.. قالت «سديم»:

– إنّ أبي هو صانعُ القلادتين. فأنا ابنةُ السيد «بهي الدين»، أشهرِ صاغة «غرناطة»!

لم تدركِ السيدةُ بعدُ تلك العلاقة المبهمةَ التي تربط بين القلادتين.. فقالتْ في شجنٍ:

– أنا لا أفهمُ شيئًا ممّا تقولين يا ابنتي.. ولكن كلّ ما أعرفه عنْ قلادتي تلك؛ هو أنْ أهدانيها ولدي قبلَ أن يغادر!

– ولدُكِ؟! ما اسمُه؟! (سألتْ «سديم»..)

فقالت السيدة، وهي تنشج:

– اسمُه «ساموبل»!!

شهقتْ «سديم»، وأحسّتْ بالبرودة تسري بأوْصالها.. فسألتِ السيدة:

- أأنتِ السيِّدةُ «هِيلدا»؟!

في لهفةٍ، قالت السيِّدة:

- أجلْ يا ابنتي.. أنا «هيلدا»!

- ربّاهُ ما أعظمَكَ!!

قالتها «سديم» في دهشةٍ مِن رحمة الله بخلقِه..

ثمّ قالت «سديم»، وهي تذرف دموعَ الفرح، رغم كلّ ما مرّت به من فواجع، فيما تشدُّ على يدِ السيدة «هيلدا»:

- إنّ ولديْكِ قد تربّيا معي ببيتِ أبي، رحمهُ الله، وقد أوكلَ والدي مهمّة تعليمهما أمورَ دينكم إلى مُعلّمٍ مسيحي يُدْعى «إسحق طوبيا»، ولم تُفرِّق أمي «العلياء»- رحمها الله- بيني، وبينهما في شيءٍ يومًا.. فاطْمئنّي، وقَرِّي عينا!

الفصلُ العشرون
(حمامةٌ هادلةٌ.. وغرابٌ ناعقٌ!)

لم ينمْ «ساموئيل» طوالَ الليل، منذ علِمَ بقبضِ الجنود القشتاليين على «سديم».. لا يدري ماذا يفعل!!!

- نَمْ يا ولدي.. فليس بأيدينا شيء نفعلُه من أجلها.. سوى أنْ ندعو الربّ أن يحفظَ ابنة السيد «بهي الدين» من كلّ شرّ.

قالها «ويليام» في محاولةٍ لتهدئة «ساموئيل»!

- يا أبي.. إنّ «سديم»، هي أختي التي لم تلدْها أمي،

فقدْ ربّانا، أنا وأخي، أبوها وأمّها، ولمْ يألوَا جهدًا في إسعادنا.. كما لم يُرغمانا على اعتناق دينهم مثلما تفعلُ تلك الإزابيلا، وقساوستها الآن! فكيفَ بعد كلّ ما قدّم لنا هؤلاء من معروف أنْ نتخلّى عن ابنتهم الأسيرة هكذا؟!!!

نهضتِ العرَّافة تجري البشرى في وجْهها.. تقول بصوتٍ يغمرُه الفرح:

- سفينتنا قادمة.. لقد رأيتها!

سنُبحرُ قريبًا!

سألها «ويليام» في فزعٍ:

- ثانيةً.. وبِلا «هيلدا»؟!

وقبل أنْ تجيب، قال «ساموَيل»:

- لنْ أبرح هذه الأرض قبلَ أن أحرّر «سديم»!

قالتِ العرّافة:

- «ساموَيل».. أحدُهم بالباب.. استقبلهُ يا بُني.

لم تُنهِ «چِـبروتْـيـا» جملتَها، حتى طرقَ أحدُهم الباب..

فتحَ «ساموَيل» البابَ مُترقّبًا ذلك الطارقَ القادم قبل أنْ يبزغ شعاعُ الفجر، فإذْ به رجلٌ عريض المنكبين.. بائنُ الطول.. قويُّ الساعدين، كمصارعٍ لا يُقهر بحلبةِ مصارعة..

لم ينتظرْ حتى يدعوه أحدُهم للدخول، فدلفَ الرجل، ثمّ أقبلَ على «ويليام»، يسأله في لهجةٍ تغشاها الألفة:

- ألا تذكرني يا رجُل؟!

نظرَ إليه «ويليام» مليًّا.. ولكنّه لم يتذكّره بعد..

فقال الرجل- قويّ البِنْيَة- في ودّ:

- إنّني مازلتُ مدينًا لك بالاعتذار يا وريثَ العرش!

مُرتبكًا.. سأل «ويليام»:

- «دانييل»؟!

– نعم.. «دانييل» يا سيِّد «ويليام»، قائد كتيبة الحرس الملكي سابقًا، وقائد فيالق الجيش حاليًا!

– كيفَ عرفتَ بمكاني.. «دانييل»؟!

سألهُ «ويليام» بتعجّبٍ بالغ..

– الأب «موردخاي».. سيد «ويليام»، هو مَن قصَّ عليَّ كلّ شيء حدث لكَ بعد حريق الغابة، وحتى اليوم.. وهو ينتظرُكم على متْنِ سفينة، ستُبحرُ بعدَ ساعة تقريبًا صوْبَ بلاد المغرب حيث ستكونوا بأمان!

– ولكن..........

تردّد «ويليام» في الإفصاح عمّا يريد قوله..

فعاجلَهُ «دانييل» قائلًا:

– أعرفُ ما يُقلقكَ.. لنْ أدعكَ ترحل مرةً أخرى دونَ زوجتكَ.

– حقًّا؟!

– أجل.. إنّ السيِّدة «هيلدا» بأمانٍ على متنِ السفينة ذاتها.. فأسرعوا، واتْبعوني!

كان «ساموئيل» يتوقُ إلى لقاءِ أمّه بعد كلّ تلك السنوات، ولكنّه لم يستطعِ المغادرة قبل أن يحرّر «سديم» بعد!

لذلك قال– بعد أن أنصتَ لذلك الحوار بيْن والده و»دانييل»، قائد الجيش– في إصرارٍ:

– عُذرًا يا أبي، لا أستطيعُ أن أذهبَ معكم!

لقد رتبَ «دانييل» لِكُلّ شيء بالاتفاق السِّري مع بعضِ حرّاس، ووصيفات القصر..

كانت «مروج» تقيمُ الليل بالصلاة، مُتخفّية بدينها عنْ أعين المتلصّصين، بينما «خاطر» يغطّ في نومٍ عميق بغرفةٍ مجاورة، ثمّ تجلس بمحْرابها تذرفُ الدّمعَ الثّخين،

وقدْ خُيِّلَ إليها أنّها تسمع صوتَ سيّدتها «العلياء» جليًّا،تقول لها:

– اشْتقتُ إليكِ كثيرًا يا «مروج»!

وسماحة وجْهِ السيد «بهي الدين» تتبدّى لها، ولا تغيب عن ناظريها!

ونغنغةُ الرضيعة «سديم» مازالت تطربُ روحَها، وتلاوتها لكتاب الله تثلجُ صدرها!

وضحكاتها، ووداعتها، وحسنُها الذي يغارُ منه القمر ليلةَ زفافها إلى «عامر»..

كلّها صورٌ تتابع، وتعبُر بمخيّلتها على مدار الساعة..

فإذْ بها تنهار باكية.. وتناجي ربها:

– ياااااااارب.. أكرم نُزلَ سيدي «بهي الدين»، وسيدتي «العلياء»، وارْحمها رحمةً واسعة.. وكُنْ لابنتي «سديم» حافظًا.

وارْعها يا ربّ بعيْنك التي لا تنام..

ولا تقْبضني إليكَ قبلَ أن تبرِّدَ حرَّ قلبي بلُقياها..

طرقَ «إيڤ» بابَ مربّيته «مروج»، و«خاطر».. وما أن رأتْه «مروج» إلّا وقال:

- أُمّي «مروج».. جئتُ أودّعكِ.. فقد أزفَ الرحيل. يقولون إنّ أمّي «هيلدا» تنتظرني بالشاطئ.. فكمْ أتحرّقُ شوقًا للقياها!

اغْرورقت عيناها، وهي تقول:

- رافقتْكَ السلامةُ يا طفلي.. ولكنْ لا تنْسَ أمّك «مروج»!

ما أقسى لحظاتِ الوداع!!!

صارت مدينةُ الحمراء باردةً.. ساكنةً.. مظلمةً كمقبرةٍ موحشة من غابر الأزمان.. كأنّها مدينة رمادية عقبَ حريقٍ عظيم!!

صاحبَ «ساموئيل» والده، وأخويه، والعرَّافة إلى الشاطئ، ومازال الظلام يلفّ المملكة بردائه، ولكنّه تذكّر شيئًا هامًّا، إذْ مرَّ في عجالةٍ ببيتِ «راجح» الخياط، وتسلَّم منه أثوابَ أمّه، ومِرطَ جدّته «چِبروتْيا»، وأعطاهما لأبيه.

وحانتِ اللّحظةُ الحاسمة التي ستقعُ خلالها عيناه على وجْه أُمّه، فيضمّها في شوق، ويقبّل يديها، وقدَميها كذلك!

لقد عرفتْ فرسانها الثلاثة، فقلبُ الأمّ لا ينسى، ولا يُنكر، ولا يكفّ عن الحبّ.. لو تعلمون!

وعدَ «دانييل» السيدة «هيلدا» بتحرير «سديم»، وإخراجها مِن القصر بأقربِ فرصةٍ سانحة..

ثمّ قصدت السفينة النازحة «تونس الخضراء»!

وما أنْ قفلَ «ساموبل» عائدًا، إذْ بجمهرةٍ كبيرة من الناس يشاهدون تفاصيلَ محرقةٍ جديدة، سيقَ إليها رجلٌ وأسرته.. فمنذُ دخول «إيزابيلا، وفرينالدو «غرناطة، والفواجعُ تتلاحق، والصرخاتُ لا تنقطع، والعويلُ لا يغيب ساعةً مِن نهارٍ، أو ليلٍ عنْ بيوت الآمنين!!!

لقد سيقتْ «رينادة» وزوجها «عصام الدين» وابنُهما الأكبر إلى محاكم التفتيش، بعد أن تشاجرَ ابنهما الأكبر ليلةَ أمس مع شابٍّ قشتالي، بعد أنْ سبَّ الشابُّ القشتالي دينَ الإسلام، كي يستفزّ «جاسر» ابنَ عصام الدين و«رينادة» في مكرٍ ودهاء فاقا سنَّ الشابّ القشتالي بأعمارٍ وأعمار!!!

ولّما وجد القشتالي مِن غَيرة «جاسر» على دين الإسلام، ووجدَه مُدافعًا عن الإسلام والمسلمين؛ أوشَى به.. فكانت محاكمُ التفتيش بانتظارهم!!

حيث الكلاليب التي تمزّق الشّفتين.. والمجسّم المعدني المسمّى بالثور الأجوف؛ حيث يوضع المسلم ببطن ذلك الثورِ المعدني الأجوف، ثمّ يُغلقُ عليه، وتوقدُ النارُ أسفل ذلك الثور، فيصطلي بها الشخصُ المُعذَّب حتى الموت.

والمقاعد حيث المساميرُ التي تخترق جلودَ ولحوم الضحايا..

والتوابيت المغلقة على الأحياء، حتى يختنقون داخلها..

وإغراق الضحايا بالماء..

وقطع الرؤوس بالمقاصل..

والإعدام بالمشانق..

وغيرها مِن أهوال التعذيب، والتطهير العرقي الحاقد..

لقد أعدمتْ محاكمُ التفتيش الدموية ثلاثمائة ألفَ شخصٍ (٣٠٠ ٠٠٠ شخصًا)!!!

أحرقتْ منهم (٣٢٠٠٠ إنسانًا) أحياءً..

ولقدْ ماتَ من المسلمين المطرودين مِن الأندلس «أسبانيا حاليًا» (٦٥٠٠٠ مسلمًا)، ما بين غريقٍ، وقتيلٍ، ومريضٍ، وجائع!!!!

وقد كان «راجح» و«صفية» ضمنَ هؤلاء الموتى غرقًا، لما فرَّا بدينهما عبرَ البحر..

وكأنّهما كانا يريان مصرعَهما، لذلك رفضا أنْ يصطحبا «سديم» معهما في رحلتهما الشاقة وسطَ الأمواج الهائجة الهادرة..

عسى أن يُتمّ حملها، وتلدَ مَن يحمل اسم ولدِهما الراحل، «عامر»!

***

زُجَّ بريناددة إلى داخل قبر.. مُظلم.. مُوحش.. وقد جُرِّدتْ مِن ملابسها تمامًا.. حتى فقدتْ عقلَها، ثمّ أُعيدتْ إلى محاكم التفتيش تارةً أخرى؛ كي يمارس عليها أولئكَ المشرفون على التعذيبِ شتّى صنوف الحيل التعذيبية، التي ما أنزل الله بها من سلطان!!!

عندما تمّ القبض على «رينادة» على مرأى، ومَسمعٍ من جميع أهلِ الحمراء، بينما هرعَ «خاطر» يريد تخليصَها من بين يدي الجنديِّ الذي ربطَ يديها معًا، وسحبها خلفَه كالبهيمة؛ دفع الجنديُّ القوي «خاطرًا»، طارِحًا إيّاه أرضًا، ثمّ رفعَ سيفه، وهبط به بقوّة فوق ساق «خاطر»، فصارَ بتيرًا في الحال!

كُلّ مِن «خاطر» و«مروج»، وأسرة «عصام الدين»، جميعًا قد أُرغِموا على اعتناق الكاثوليكية، ولكنهم بقوا- كمعظم مسلمي بلاد الأندلس- يمارسون شعائر الإسلام خُفية!!!

ركضتْ «مروج» و«ساموييل» يسحبان «خاطرًا» بعيدًا، قبل أن يُجهزَ عليه الجنديّ القشتالي.. الذي شيَّع «خاطرًا» بنظرةٍ ملؤها التشفّي، والشماتة!

لقد أخبرتْ بناتُ السماء «ساموييل» عندما كان طفلًا بالسابعة؛ بأنّه سيعتني برضيع، ومَبْتور ساقٍ، وبامْرأة كفيفة، وها هو يتذكّر ذلك كما لو كُنَّ حدَّثنَهُ للتوِّ!!!

فقال «ساموييل» في نفسه:

- الرضيعُ كان «إيڤ» أخي.

وها هو «مبتور الساق».. عمّ «خاطر»..

فمَن الكفيفةُ إذن؟!

باتتْ «مروج» ليلتها تبكي مُصابَها في «خاطر»، ذلك الرجلُ الأوْحد الذي أحبَّتْ مِن بين رجال العالمين، وما أحبّها يومًا..

حتَّى إذا أسفرَ الصُّبح، و»خاطر» محمومٌ يهذي، قائلًا:

- سامحيني يا «مروج».. لقد ظلمتكِ، وحرمتُكِ حقّ الحياة!

حملَ «ساموَيل» ساقَ «خاطر» المبتورَة ليواريها الثرى، ثمّ يقفل عائدًا لرعايته..

وعندما طرقَ بابَ بيتِ «خاطر»، نهضتْ «مروج»، لم تتبيّن طريقها نحو الباب مِن أثر البكاء المرير طيلة ليلةِ أمس، حتى تعثّرت، وسقطتُ مرّتيْن قبل أن تصلَ إلى الباب..

لاحظَ «ساموَيل» عينيها الزائغتيْن.. فأجلسها، ودلفَ كي يُعِدّ مِن أجلها- وكذلك من أجل «خاطر»- طعامًا.. وعندما مدَّ «ساموَيل» يدَه لها ممسكًا بشطيرة؛ أخطأتْ يدا «مروج» موضعَ يدِه مراتٍ عديدة.. فتيقّنَ من كَفِّ بصرِها تمامًا!!

فكانت «مروج» هي المرأةُ الكفيفة التي بشرَتْهُ «بنات السماء» برعايتها!

تلك الرحيمة، التي أدركتْ أنّها قدْ صارت عمياء دونَ أن تشكو قدرَ الله لإنسانٍ، ولو كان ذلك الإنسان هو «ساموَيل»، الذي ربَّته، وأحبّتهُ حبَّ الأمّ لطفلها الذي حملته بأحشائها!!!

كرَّسَ «ساموِيل» جُلَّ جهدِه، وتفانيه في رعاية هؤلاء المسكينيْن.. خاصةً، وأنهما ليس لهما- بعدَ الله- سواه الآن.

وتمضي الأيام....

ويأتي إليه مُعلمُه «إسحق طوبيا»؛ كي يعرضَ عليه الزواج من ابنتِه الوحيدة «ماروسكا»، تلك التي تقبلُ، بلْ وترحّب بظروفه الحياتيّة العصيبة، بل ولا تمانع مُطلقًا في النهوضِ معه برعاية كلٍّ مِن «خاطر» و«مروج» إلى ما شاء الله.

فكما قال النبيُّ الخاتم سيدُنا محمدٌ صلَّى الله عليه وسلّم:

(البِرُّ لا يبلى.. والذَّنبُ لا يُنسى.. والدَّيان لا يموت)

***

هناكَ، عبْر سواحل المغرب العربي الأصيل، يربضُ مناضلون كَـأُسْـدِ الغاب؛ يريدون القصاصَ من القشتاليّين، وينامون، وملء عيونهم؛ «غرناطة»، بل بلاد أندلسٍ، ترفرف فوقَها رايات الإسلام خفَّاقة، ويصدحُ الأذانُ مجدّدًا عبْر المآذن السامقة، ويعلو فوق أبراجها الشاهقة!!

كان مِن بين هؤلاء الأبطال، ذلك المغوارُ المهموم بقضية الأندلس، وبما آلَ إليها حالُ جوهرة بلاد المسلمين بإيبريا؛ «سُليمان القُرطُبي»، ذلك الصادق، الذي أنفقَ كلّ ما كان يملكُ مِن مال، وجهدٍ في سبيل الزّودِ عن الإسلام، والدفاع عن بلاد المسلمين!!

جلسَ «سليمان القُرطبي» بين رفاقِه مِن المرابطين على أحدِ سواحل بلاد المغرب العربي، وقدْ خيَّم الليل بالأرجاء، يستعيدُ ذكريات مجدِ بلاد الأندلس، مُستحضرًا تاريخَ فتح تلك البلاد على يديْ «طارق بن زياد»، قبل ما يرْبو عنِ الخمسة قرون.. فاعْتصر الألمُ قلبه، وأحسّ باستعار لهيب القهر داخلَ صدره، فتنهّدَ بعمق، ثمّ قال في نفسه:

- رحمَ الله البطلَ المُجاهد «طارقَ بن زياد»، والقائد المحنك «موسى بن نُصير»، والخليفة التقي «الوليد بن عبد الملك»، ورحمَ الله السلطان «المريني»، سلطانَ المغرب الجسور الذي أرهبَ ملوك الأسبان، ولم يألُ جهدًا لنصرةِ مُسلمي الأندلس، ورحمَ اللهُ كلّ حاكم يسارع لإغاثة المسلمين، متى اسْتنهضوه، واستغاثوا به!!!

***

وهناك على سواحل تونس الخضراء، يقف التاريخُ شاهدًا بِعزّةِ حضارات العرب حيثما حلّوا.. لولا الشقاق بينهم!

ألا إنَّ لعنةَ الله على الشّقاق!!!!

لقد تناقلتْ ألسنةُ الناس حكايةً مِن الغرابة بمكان؛

فقالوا؛ إنّ بعض البحَّارة قد عثروا على جثتي عروسيْن في ريعان الشباب، كانتا تطْفوان على سطح مياه البحر بالقرب مِن «أندورا»؛ حيث كانت العروسُ، وتُدْعى «أثناسيا»، وكانت ترتدي «مِرط زفافٍ أبيض اللون»،

وتاجًا ذهبيًّا رقيقًا، والعريسُ كان له ملامح بحَّار شابّ، كان يلقبُ باسم «ويليام سيلور»، وقدِ ابتلعه البحرُ في أحشائه قبلَ عقود..

وتقولُ تلكَ الحكاية الغريبة كذلك؛ بأنّ كُلّ مِن «ويليام سيلور»، و«أثناسيا» قد التقيا في اليمّ..

كيف.. ومتى؟!!.. لا أحدٌ يعلم!

فهل فرّق اليَـمّ بين العاشِقَيْنِ رِدحًا بعيدًا مِن الزمان، ثمّ عاد، وتصالح معَهما؛ ليجمعَ بينهما مِن جديد..

فابتلعهما معًا؟!

هل التقيا ثانيةً، لتكتمل بذلك فصولُ حكايةٍ أبديةٍ نادرة؟!!!

وأيًّا كانتْ هذه القصة حقيقةً، أمْ محضَ خيالٍ؛ إلّا أنها ستظل تُسطّر بمداد القلوب، وتندرجُ ضمنَ قصص الحبِّ الفريدة، التي لا تُنسى!

❋❋❋

لقدِ انْتقمتْ «إيزابيلا» و«فريناندو» مِن « دانييل» قائدِ فيالق الجيش؛ بقطعِ رأسه أمامَ كافّة أطياف الشعب، جزاءً لخيانته العظمى لهما، لِقيامِه بتهريب «هيلدا» إلى خارج البلاد!

فمَن سيقوم بإطلاق سراح «سديم» إذن؟!

لم ينسَ «ساموئيل» «سديمًا»، وإنّما هو لم يجدِ السبيلَ إليها بعد!

ولكنّه قد أقسم ألّا يغادر «غرناطة» بدونها!!

بينما مكثتْ «سديم»، كوصيفةٍ بقصر الحمراء، تتكتّم إيمانها بالله، ترتّل القرآن الكريم شفهيًّا كلّ ليلة، سرًّا.. وتكثر- قبل أن تغفوَ عيناها- مِن ترديد قولِه تعالى:

﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾[١].

يحوم حولَها خطرُ الإعدام بأيّة لحظة!

رغم تحوّلِها إلى «موريسيكية»- ظاهريًّا فقط- بينما وقرَ الإسلامُ بأعماقها سرًّا بينها، وبين خالقها، إلى أنْ يقضيَ الله أمرًا كان مفعولًا.

إلّا أنّ هناكَ عيونًا تراقبها، وآذانًا تتلصّص عليها، وشياطين ودّتْ لو وضعتْ بأمثالها أسفلَ المقصلة..

ورغم ذلك.. فهي لا تهاب الموت!

أمّا «فرينانْدو» فكمْ حاول أنْ ينال منها بمراودتها عنْ نفسها، ولكنها مازالت ثابتة..

وهو مايزال خائفًا يترقّب.. يخشى أنْ تعلم «إيزابيلا» برغبتِه بامرأةٍ غيرها.. وبرغبتِه كذلك في خيانتها.. وهي الملكة ذاتُ الأيدي الباطشة التي لا تتورّع عنْ سحق مَنْ يستهين بها!

---

(١) الآية 9 من سورة يس.

ينتفخُ بطنُ «سديم» يومًا بعد يوم، وشهرًا تلو الآخر، إلى أن وضعتْ طفليْها التوأمين، «بهي الدين، والعلياء»، ابناها مِن زوجها الراحل «عامر» بعد ثمانيةِ أشهرٍ مِن استشهاده، بجناح الوصيفات، بقصر الحمراء..

ورغم كلّ شيء..

ورُغم كلّ ما حدث!!

مازالتْ «سديم» صابرة.. تراقبُ أبراج الحمراء مِن خلال الفتحات التي تتخلّل القضبان الحديدية بنافذةِ حجرتها الضيقة بجناح الوصيفات، فيما يتردّد بمخيّلتها صوت الأذان، وترتيل زوجها الراحل، «عامر» لكتاب الله بصوتٍ كقيثارةٍ من السماء!

ثمّ تداعب صغيريها الرّضيعين، «بهي، والعلياء» اللّذيْن أطلق عليهما الكاردينال «خيمنيث» عندَ تعميدِهما- جبرًا- اسما «مارييل»، و«ماروخا» فتهمسُ ناظرةً إليهما، بينما يبتسمان في براءةٍ:

- أنتِ يا صغيرتي، اسمُكِ «العلياء»، وليس «مَارييل»!

وأنتَ يا فارسي، اسْمُكَ «بهي الدين» وليس «مَاروخا»..

فليطلقوا عليكُما مِن أسمائهم ما يُريدون؛ ولكنّي سأبقى أدعوكما باسْمَيكما الحقيقيّين ما حَييت!

ثمّ تستطرد «سَديم» في عِزةٍ، وإباء:

- أنتما ابنا «عامر بن راجح بن عبد الرحمن بن عبد مالكِ المُلك..

ربُّكما، وربِّي اللهُ الواحدُ الأحد، ودينُكما، وديني الإسلام!!!

لذا؛ فلا بُدّ أن تحفَظا كتابَ الله كاملًا- بصدريكما- رغمَ أنفِ الغاصبين..

ثمّ ينتابها شيء مِن اليأس، وتروح شاردةً للحظات، فتقول مُتَوجّسة:

- أخشى أنْ نبقى هنا وحدَنا، مدى الحياة يا صغيريَّ!!

ولكنّها سرعان ما تستفيقُ مِن شرودها على هديل حمامةٍ بيضاء وديعة، تقفُ أعلى برجٍ شاهق مِن أبراج الحمراء؛ فتفزعُ الحمامة، عندما يُحلِّق بالأفق غُرابٌ أسود، فتطيرُ مُبتعدة بين الغيوم ليحلّ الغراب محلّها، ويقف مَزْهوًا بانتصاره الزائف، وينعقُ بصوتٍ بغيض؛

غااااق..

غااااااق..

غاااااااااااااااااااااااااااااااااق..

إلى أمدٍ؛ لا يعلمه إلا الله!!!

❋❋❋

تمّت بحمْدِ الله تعالى؛

معَ خالص مودّتي، واحْترامي لكلّ مَنْ طالعَ سطوري؛

أسماء إبراهيم الصياد